المركز الديمقراطي العربي
للدراسات الاستراتيجية، الاقتصادية والسياسية
Democratic Arabic Center
for Strategic, Political & Economic Studies

رحلة الأسرار المدفونة

د. مجدي صالح

رواية



الطبعة الأولى (2019)
رقم التسجيل: VR. 33685.B

د. مجدي صالح
رحلة الأسرار المدفونة
المركز الديمقراطي العربي

لايعرف الباحثون جوزيف هاليفي إلا كمؤرخ وجامع آثار الذي اكتسب شهرته من رحلته إلى اليمن والتي جمع خلالها ٦٥٠ نقشاً، كما لا توجد ترجمة عربية لكتاباته.

الرواية تسلط الضوء على الهدف الحقيقي للرحلة وأحوال اليمن في تلك الفترة مع التركيز على الحالة الاجتماعية ليهود اليمن وعلاقاتهم مع القبائل والسلطة.

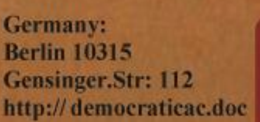
أحداث الرواية حقيقية تعتمد على مصادر تاريخية موثوقة.

حاول الروائي إنصاف الحاخام والعالم اليهودي اليمني حاييم حبشوش الذي تم إغفال دوره في رحلة جوزيف هاليفي الشهيرة.

المؤلف.







Germany:
Berlin 10315
Gensinger.Str: 112
http:// democraticac.doc



المركز الديموقراطي العربي
Democratic Arab Center
Strategic, Political & Economic studies



رحلة الأسرار المدفونة

Journey of Buried Secrets

رواية

طبعة الأولى

٢٠١٩

رواية : رحلة الأسرار المدفونة
المؤلف: د. مجدي صالح
رقم تسجيل الكتاب : VR. 33685.B
الطبعة : الأولى
تصميم الغلاف: أ. المصطفى بوجعبوط
الناشر:
المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية. برلين _ألمانيا

المركز الديمقراطي العربي للدراسات الإستراتيجية والسياسية والاقتصادية
:Germany
Berlin 10315 GensingerStr: 112
Tel: 0049-Code Germany
030- 54884375
030- 91499898
030- 86450098
mobiltelefon : 00491742783717
E-mail: book@democraticac.de

ملاحظـــــــــــة:

جميع الشخصيات والأحداث مستوحاة من وثائق تاريخية متعددة منها ما دونها الرحالة الشهير المستشرق الفرنسي جوزيف هاليفي وما دونه أيضاً الحاخام اليهودي اليمني حاييم حبشوش وهما وباقي الشخصيات والأحداث في الرواية حقيقية. اليهوديان جوزيف هاليفي وحاييم حبشوش كانا مولعين بالبحث عن النقوش القديمة التي تزخر بها اليمن.

المؤلف

صنعاء، عاصمة اليمن، هذه المدينة هي أجمل وأنظف مدينة في شبة الجزيرة العربية ونصفها مهدم فالحي المسمى (بير العزب) (حيث كانت توجد بيوت التسلية وحدائق الأئمة [...] وأيضاً (قصر غمدان) الشهير أصبح خالياً من السكان تقريباً. ولم أجد أبنية من عصر ما قبل الإسلام، في حين نرى بعض الأحجار التي تحمل بعض نقوش موجودة على بعض الصروح وعلى أبواب المدينة الرئيسة.

جوزيف هاليفي ١٨٧١

الإهــداء

إلى صنعاء معشوقة السماء

٦ أيلول ١٨٦٩ (٢٩ ذو فلسم ١٩٨٤ حميري)

يقف جوزيف هاليفي صامتا أمام الإمبراطور الفرنسي تشارل لويس نابليون بكل ثقة. قال له الإمبراطور بصوته العذب وبلهجة باريسية:

- لقد بلغني مشروعك، صحيح، أنه مثير للاهتمام، ولكن تلك البلاد ذات تضاريس وعرة وكذلك أهلها وعرون أيضا.

قال كبير مستشاريه:

- بريطانيا لم تستطع استكشاف تلك المناطق ولا يمكنها الوصول إليها. هاليفي سيفعل ما في وسعه لاستكشاف اليمن. فهو يهودي، واليهود في اليمن نشطون رغم أنهم مضطهدون.

رد هاليفي بثقة:

- إنه لشرف لي سيدي أن أقدم للإمبراطورية الفرنسية كل ما أستطيع.

نظر كبير المستشارين بوقار للإمبراطور وقال وهو ينحني:

- امنحه دعمك يا سيدي.

أخذ الإمبراطور نفسا عميقا وقال لعامة مستشاريه:

- أمنح العالم جوزيف هاليفي دعمي. (مد يديه وهو يقول كلماته)

أشار كبير المستشارين للعالم جوزيف هاليفي ليقول ما عنده:

- شرف عظيم يا سيدي أن أقضي عمري في خدمة الإمبراطورية الفرنسية. (انحنى وقال) المجد لفرنسا.

انتهى لقاء هاليفي بالإمبراطور، وخرج مبتهجا يسلك الدرب إلى قاعة المستشار وأمام عينيه اسمه لامع في محافل الاستكشافات. أذن له بالجلوس. تناول المستشار رسالة مطوية ومربوطة بخيط رفيع ووقف ليقابل هاليفي وهو يقول:

- مسيو هاليفي، مهمتك ليست بالسهلة.
- نعم، أعلم ذلك. ولهذا، قبلت المهمة.

ابتسم المستشار وناوله الرسالة:

- في الحبشة، سيدلك قنصلنا على حاخام، ناوله مكتوبنا. سيضع نصف المال المطلوب للرحلة لدى صائغ ذهب يهودي في نجران. والنصف الآخر في ورق اعتماد مالي لدى تاجر يهودي في صنعاء.

حاخام الحبشة سيخاطب حاخام عدن وصنعاء ليعلم اليهود بقدومك لتسهيل مهمتك.

- حسنا.
- أتمنى لك النجاح في بلاد العرب السعيدة.

باريس واحدة من أكثر مدن العالم جمالاً، إذ تتخللها الحدائق والمتنزهات والميادين التاريخية. يتعرج نهر السِّين وهو يشق مجراه وسط المدينة وتجري به سفن عملاقة، بينما تحدد أشجار الكستناء جوانب شوارعها المشهورة. لجمالها وأهميتها المعرفية والتنوير الفكري، فقد سميت بمدينة النور. أطلق عليها هذا الاسم خلال عصر التنوير منذ القرن السابع عشر إلى سنوات القرن الثامن عشر. منذ ألفي عام مضت، قال القائد الروماني يوليوس قيصر عن أهل باريس إنهم ماهرون مبدعون ويميلون إلى الشجار في ما بينهم؛ ومازال الوصف واقعياً عن الباريسيين حتى اليوم. فهم مشهورون بفنونهم الإبداعية وحرفهم، وتؤدي مشاعرهم السياسية القوية إلى الشجار المرير في ما بينهم. يقول المثل: "كلما تغيرت الأشياء، ظل أهل باريس على حالهم."

تشهد باريس تحولا في المناظر الطبيعية والبنية الحضرية. أعيد بناء أوتيل ديو، تم إنشاء مسارات جديدة، الأرصفة مبطنة، شارع سيباستوبول الأول من نوعه الذي افتتحه العام الماضي

الامبراطور، تعبر منه عربة يجرها حصان فوق الأرصفة الجديدة، يهتز هاليفي وهو يجلس على مقعد العربة في طريقه إلى مقهى ومطعم لا كلوسيري دي ليلاس في شارع دو مونتبارناس١٧١. يكاد يطير سعادة بتكليفه بمهمة استكشاف اليمن، يعرف حق المعرفة بأنه سينجز المهمة بنجاح باهر متفوقا على من سبقوه معتمداً على ذكائه ومهاراته.

***

قبل الرحيل بدقائق، يطوق جوزيف هاليفي عنق زوجته ويقبلها وكذلك هي. مشاعر ممزوجة بالحب والقلق معا. تدمع زوجته قلقا عليه وينتابها ألم الفراق:

- حبيبتي! سأعود سالما.
- أخاف عليك من هذه المغامرة.
- نتيجتها ستحدد مستقبلينا معا.
- لكنني أخشى أن يصيبك مكروه، حبيبي.

- لا تفكري بذلك، ولا تستهيني بقدرات حبيبك.

مسح دمعها بأصبعه، وقبلها قبلة الوداع وانفصل الجسدان بألم مطلق. عاد جوزيف هاليفي إلى الخلف خطوات نحو باب شقته. نظراتها لم تفارق عينيه وتلك حبات النقاء تتلألأ في عينيها، يخفي مشاعره الجياشة نحوها ويدير لها ظهره ويفتح الباب ثم يوصده بسرعه، وينزل من السلالم نحو الخارج، تلحقه وتفتح الباب وتراقب نزوله حتى يختفي ليبدأ سفره بحراً نحو (السعيدة)

***

نجران، في النصوص السبئية "نجر" تعني الحار، ويُقال إنها سميت بهذا الاسم نسبةً لنجران بن زيدان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. أقدم ذكر لها في النصوص المسندية في القرن الثامن قبل الميلاد. يهود نجران يعملون في رعي المواشي ولهم أيضاً نشاط حرفي عالي المستوى، يتسمون بالسلم والهدوء. فهم لا يتملكون الأرض. بمعنى أدق، لا يُسمح لهم. يُعاملون بالحسنى ولهم مساحة من الحرية والحقوق التي تساويهم بالقبائل. سعيدة ابنة معيض (مري معيض) أصلها من صنعاء وأخوالها من بيت فنحس هكهن (من منطقة صعدة). وبهذا، تعتبر عريقة النسب والحسب.

هي فتاة تجاوزت العشرين من العمر. بقياس نسبة جمالها، يمكن معادلة طيبة قلبها. فهي شديدة الجمال وهي من النساء المشرقيات اللاتي ذاع صيت جمالهن على كل بقاع اليمن ويضرب بهن الأمثال والقياس. اليهودية النجرانية تلتزم بالعادات والتقاليد والاحتشام الشديد في اللبس مثل بنات القبائل وبل أن لكلاهن التزام بالصرامة الدينية أيضاً. لسعيدة أخت تصغرها بثلاثة أعوام واسمها ميمونة حيث تتشابهان في الشكل والفرق أن سعيدة أطول من أختها. أما في شكل الوجه، فتمتاز سعيدة باتساع العينين وسواد البؤبؤ وعرض الحواجب وسوادها وبياض الوجه العريض والأنف الحاد متوسط الحجم الأسنان شديدة التناسق والبياض والفم المتناسق مع دقة الشفتين متوسط الاتساع، حيث أنها إذا ضحكت يزيد وجهها بريقاً من بياض جلدها واحمرار الوجنتين ولمعان أسنانها. لضحكتها نغمة مرح، تلفت النظر بذلك لأنوثتها المفرطة. تمتلك خفة دم تنم عن براءة قلبها وجِيد روحها لكنها تقف على النقيض من ميمونة أختها التي تمتاز بالدهاء اليهودي الفطري. المقربون من العائلة يعرفون أن سعيدة ليست ذكية بما فيه الكفاية منذ صغرها وهي ممن ينخدع بسهولة، وقريناتها كن دائما يخدعنها في سن الطفولة سواءً عند اللعب أو في ما يخص أشياءها. ذات مرة في سن العاشرة، كانت تلعب أمام المنزل مع قريناتها فاقترحت

عليها إحداهن أن تمضيا إلى وادي نجران للعب لعبة الانتظار حيث تبقى هي في انتظار صديقتها حتى تأتي بخمسة تمرات من النخيل البعيد شرط أن تكون سقطت من أثناء القطاف. وبينما هي في الانتظار وإذا بصديقتها عادت لمنزلها وبقيت هي في مكانها منتظرة. وبعد الغروب، انتابها الرعب والخوف وآوت إلى شجرة، أسدل الليل ستارته واهلها يبحثون عنها وبأيديهم سراج من السّمن الذي يُضيء الطريق. وبعد ساعات يأس، وجدوها غارقة في دموعها مصفرة الوجه ترتعد. كان يمكنها التفطن والعودة لمنزلها، فهي تعرف الطريق جيداً وإبلاغهم بما حدث معها بكل بساطة لكنها آثرت الانتظار لترجع صديقتها حتى جاء المساء. هكذا هي سعيدة، ومن المؤكد أن السبب طيبة قلبها وحسن نيتها وكرمها. فليس في قلبها ضغينة ولا كره لأحد ودائماً ما تعاتبها أمها وتحاول أن تفطنها وكذلك أختها. وكثيراً ما يصفانها بالساذجة عند احتدام النقاش معها في هذا الجانب.

***

المستشرق جوزيف هاليفي، بلغ من العمر اثنين وأربعين عاماً، يهودي الديانة، متبحر في الدين. ذلك الرجل ذو البشرة البيضاء جميل الهيئة

والمظهر، بارز الوجنتين وممتلئ الوجه، جاحظ العينين، مزموم الشفتين وذو أنف طويل مستدق. رجل متميز من نواحي عدة، قوي البنية، يروج لنفسه بأنه جسور، تمتزج شجاعته بحدة ذكائه، له قدره عالية على الإدراك، يجيد القتال بالالتحام الجسدي واستخدام السلاح. فقد خاض دورة في الفنون القتالية والتجلد. متخصص في فنون معرفية عدة، العربية من ضمن اللغات التي يجيدها بطلاقة، يجيد جانبا من المصطلحات الدارجة اليمنية. غادر فرنسا في بداية الخريف وبعد رحلة بحرية طويلة تقريباً خمسة أشهر في البحر زار الحبشة لمدة أسبوعين ثم تابع رحلته إلى ميناء عدن في بداية الشتاء وفي استقباله (الكابتن مايلز) قاضي الصلح في المستعمرة البريطانية (عدن). يصحبه معه للراحة والتوجيه والمعرفة.

يعود تاريخ عدن إلى القرن السادس قبل الميلاد، وتقع على ساحل خليج عدن وبحر العرب. تُعد أهم منفذ طبيعي على بحر العرب والمحيط الهندي وتتحكم بطريق البحر الأحمر (بحر القلزم). كانت أهم المحطات المهمة لتجارة التوابل التي انتعشت لمدة ألفية كاملة. في بداية نشأتها، كانت شبة جزيرة صغيرة فقيرة الموارد. موقعها بين مصر والهند عزز اقتصادها ومكانتها الاستراتيجية على مدى التاريخ، ورد ذكرها في (سفر حزقيال) في العهد القديم كإحدى المدن ذات العلاقة التجارية مع صور اللبنانية. كانت

تتبع أرض حضارة مملكة أوسان. ذكرها اليونانيون باسم (ميناء تجارة العربية) وتعدد ذكرها في كتب كثير من المؤرخين العرب قبل الإسلام وبعده.

التنافس والصراع البحري الكبير بين فرنسا وإنجلترا في البحر الأحمر (وصل إلى حد التصادم العسكري بينهما قبالة سواحل اليمن). والمحيط الهندي عزز من أهمية الموقع الاستراتيجي لليمن بشكل عام والتي تشرف على البحر الأحمر وبحر العرب، فكانت الحملتان الفرنسيتان الأولى والثانية على سواحل اليمن، وتعرض ميناء المخا المشهور تاريخياً للقصف الفرنسي عام ١٧٣٨ وتم احتلاله لفترة قصيرة فقط.

ذات يوم، في عام ١٨٠٥ وصلت أخبار إلى بومباي (جعلت المسؤولين البريطانيين في حالة طوارئ قصوى) مفادها بأن الشريف حمود (حاكم أبي عريش) قد باع جزيرة كمران اليمنية للتاجر محمد بن عقيل السقاف والذي اشتراها للفرنسيين. وبناءً على ذلك، فقد أرسلت حكومة الهند البريطانية تهديداً شديد اللهجة للشريف حمود (وكأنها وصية على المنطقة) بأنها ستحتل جزيرة كمران في حال إتمام صفقة البيع للفرنسيين، وأبلغته أنها على استعداد لدفع المبلغ الذي تسلمه الشريف حمود إذا لم يعد بمقدوره إرجاعه. ومن هنا، ضغطت بريطانيا على الشريف حمود لتوقيع اتفاقية تمنع

دخول أي فرنسي جزيرة كمران اليمنية أو أي منطقة تقع تحت نفوذه وبأن السفن البريطانية وحدها يحق لها دخول ساحل تهامة.

الأمبراطورية العثمانية يُقلقها أي اقتراب أوروبي من السواحل اليمنية والسبب الرئيسي لديهم استراتيجية دينية كون اليمن قريبة من البقاع المقدسة الإسلامية وليس لأنها ذات أهمية واستراتيجية جغرافية ذات البعد العميق. لذا، وبضغط من بريطانيا تحرك الباب العالي العثماني للضغط على الحليف الفرنسي (هذا التحالف سبب إحراجا لفرنسا في العالم المسيحي، إذ نعت تحالفهما بالاتحاد الذي دنس زهرة الزنبق والهلال، إذ بدأ هذا التحالف في زمن الملك فرونسوا الأول وسليمان القانوني) بأن لا يكون لها موطئ قدم في ميناء المخا بالتزامن مع إعلان الباب العالي بأن بقاع واسعة من المغرب المطل على المتوسط ليس ذات أهمية للإمبراطورية العثمانية، (التعليمات الموجهة لروح الدين أفندي القائم بالأعمال التركية في فرنسا عام ١٨٣٤ الاهتمام الاقتصادي المتدني للإمبراطورية العثمانية في الجزائر، إذ وصفت هذه التعليمات الجزائر بأنها مكان لا قيمة له). ولسبب وآخر، تجاهل الباب العالي مطالبات حليفه القوي (فرنسا) في حل الخلافات لتنتهي الأمور بسيطرة فرنسا على شريط المتوسط (الجزائر) عام ١٨٣٠ وضمها للامبراطورية الفرنسية وبعلم الباب العالي. وبالمقابل (حتى يُثبت

العكس)، التخلي عن أي نوايا عسكرية في سواحل اليمن وعدم دعم قوات محمد علي باشا (المدعومة بخبراء عسكريين فرنسيين) والتي سيطرت على سواحل اليمن، وصلت إلى حد تهديد وجود الدولة العثمانية وزوالها. لذا، انكفأت فرنسا عسكريا في سواحل اليمن واكتفت بممارسة التجارة عبر ميناء المخا بواسطة شركة الهند الشرقية الفرنسية على غرار شركة الهند الشرقية البرتغالية كذلك الهولندية لتنافس البريطانية وجميعها شركات تجارية تم تأسيسها لربط التجارة العالمية مع ميناء المخا ولها صلاحيات عسكرية نالتها من البرلمانات. فعمدت السلطنة العثمانية إلى تحصين السواحل اليمنية بالأسوار وبناء المنشآت العسكرية في كافة المدن الساحلية والجبلية، واهتمت السلطنة العثمانية بالفنارات في جنوب البحر الأحمر (رغم أزمتها المالية) ونصبت المدافع لتؤكد وجودها وقدراتها في هذا الشريط البحري. وفي لحظة مثيرة للتساؤلات، تحولت سواحل اليمن الى منطقة نفوذ مشتركة بين السلطنة العثمانية وبريطانيا. وها هي أهم بقعة من نصيب الإمبراطورية البريطانية والذريعة سفينة هندية اسمها (داريا دولت). بريطانيا تقول إنها تعرضت للقرصنة ونهبها عرب من عدن. انتهت القضية إلى عدن مستعمرة بريطانية التي تمكنت من التحكم بخط

يربطها بالهند ومصالحها في الشرق الأقصى. أحكمت القوات البريطانية سيطرتها على مدينة عدن في ١٩ كانون الثاني ١٨٣٩.

وبما أن البريطانيين لم يبقوا حجرا في مستعمرتهم "عدن" ولم يقلبوهُ، فلم تعد ذا جدوى وفائدة (للمسيو هاليفي) من حيث الآثار والنقوش، فاتخذ من عدن مكاناً للتزود بما يغفل من معلومات عنها خاصة وعن اليمن عامة، ويتعرف على يهود عدن للنصيحة، ولتوصية إخوانهم في صنعاء وفي ربوع المناطق. تلقى توصيات خطية تسهل مهمته. كرر عليه حاخام عدن ما يخشاه:

- سيدي، لا أخفيك أن رحلتك محفوفة بالمخاطر، كم دخل إخوان لنا ولم يخرجوا، هؤلاء البشر ليسوا بالهينيين. وإن أبديت شجاعة، لن تعدو خطوة في أرض اليمن. إن أبديت حرصا وتمسكنت، نجوت ونجحت فيما أنت آت من أجله. في اليمن، لا تكابر، لا تنفعل، وتصرف كما يتصرف إخواننا. فقد عاشوا لقرون في مزراب لا أمان فيه. وإن استخدمت عضلاتك، فكل صوت يمني يردده الآخر وينتشر في ساعة ويعلم الناس جميعا بمقصدك. وحينها، لا مهرب لك. وأنصحك بأن لا تثق بتجار عدن خاصة المسمى

"مسلل" فأني أقرأ الخبث في عينيه. يتقرب منك لأمر في نفسه من الخبث والاستغلال.

(الآن، وأكثر من أي وقت مضى، يدرك هاليفي قيمة النصيحة، لأنه حاول في الأيام الماضية التوجه إلى صنعاء عبر السلطنات المجاورة لعدن وعلى بعد مسير ست ساعات وصل إلى مدينة لحج. وعند آخر ثكنة موالية للاستعمار البريطاني، بدأت المخاطر الفعلية لرحلته وكاد أن يتعرض للخطر أكثر من مرة بسبب قطاع الطرق المنتشرين بكثرة وتكاد النجاة منهم مستحيلة. ليس ذلك فحسب، بل أن سلطان الحوطة "فضل بن علي" منعه من مواصلة الطريق إلى صنعاء وأمره بالرجوع إلى عدن وذلك لتوجسه الشديد من هاليفي. لذا، قرر العودة فورا إلى عدن وتغيير مسلك رحلته إلى الحديدة لتكن نقطة الانطلاق نحو صنعاء.)

شكره على خطابه ونصائحه وقفل عائدا إلى نقطته الأولى ميناء عدن، ثم ركب باخرة إلى الحديدة.

***

اشتد مرض رجل يهودي اسمه كوهين. ومن عادة اليهود في نجران أن تكون عيادة المريض واجبة وملزمة مع تقديم مؤونة غذائية لمنزل المريض

ليكون في استطاعته إكرام الضيوف وخاصة ممن يأتون من خارج المنطقة. والزيارة لا تكون عابرة، بل إقامة لأيام سواءً شفي المريض أو مات. والغرض أن في حالة الوفاة يرسل المتواجدين قرب المتوفي لأهاليهم في القرى والمناطق البعيدة ليبلغوهم بخبر الوفاة ليتسنى لهم الحضور ليقدموا واجب العزاء. واجب مري معيض والد سعيدة بأن يزور المريض كوهين، جهز كمية من الدقيق والسمن. وبما أن سعيدة هي الأكبر سناً، فقد أمرها بالتجهز للذهاب معه غداً وأن تأخذ معها ما تحتاجه فلربما سيباتا هناك لأيام. في صبيحة اليوم التالي، انطلقا إلى بيت كوهين والذي يقع خلف وادي نجران، بقيا هناك لمدة خمسة أيام كانت مضجرة بالنسبة لسعيدة من حيث الروتين اليومي. فبيت كوهين متكون من دور واحد فيه غرفتان فقط وأحدة فيها المريض ويبات معه الزوار والغرفة المجاورة لزوجته ونساء الزوار إن وجدن. في اليوم الخامس، قدم لزيارة المريض شباب من اليهود يبلغ عددهم ستة، فقرر مري معيض أن يغادر ويترك مساحة للزوار الجدد وأمر ابنته سعيدة بأن تبقى مع زوجة المريض لتساعدها وتخفف عليها في حالة ما حدثت الوفاة. زوجة المريض كبيرة في السن وبلغت الستين من العمر وزوجها يكبرها بأربعة أعوام. سعيدة هي الآن من تدبر أمور المنزل. فقد قامت بواجبها وأكرمت الزوار وأعدت لهم الغداء والعشاء. أحد

الزوار أسمه يعقوب بن شلوم كثير الحركة، جريء، معسول وطليق اللسان لديه ميزة المرح والابتسامة التي لا تفارقه. بلغ من العمر ستة وعشرين عاماً، متوسط الطول ومستطيل الوجه، متوسط الوسامة. يعقوب يرمق سعيدة بنظرات إعجاب وهو الأكثر جراءة من باقي الشباب الزوار. قدمت سعيدة لهم الغداء وبادر يعقوب بجمع الأواني معها ونقلها إلى المطبخ والذي يُبنى في السطح عادةً. "جميلة جداً يا سعيدة، بحياتي ما شفت أجمل منك ومن عيونك" هذا ما قاله في المطبخ، ارتبكت وخرجت من فورها تبعها وأمسك بيدها وقد تأكد له أنها بدأت تنهار أمامه ويداها ترتعدان وأنفاسها تتسارع "سعيدة، أنا معجب بك وما قد تزوجت، دخلتِ قلبي وبتزوجك" قال هذا ومازالت صامتة تتصفح عينيه. وبالكاد، تبلع ريقها. ترك يدها وتراجع خطوة وهو يقول: "فكري بي ولا تخجلي سنتزوج، أنا صادق ورب موسى". ثوان وانسحب وترك سعيدة لقلبها يقذف حممه وأطلقت لخيالها العنان لتنتقل لحلم السكن والسكينة في منزل أبدي وثارت في صدرها غريزة الأمومة. وبما أن سعيدة طيبة القلب ودائما تصدق ما يقال ببراءة، فقد راحت تقتنع بسرعة بكلام يعقوب وانتقلت بعد ذلك إلى مرحلة الذوبان به والإعجاب. وإذا بصوته يموج بداخل إذنيها وتطرب له ولو كانت أختها في نفس الموقف والتي تمتلك فطرة دهاء

ولا تسلم الأشياء لميزان حسن النية لصدت يعقوب منذ البداية، لربما غادرت الدار ولما تسلل يعقوب إلى قلبها بسهولة دون عناء يُذكر.

***

على رصيف ميناء الحديدة المهترئ والذي لا تتوفر فيه أي خدمات أو أدنى إمكانيات ترقى به إلى مستوى ميناء مؤهل استراتيجي يليق بعروس البحر الأحمر، وقف جوزيف هاليفي مرتدياً قبعة يتصفح شمالاً ويمنة تحت درجة حرارة عالية، يمسح حبات العرق بمنديل من القماش، أخذ نفساً ساخناً ممزوجاً بالرطوبة، تقدم خطوات ليستوقفه شخص قهوي البشرة ونحيل، يرتدي ملابس محلية قماش ملفوف حول الخصر من السرة إلى الركبة، فبادرة:

- أنت الفرنساوي؟

الهواء الساخن وملح المكان يلسعان وجهه وعينيه. بنصف عينين مغمضتين، رد عليه بالعربية:

- نعم، أنا الفرنساوي.
- مرحبا بك. الحاخام أرسلني لاستقبالك، إنه في انتظارك.
- شكرا.

رافقه بصمت حذر، عيناه تصور وتدون كل شيء في الميناء حتى خرجا منه، يراقب الشارع بحذر. غبار، خيول عابرة، أسراب الجمّال تغادر محملة بالبضائع. الناس هناك منهمكون ببهائمهم وبضائعهم ونقلها إلى السمسرة حتى يتناقص جنون الشمس لتبدأ رحلات باتجاه عموم اليمن لنقل البضائع. شارع الميناء الممتد إلى قلب المدينة ليس معبداً بالأحجار. بل أن الغبار المتطاير نتيجة مرور البهائم والبشر يكاد يخلق جوا من الأتربة تسيطر على المكان وتكتم الأنفاس. لم يمرّ من الوقت الكثير سوى العشرين دقيقة ما بين زيادة أو نقصان القليل. وصلا إلى حارة يسكن أطرافها اليهود ببيوت شعبية متجاورة مبنية من عود الخيزران ومسقوفة بالحصائر ومفتوحة لعبور الهواء لتبريد المسكن. وفي الجوار، بالقرب منهم يسكن المسلمون في بيوت مشابهة لأن المنطقة حارة جدا ولا تشجع على تحصين البيوت وغلقها. بل تبقى النوافذ والأبواب مفتوحة لمرور الهواء لتبريد الجو شيئاً ما. أمام كل منزل سور يحيط بالمسكن وبعض النخيل، منها من يمتلك أربع نخلات ومنهم من يمتلك أكثر. في الحديدة، طاردته نظرات الناس للبسه الغريب والمختلف تماما. ما إن وصل إلى بيت حاخام الحديدة، ونال الترحيب اللائق، حتى بادر بالسؤال. لأن النظرات مازالت تطارده من الحاخام أيضا، ليسأل بأدب:

- عذرا مولاي الحاخام، هل ثمة شيء غريب؟
- نعم، فلبسك فرنجي، وهذا منبوذ ومحرم في اليمن سواءً من اليهود أو المسلمين.
- سأغير هيئتي حال بدء السفر إلى صنعاء.
- هذا جيد، وإلا كان اللبس أول سبب لقتلك بتهمة أنك نصراني جاسوس.
- كل هذا بسبب لبس البنطلون.
- نعم. نحن يهود اليمن نستنكره والمسلمون يستنكرونه. ومن يلبس البنطلون فهو نصراني غازي لبلادنا.
- هل هذا توافق بينكم وبين المسلمين؟
- نحن يمنيون سواء كنا يهوداً أو مسلمين. ويبقى النصراني الغازي لبلادنا هو الدخيل علينا.

بيت حاخام الحديدة متواضع مثل سائر البيوت. الجدران مبنية من قصب الخيزران وكذلك سطح المنزل لكي يقاوم حرارة الجو ولو بنسبة ضئيلة. أقام على شرفه مأدبة غداء من السمك المشوي والفتة بالتمر.

***

أربعة أيام كانت كافية ليعقوب ليُوقع سعيدة في شباكه، رفاقه الزوار الصاخبون عند الحديث والمزاح طاب لهم البقاء في بيت كوهين حتى دخل في غيبوبة واضطروا للمغادرة كلٌ باتجاه عائلته ليبلغهم أن كوهين ربما سيموت وعليهم المجيء لزيارته. غادروا جميعاً وبقي يعقوب بحجة أن كوهين وزوجته وسعيدة بحاجة لرعاية، له ما أراد. عند غياب الشمس وكانت سعيدة مجرد حمم تُقذف من الحب السطحي الساذج الذي ينم عن فراغ عاطفي شديد، فقد حصرها يعقوب في زاوية المطبخ ووهبها قبلاً متباعدة وهي مسلمة أمرها بسكون تارة وبنفور تارة أخرى. تناولوا العشاء ومرّ من الليل القليل وتبين ليعقوب أن زوجة كوهين قد غطت في نوم عميق، تسلل إلى الغرفة بهدوء والسراج على وشك الانطفاء وسعيدة تفترش في جانب المرأة العجوز، شهقت وهي تراه واقفا بجانبها، أشار لها بأن لا تحدث ضجة أرادها تتبعه، وقفت مفزوعة معتقدة في بادئ الأمر أن كوهين قد توفي، تبعته إلى غرفة كوهين الفاقد للوعي وهناك تسنى له الحديث معها وسحرها بالكلام المُذيب لتماسكها، تفاجأت أن نداءه لا علاقة له بكوهين وأن يعقوب أرادها للحديث عن العشق: "سعيدة، لولا أنك دخلت قلبي ما كنت كلمتك وناديتك، ثقي بي ما أخدعك ورب موسى بل أضعك بعيني، هنا في هذه الغرفة ما أقدر أعبر لك عن

مشاعري، لنصعد للسطح ونتخيل حياتنا مع أولادنا على ضوء القمر".
اقتنعت سعيدة بصمت وهو يجرها بيدها نحو السطح. لم يستغرق كثيراً من الوقت وهو يُثيرها بالكلام المعسول حتى اقترب منها وتلاصق جسداهما وهما واقفان وراح يقبلها وهي تقول له: "بموسى لا تخدعني، بموسى لا تخدعني" رد عليها "ورب موسى إنك زوجتي وأم أولادي وبعد انقضاء فترة عزاء كوهين نعلن زواجنا". ما حدث بعد ذلك هو أنها سلمت جسدها ليعقوب بسهولة ليغوص فيه كما يريد. ومن المؤكد أن بعد ذلك، غمرها شعورها بالندم والخوف ثم البكاء، لكن يعقوب يجيد تلطيف الجو. فهو ساحر واستطاع التحكم به.

***

قضى هاليفي وقتا في الحديدة تجاوز الأسبوع، زار ينابيع السخنة الحارة ذات المياه الكبريتية وزار وديان سردد وسهام ونخلة وادي مور. اتسمت زياراته بالهدوء التام كون الحديدة مدينة ساحلية يشتغل أهلها في الميناء وفي الصيد والزراعات المتنوعة، كونها أيضا غنية بالوديان والينابيع. والحديدة مشهورة بسلمية أهلها وهدوء طباعهم. يوم السفر باتجاه تعز، تغير (المسيو جوزيف هاليفي) إلى هيئة متسول مقدسي. تدرب على ذلك كثيراً في

فرنسا، ابتكر شخصيته ونقلها من الخيال إلى الواقع. وبدا مقنعا سواء عند التدرب أو في مكانه هذا الأول للانطلاق في مسيرة طويلة. خرج من البيت بشخصية جديدة تماما، تحت اسم (يزيد لبيب عاطف). متسول يهودي جاء من القدس. يرتدي قطعتين من القماش ذاتي اللون الأزرق، يلف بأحدهما نصف جسده السفلي، والأخرى يلف بها صدره. قماش قديم ممزق ومدعك. لم يأخذ من المال سوى ريال لرحلته، أجرة دليل الرحلة، لتوصله إلى تعز ثم صنعاء، وأوراق اعتماد مالي لدى تاجر يهودي في صنعاء يمكنه التزود بالمال بسهولة. وتلك طريقة آمنة كي لا يتعرض لسرقة وسبيلا مقنعا بأنه متسول. تزود ببعض الطعام والقراطيس وأقلام الرصاص. خرج برفقة حاخام الحديدة إلى نقطة الانطلاق (سمسرة، مكان للاستراحة، تتجمع فيه القوافل حتى تحمل بالبضائع وتنطلق)، قافلة جمال محملة بالبضائع في طريقها إلى تعز. سلم حاخام الحديدة هاليفي تحت اسم (يزيد لبيب عاطف) إلى مسؤول رحلة القافلة الذي يدعى (الجمال) يعرفه الحاخام مسبقا. ومع ذلك، أحضر ثلاثة شهود على أن الجمال استلم المتسول اليهودي ليوصله إلى مقصده تعز. انطلقت الرحلة، عبورا بالسهول والجبال والوديان والقرى، لم ير يزيد لبيب عاطف أي حرج في ممارسة التسول طوال الرحلة لتزويد نفسه بالطعام والماء. كان يلقى إحسانا

من بعض القوافل بإعطائه خبز مسحوق يصب عليه السمن ولبن الناقة. تواصلت رحلته بهدوء وسلام ابتداء من الحديدة وعبوراً بما يسمى آنذاك اليمن الأسفل، والذي غالبا ما كانت تسكنهُ السكينة في بعض مناطقه لانشغال السكان في الزراعة كون المناطق زراعية. الموسم مثمر وهطول الأمطار لهذا العام اكفى احتياج الأرض. ولو لم يكن الموسم جيدا أو كان الجفاف والجوع حاضرا، لتحول الجوعى إلى قطاع طرق للبحث عن رزق. لكن هذا لم يحدث منذ أعوام.

***

ثلاثة أيام مضت ويعقوب وسعيدة في حالة غرام عميق، التقيا في خلوة أكثر من مرة حتى ذلك اليوم الذي فارق فيه كوهين الحياة. حضر الكثير من اليهود لتجهيز كوهين للدفن وبدأ العزاء وعج المنزل بالزوار الوافدين من كل مكان. ومن يقوم بواجبه يغادر ليحل محله زائر. عادت سعيدة إلى منزلها وكأن شيئاً لم يكن منتظرة انقضاء فترة العزاء حتى يتقدم يعقوب لها ويتزوجها. سلفاً، تفاهما على اللقاء في منطقة على الجانب الأيمن لوادي نجران حيث النخيل وبركة طبيعية تتجمع فيها مياه السيل المتدفق عبر الوادي الخصيب. يعقوب أختار هذه المنطقة بعناية. فهو يعرف تفاصيل

المكان لكونه يمرّ بقوافله التجارية التي تنطلق من سوق نجران الشهير إلى مقاصد عديدة حسب العرض والطلب. لم يهدأ يعقوب وسرعان ما مرّ من أمام منزل سعيدة للمرة الثالثة هذا اليوم ووالد سعيدة مري معيض وزوجته في واجب تزويد العزاء بالطعام. لمح يعقوب سعيدة واقترب حتى رأته وأشار لها لتتبعه ومضى نحو المكان المتفق عليه سلفاً. وصل قبلها وانتظرها على شوق خبيث. وما إن وصلت سعيدة حتى تلقفها وحضنها وراح يقبلها وهو يقول: "اشتقت لك يا سعيدة. وشريعة موسى، ما قدرت أتحمل دونك، متى تنتهي فترة العزاء لنتزوج ما عاد اتحمل ولا أقدر أصبر"، ردت عليه وقد استوطن الحب قلبها واشتد عشقها ليعقوب وهي تراه قد تداخل بها لمرات تكفي للألفة والمودة وكفيلة بنسج علاقة لا تنقصها إلا تراتيل الحاخام. على جبينه حركت ما تبقى من ثباتها وهوت معه على الأرض: "حبيتك يا يعقوب ولو على نظري بجيبه لك ولو على عمري ما يغلى عليك، بحياتي ما شعرت بهذا الاحساس والحب، أحبك يا تاج رأسي". رد عليها بغزل أنتهى إلى الغوص بها في نشوة مشتركة بينهما.

***

بدت بداية رحلة يزيد (هاليفي) موفقة وفيها من المتعة ما لا يوصف. يخرج من واد ويدخل الآخر، يصعد جبل ويمّر على القرى. الناس لطيفون نوعا ما رغم الحذر الشديد من التعامل مع الأجنبي. الجو يتحسن وكأنه يمرّ على كل فصول السنة بمجرد خروجه من منطقة ودخوله الأخرى. بدت له المناطق وكأنها غابات متجاورة وسواق وحقول. في خط التجارة وممرات قوافل الجمال يتواجد السماسر (استراحات المسافرين والجمال وتخزين البضائع...). وبما أن يزيد يرافق قافلة تجارية، فلم يواجه مشكلة المكوث والاستراحة. أينما وقفت القافلة، وجد مكاناً للاستراحة. أما في أماكن متهيئة لمكوث القوافل في الخلاء أو في السمسرة إن وجدت. مع مرور الزمن، تكون في الخلاء أماكن ومساحات آمنة للاستراحة وكل قافلة تترك ما لا تحتاجه لمساعدة القافلة التالية مثل الحطب والماء. يتم ربط الجمال وإنزال الحمولة الثقيلة لتستريح. ومن ثم يطبخون وعادة يصطحبون معهم ضأناً حي، يتم ذبحه عند الحاجة، ويجهزون القهوة المحلية التي هي غالبا من قشر البن، ويجهزون النارجيلة العربية (المداعة). ومنهم من يمضغ أوراق القات. عند وصوله إلى تعز، وجد من أخذه إلى مكان تواجد اليهود في منطقة (شراب). دله الناس على منزل الحاخام، حيث وجد ما يسره من حفاوة وكرم ضيافة.

لم يخف يزيد إعجابه بمدينة تعز التاريخية التي احتضنت الدولة الرسولية التي شيدت قلعة القاهرة وتشكلت فيها دول ونفوذ واسع لموقعها الجغرافي الفريد. طلب يزيد من حاخام تعز مرافقته إلى قلعة القاهرة في السفح الشمالي لجبل صبر. انطلقوا صباحا ومروا على السفوح من منطقة صالة إلى منطقة (السواني) لزيارة قبر الحاخام الشبزي. فرصة لا تعوض ليزيد لبيب ليقف على قبر شالوم بن يوسف الشبزي أبرز رجال الدين اليهود في اليمن حاخام حبر وشاعر مفوه باللغة العربية الفصحى والعبرية وفيلسوف ويعتبر من أبرز مؤرخي زمانه وله موشحات دينية إسلامية من تأليفه. على القبر، تمتموا بأدعية وقرأوا من صدر الكتاب على روح الحاخام الشبزي. كم أنتظر يزيد هذه اللحظة التي يقف بها على هذا القبر. قليلا من الوقت، وإذا بشخص يقترب من القبر ويتوجه نحو القبلة ويرفع التكبيرة للشروع في الصلاة. دهشة أثقلت لسان يزيد لبيب، شعر بشيء غلط فيما يدور من حوله، جذب حاخام تعز من كمه إلى الخلف وقال له باللغة العبرية:

- ما الذي يحدث؟! كيف لمسلم يصلي ويتبرك بقبر حاخامنا؟!

رد عليه حاخام تعز:

- الأمر عادي، وتعود الناس على ذلك.

سأله بجبين مقضوم وتكشيرة انفعالية:

- ما هو العادي؟ أنحن أمام قبر الحاخام الحبر شالوم بن يوسف الشبزي؟ أم أننا مخطئون؟
- نحن أمام قبر الولي الصالح شالوم بن يوسف الشبزي رحمه الله.
- وما الذي جاء بالمسلم للتبرك بالقبر والصلاة بجواره؟!
- شهرة مولاي شالوم بن يوسف الشبزي أنه ولي صالح من أولياء الله. والجميع يأتي للتبرك على قبره، جرت العادة لأنه صالح، البعض من المسلمين يأتون نتيجة للتسامح الديني، والبعض الآخر لا يعلمون أنه يهودي. فقط أنه من الأولياء الصالحين. ولا يمكن أن نقول للناس أنه يهودي ونمنعهم من التبرك والصلاة. هو من أولياء الله سواء لليهودي أو المسلم ولا فرق فجميعنا مرادنا لله.
- هذا جنون.
- الجنون أن نمنع المسلمين من التبرك.
- أتدري؟ لو أراد الله وكان قبر شالوم بن يوسف الشبزي في أرض الميعاد.
- وها هو هنا بين أهله، ومن يصح له أن يتبرك به مسلم ويهودي غير مولاي شالوم بن يوسف الشبزي.

قفلا يومهما لزيارة قلعة القاهرة وعادا إلى منزل الحاخام. هناك، سأل يزيد لبيب إن كان أحد يعلم مكان مخطوطة قديمة أو منحوتات. دله الحاخام على مخطوطة واحدة. وقتا جميلاً قضاه يزيد لبيب في تعز لهدوئها ولطافة أهلها. وجاء يوم مواصلة الرحلة باتجاه صنعاء. رافقه حاخام تعز إلى سمسرة خارج المدينة حيث ستواصل للقافلة رحلتها منتصف هذا اليوم. وهناك، سلمه للجمال قائد الرحلة وهو من أبناء مدينة تعز.

***

اليمن، ذُكرت في القرآن البلدة الطيبة، وفي التوراة الأرض الغنية و(بمملكة التيمّن)، وأطلق يهود اليمن على المنطقة اسم تيمّن، والقصد هو الجهة الجنوبيّة من البلاد. سماها قدماء المصريين الأرض المقدسة، والإخباريون ببلاد القصور، والمستشرقون ببلاد الغرائب، والاسترابون ببلاد الطيب، والتسمية الشهيرة حسب التاريخ الإغريقي والروماني هي اليمن السعيد أو العربية السعيدة. ورد ذكرها في الكتابات السبئية القديمة باسم يمنات. أول النصوص والمستندات في كتابات الحِميريّين ذُكرت فيها بصيغة يمنة، يمنت، واليمن الخضراء. أمّا العرب، فقد اختلفوا حول معنى كلمة اليمن. البعض قال أنّها مشتقة من البركة وهي عكس الشؤم،

والبعض الآخر قال إنها سميت بهذا الاسم لوقوعها على يمين الكعبة، أو نسبة لـــــــ "أيمن بن يعرب بن قحطان" حيث قيل إنه أبو اليمن. وقيل إن اسم اليمن يُقصد به أرض الجنوب، جنوب شبه الجزيرة العربية. والمرادف هو أرض الشمال أو أرض الشام.

في الألفية الثانية ق.م، قامت ممالك سبأ ومَعين وقتبان وحضرموت وحِمْيَر. هم من أوجدوا أقدم الأبجديات في العالم (خط المسند). لغة اليمن السعيد كانت (العربية الجنوبية القديمة) وأيضا الصيهدية، نسبة إلى منطقة صيهد أو رملة السبعتين (هي مجموعة من اللغات المنقرضة كانت تستخدم في جنوب شبه الجزيرة العربية. وهي أربع لهجات سبئية وحضرمية وقتبانية ومعينية). اليوم، يتحدث اليمنيون العربية باللهجة اليمنية .وهي لهجة متطورة ومرتبطة ارتباطا وثيقا باللغة القديمة.

اليمن في القرن الثامن عشر يختلف تماما عما قبله وعما قبل الإسلام. حيث أن التاريخ الإداري لشؤون المجتمع كان يخضع على مرّ تاريخه لكتلتين إذا غابت أحداهم ظهرت الأخرى. كتلة النظام والدولة الواحدة وإن كانت منقوصة وغير مكتملة بوجود الأئمة مثلا، وكتلة القبيلة التي توجد نفسها بتاريخها الجغرافي للمنطقة بديلا عن الدولة لتحمي نفسها من بطش وغزو القبيلة المجاورة لها. القانون القبلي يتطور حسب الحاجة والمعضلات

والاجتهادات. والنقباء هم محركو للقبائل غزوا وسلما. في الوقت الذي يحتكم فيه الإنسان اليمني إلى قوانين تحت رعاية أي نظام حكماً جامعاً وليس مناطقياً. يبدأ الرخاء الاقتصادي وتقل نسبة الجوع والوفيات بسبب الأحكام والضرائب ومدخول الدولة وإن كانت فاسدة. وبانعدام الدولة لتنظيم حياة الفرد اليمني، تتحول القبائل إلى غازية بغية الكسب والرزق، وتعتمد على تكوين جيوش القبائل من الجوعى الذين وصل بهم الأمر في بعض المناطق في بداية القرن الثامن عشر إلى التلحف بقطعة قماش بالية لستر عورتهم. وبسبب التغيرات السياسية للبلد، ينهار المجتمع اليمني اقتصاديا مع طول فترة الحروب الطويلة. وبينما كانت تسقط الدول المجاورة سقوطا حرا بيد الاستعمار، فصنعاء وما حولها كانت تستعصي وتطول الحروب وأحيانا تصل لسنوات وتصاب بالانهيار الاقتصادي. وإن اختصمت القبائل عند حصار صنعاء، تسقط بسهولة كما حدث مع حصارها من قبل العثمانيين.

الغريب بلا أهل أو قبيلة، إما أن ينهب أو يقتل أو يساق عبدا كرزق ساقه الله للقبيلي. وتلك عبارة يرددها عند الاستيلاء على الغريب (رزق ساقه الله لي). ومن هنا، الحساسية الشديدة من الغرباء، وخاصة الأجانب، لا يستحسن اليمني وجوده في مناطقهم. ولذلك أسباب، منها صفاء السلالة

وعدم تحبيذ الاستعمار لما له من آثار تخلط السلالات بين الغازي والمغزي. كما أن الأجسام البيضاء صفة من صفات الشياطين التي تردد على المسامع من قبل المشعوذين.

أما شكل صنعاء المدينة المسورة، فلها سبعة أبواب، وهي إحدى المدن القديمة المأهولة باستمرار، ويُقال إنها بنيت في القرن الخامس قبل الميلاد على أقل تقدير، حيث أصبحت عاصمة مؤقتة لمملكة سبأ في القرن الأول للميلاد. صنعاء في نصوص المسند (صنعو) وهي مشتقة من (مصنعة) وتعني الحصن، هي باهية وأجمل عاصمة عربية وتنافس عواصم العالم على أعلى مراتب البهاء، تزخر صنعاء بالعمارة البرجية التي لا مثيل لها في المعمورة وربما العالم من أشكال هندسية بديعة وإتقان معماري فريد كون لليمن جبال تستخرج منها أحجار البناء الملونة السوداء والحمراء والبيضاء والصفراء والخضراء. وإلى جانب هذا التنوع، أعتمد الصنعانيون على الياجور الأحمر وتفننوا بالزخارف والنقوش والقمريات وبنوا مدينتهم الضاربة جذورها في عمق التاريخ. فيها الأسوار والمساجد والسماسر والحمامات والأسواق والمعاصر. مواسم صنعاء لا مثيل لها، ودیانها زلال عذب يروي من في الأرض وباطنها، وبساتين مذهلة فيها كل أشكال متنوعة من الفواكه والخضار والأزهار العطرية بأنواعها. تمتاز صنعاء،

بكل ما هو جميل وحرفي. انشغلت القبائل في زراعة الفواكه المتنوعة من العنب بأنواعها إلى الخوخ والسفرجل والرمان وغيرها من أرقى الأصناف. وكانت نقطة توزيع ما تيسر للجوار بما تجود به أرض صنعاء وما حولها من مناطق مثل الروضة وبني حشيش وبني مطر لوفرة المياه والسواقي. أسواق صنعاء حالياً تمتاز عن باقي المناطق اليمنية أو الجوار، بتجارة مزدهرة للبهارات المتنوعة، والصناعات العالية الدقة من الفضيات والسيوف (كانت العرب قديماً تقول "لا سيف إلا السيف اليماني") والنارجيلة العربية (مداعة) والأقمشة، وكل ما يمكن بيعه الذي يستورده التجار إلى عدن ومن ثم ينقلونهُ إلى صنعاء. وقد بدأت تجارة وتسويق المستوردات عبر "عدن" ولقيت رواجا مثل الصابون والفوانيس النفطية.

***

أسبوعان من اللقاءات بين يعقوب وسعيدة في ضفة وادي نجران يتخللها غوص في المتعة، لكن سعيدة اليوم طرحت عليه سؤالاً بصوتها العذب "متى تتزوجني؟" من فوره، رد عليها بثقة "فور عودتي من الحجاز، سأذهب في تجارة". صحيح حصل لها ما يشبه الهزة وارتعدت إلا أنها راحت تستفسر عن تفاصيل كثيرة وهو يجيبها بما يعزز ثقتها به بكل

احترافية وكأنه يُسوق بضاعته واعداً إياها ومقسماً بأن سفره لن يطول عن الشهر وأنه استعجل السفر ليجمع المال ليتسنى له إقامة عرس يليق بسعيدة. الفراق موجع بالنسبة لسعيدة لأنها أحبته فعلاً وبإخلاص. عادت للمنزل بوهن وألم شديدين عكس مرحها المألوف، وراحت تعيش في عزلة وانتظار وشوق لحبيبها من الساعة الأولى. لاحظت أختها ميمونة بأن حال سعيدة تغير وراحت تلح عليها لتخبرها ما سبب شرودها، لم تخبرها فقد وعدت يعقوب بأن تكتم السر وألا تبوح به.

***

حي (قاع اليهود)، منفصل عن حي الصنعانيين. يتكون تقريبا من عشرين حارة، فيها تعداد سكان يصل لعشرة آلاف نسمة، ومعنى القاع في صنعاء (هو الأرض السهلية المنبسطة أو الوادي). يبدو الحي من الخارج مهترئاً ويدل على ضعف الحال المادي والسلطوي أيضا، مبني من الطين الممزوج بروث الحيوانات لتعطي تماسكا فعالا ولا يتعدى الطابق الواحد وبحوش وجمال داخلي أنيق مزين بالنقوش حول رفوف النوافذ والقمريات. الجدران مكسوة بالجص وتمتاز البيوت بالنظافة المطلقة سوى بيوت اليهود أو قبائل صنعاء. في حي قاع اليهود، سوق خاص فيه ورش صناعية

ويشتهر اليهود خاصة وقليل من الصناعيين من أبناء القبائل في الصناعات التقليدية. وامتاز اليهود بصناعة النحاس والصياغة (تُكلفهم الدولة بسك العملة ودائما يشتكي السكان من قرع المطارق طوال الليل) والخناجر اليمنية (الجنبية) ودبغ الجلود والخياطة بحرفية عالية جدا.

وصل يزيد لبيب إلى صنعاء (قاع اليهود) وصحته في تدهور وبدأ يعاني من حمى وصداع عند مروره من منطقة حزيز. وحال ما أوصله الجمّال إلى بيت حاخام صنعاء، استقبله بما يليق بالضيف حسب العرف اليهودي بدهن أقدامه بالسمن. في الديوان (غرفة الاستقبال) يبدو كل شيء جميلاً ولا فرق بينه وبين بيوت القبائل الصنعانية سوى وجود الشمعدان المصنوعة من النحاس على منضدة النافذة، ورائحة المجلدات العتيقة. اللافت المشترك في الدواوين هو السجاد الفارسي وتكون فخامته حسب ثراء مالك الدار. المداعة المطرزة بالفضة والمطعمة بالزخارف ذات اللون الذهبي، وطبق نحاسي عريض توضع عليه المداعة مُزركشة بالكتابات العربية والعبرية والحِمْيَرية والكوفية. وهناك على مقربة من الضيف قلة فيها ماء مبخر. وحدهم الصنعانيون في هذا الكون يبخرون الماء بالبخور. وتلك تقنية مكتسبة ومتوارثة منذ القدم الحضاري. بعد الوليمة، قدموا للضيف القهوة

المصنوعة من قشرة البن المطهو على الجمر الذي يوضع ليلا حتى الصباح لتتعتق رائحته وتسمى (قهوة قِشر).

كان المرض قد نال منه ولفترة طويلة وصلت شهراً. خرج لاستكشاف جبل نقم ولم تتحسن صحته بعد، نسخ بعض الكتابات وزار قصر سام بن نوح المقابل لنقم وعاد إلى منزل الحاخام وقد اشتد عليه المرض حتى كاد أن يموت. اشتد قلق حاخام صنعاء عليه، وطلب في استدعاء طبيب شعبي. لم يكن قرار الطبيب الشعبي مقبولا لدى يزيد فرفض الكي في بطنه ليذهب منه الداء كما قال له الطبيب. فما كان من الحاخام إلا أن استدعى حاييم بن يحيى الملقب بحبشوش. جاء حاييم وتعرف على يزيد وعرف أن مرضه بسبب تغير حالة الجو من منطقة لأخرى، خاصة أن صنعاء في نهاية موسم يحتضر في آخر الدهر وهو موسم البرد والقليل من الثلج الذي يغطيها ثم يغلفها الصقيع ويتسبب في توقف حركة الصناعيين والتجار في قلب صنعاء التاريخية. خرج حاييم لجلب وصفته التي طالما جربها كثيراً عند سفره وكان يصيبه ما أصاب يزيد لبيب.

تحسنت صحة يزيد تدريجيا، وبدأ الصقيع يغادر، وتفتحت زهور صنعاء وأنارتها الشمس لوحدها في هذا الكون الفسيح. تجهز يزيد للشروع في رحلته. رشح حاخام صنعاء (حاييم) لمرافقة يزيد في رحلاته وزوده

بتوصية ليهود اليمن لتسهيل مهمته واستقبالها وإيوائها. حاييم بن يحيى، تاجر النحاس، تجاوز من العمر السادسة والثلاثين، نحيل الجسد، كثيف الشعر، لحيته طويلة، مستطيل الوجه، ومثل سائر اليمنيين متوسط القامة. هو عضو بارز في الطائفة اليهودية اليمنية، يحظى باحترام شديد بين اليهود والقبائل لأنه ذو عقل راجح وطليق اللسان ويفهم في الأعراف والتقاليد، ما يميزه ويعلو من شأنه ومقامه. هو متبحر في كتب الديانة اليهودية والتاريخ ويحب التعلم والاطلاع والترحال والاستكشاف. يعرف بين العامة "بحبشوش". أسرته تعتبر واحدة من أقدم العائلات اليهودية المعروفة في اليمن، ولقب أسرته آل الفتيحي. وافق يزيد بعد أن وجه بأسئلة إلى حبشوش واتفقا على أجرته شرط أن يجربه في استكشاف (بيت بوس، التابعة لمنطقة بني مطر). وفي ٢٠ فبراير ١٨٧٠ بعد مسار هذه الرحلة. سيتخذ يزيد قراره النهائي بشأن اختيار حبشوش مرافقا له في رحلاته.

توجها إلى منطقة بيت بوس. في بداية الطريق، توقف يزيد لبيب عن المشي وأمسك بكتف حبشوش وثبت ناظريه على شفتيه وهو يتمتم بالعبرانية من صدر الكتاب ذات فصاحة مطلقة، فقال باستغراب:

- تحفظ أم أنك تفسر؟

- يا معلمي، نحن ورثنا الكتاب، ويهود اليمن متدينون. فلا تعجب من فصاحة لساني وما يحفظه قلبي. فنحن نتوارثها ونجتهد في تعليم أنفسنا. وأيضا، ليس عليك حرج أن تناديني بحبشوش.
- حسنا، لنتابع سيرنا.

شعر حبشوش أن من أسماه معلمه يزيد لبيب لم يستحسن تدينه وطلاقة لسانه أو أنه تفاجأ حيث كان يظن أن يهود اليمن يسحقهم التخلف الديني. لذا، رأى انه من المستحسن بذل ما يمكن في سبيل مرافقة يزيد (هاليفي) وإشعاره بالرضا نحوه. فقرر اصطحابه إلى منزل صديقه القريب منهما. في البداية، رفض يزيد فقال له حبشوش:

- الجو مازال قارساً، وصديقي (سعيد العروسي) لديه شملة زائدة عن حاجته. لنأخذها لك لتدفئ لحمك وعظمك وتستتر بها أمام قبائل ويهود اليمن.

هذا جعل يزيد موافقا على هذه الزيارة التي دامت بعض الوقت، حصل على شملة تدفئ جسده.

حاييم حبشوش ويزيد (جوزيف هاليفي) يهوديان، كلُ يبارز الآخر في مخيلته للسيطرة على الآخر. يحتدم الصراع الفكري بينهما، وكلُ يأخذ حذره من الآخر فمبدأ الثقة المطلقة منعدم. تواصلت الرحلة، وقد صار

حبشوش أكثر حذراً لا يفصح إلا بالإجابة على قدر السؤال خشية أن يغير معلمه رأيه ولا يصحبه في رحلة الاستكشاف. مرت ساعات حتى وصلا إلى أطراف المنطقة المقصودة، فتوقف يزيد وأخذا نفس الصعداء، وسأل حبشوش:

- ما اسم صنعاء قديما؟
- مدينة آزال يا معلمي. ويُقال إنها سُميت مدينة سام بن نوح وهو من بناها.
- أعلم ذلك، ولكن هل مذكور في كتاب من كتبكم ما اسمها قبل دخول الأحباش؟
- مذكورة في التوراة آزال فقط، هذا ما أعلم.
- لا دليل على أنها هي المذكورة في التوراة.
- أيضاً يا عظيم القدر ومنير عقلي، يُقال كان اسمها أزال منذ القدم حتى دخلها الأحباش وكانت الحصون مشيدة بالأحجار الصلبة، فقالوا هذه صنعة ومعناها حصينة. وهناك قول آخر بأن (آزال) تعني باللغة الحبشية (صنع) أي القوة والصلابة.

هز يزيد رأسه وقد رفع حاجبيه وراح يسأل في موضوع يدور في خلده:

- أين تقع مكتبة صنعاء؟
- لا علم لي، لا أعتقد أن لصنعاء مكتبة قديمة.
- أتقول هذا عن معرفة ودراية يا حبشوش؟!
- ما عمري سمعت بمكتبة قديمة وتاريخية في صنعاء، لكنك أثرت في عقلي السؤال يا معلمي، صنعاء بتاريخها العريق وما فيها مكتبة مثل مكتبة حضرموت التاريخية ولا مثل مكتبة بغداد وغيرهما؟!
- ها أنت تمسك بطرف الخيط. لابد وأن هناك مكتبة ومخطوطات إما أن تكون مدفونة أو تم حرقها. في صنعاء كان يوجد دار مخطوطات هي الأعرق والأضخم في المنطقة، هذه الدار اختفت ولا معلومة منقولة تقول لنا ما مصير هذه الدار!
- لا أعلم. لكن من تعتقد أنه أحرقها يا معلمي؟!
- ربما الأيوبيون من فعلوها. فحملتهم لم تكن وردية في اليمن، حيث كان تمويل حروبهم الطويلة من ذهب وثروات اليمن والتي كانوا ينقلونها بشكل مستمر عبر قوافل إلى البحر. ولهم تاريخ في حرق المكتبات التي تخالف مذهبهم أو غير الإسلامية أيضاً.
- أها... وأنا دائما أتساءل أين اختفت كنوز سبأ وحِمْيَر وباقي حكام اليمن؟! مع أن بلادنا ما تعرضت لاحتلال كبير. ودائما يسير عقلي

إلى أن الكنوز مدفونة في القبور أو في الخرائب. واليمنيون ما خلوا قبراً قديماً وما نبشوه باحثين عن الكنوز.

- نريد مخطوطات تؤكد أو تنفي تحليلي، وسأعتبره واقعياً حتى يُثبت العكس.

***

عادا بعد استكشاف بيت بوس إلى منزل الحاخام ليلا. أفصح يزيد لحبشوش عن قراره. فقد قرر أن يكون رفيقه ودليله خلال فترة وجودة في اليمن وضع شروطه:

- لي شروط، إن خالفتها افترقنا.
- تحت أمرك يا معلمي.
- لا تخفي عني شيء يفيد عملي وأن تكون صادق النوايا وأن تحترم رغباتي وقراراتي ولا تلعق أصابعك عندما نأكل من نفس الإناء كما هي عادتكم.

وافق حبشوش بفرح وكانت تلك من أجمل لحظات حياته لحبه الشديد للعلم والاستطلاع والاكتشاف. يفترض أن سفرهما في الغد حول السعيدة، وتأجل إلى بعد الغد بسبب تمزق حذاء يزيد.

في صباح اليوم التالي، توجها نحو سوق المُلَح أشهر أسواق صنعاء القديمة وأقدمها (بضم الميم وفتح اللّام، أي سوق كل ما هو جميل ومليح) فيه كل ما يحتاجه الزائر. فهو من أشهر أسواق العرب قبل الإسلام. في هذا السوق يُعرض كل شيء تقريباً من التوابل والبهارات والزبيب والقطن والزعفران والأصباغ والحاجيات اليومية إلى الصناعات اليدوية. في السوق حرفي يهودي ماهر في صناعة عسيب الجنابي (حزام الجنبية الذي يربط حول الخصر ومشغول يدويا بحرفية عالية) لديه صفيحة نحاس حِمْيَرية. في مدخل السوق، توقفا عند يهودي إسكافي أحذية، أعطاه الحذاء وشرع بتخييطه. علت الدهشة وجه يزيد وسحب حبشوش إلى محيط الأحذية وسأله:

- هل هو فعلا أعمى أم أنه يدعي ذلك لترحمه القبائل في الجوار؟
- بل أعمى، وهو أحسن من يتقن إصلاح الأحذية. اليهودي اليمني، نشيط وعملي وإن كانت فيه عاهة.

اكتمل خياط الحذاء، رفض اليهودي أخذ مقابل عمله، بل زاد بالتصدق عليهما بقرش. شكره وتابعا مشيهما في السوق. مرّ جمال من أمام حبشوش ويزيد، استوقفهما: "صباح الخير يا يهود" هكذا بادرهما وبيديه قطعة كبيرة

من الجزر الهندي المطبوخ، اقتطع قطعتين وأعطاهما، تناولاها وشكراه، شق الجَمّال طريقه إلى ناصية جماله. فسأل يزيد حبشوش بتعجب:

- لك شعبية كبرى يا حبشوش هنا، الجميع يعرفك.

امتشق حبشوش ورد بفخر:

- نعم، الجميع يعرفونني ويحترمونني. كما أن هيئتي اليهودية تزيد من ذلك. فاليهودي يحترم لأنه دائما بعيد عن المشاكل ويحل مشاكله بالسياسة أو بتحكيم عقال القبائل.
- ممكن التأثير في المجتمع اليمني، تستطيعون تكوين منطقة واحدة صغيرة تجمعون فيها جميع يهود اليمن، وإخوانكم سيساعدونكم من جميع البلدان. حتى يتحقق الحلم الأبدي، هذا من حقكم وليس عيبا أو حراما. يبدو لي أنكم تشكلون نسبة لا بئس بها.
- هذا مالا يجب أن نفكر فيه أبدا. احترام القبائل لنا نابع من إرث قبلي ومن ضعفنا. ولكن عند الحمية، فهم جن مصورون بهيئة بشر.

تابعا مشيهما إلى أن ولجا دكان التاجر اليهودي واشترى منه يزيد النحاس وحِمْيَري. أعجب يزيد بالمعروضات واختار بعضاً منها ليشتريها ويحتفظ بها لدى حاخام صنعاء حتى عودته ليأخذها معه عند

العودة إلى بلاده. راح يزيد يمسك بمقبض الجنبية ويسأل عن مادة صناعتها، فرد عليه التاجر:

- الجنبية (المقبض) رأسها من قرون وحيد القرن وقرون الوعل وعاج (سن) الفيل. القرون لا تتغير أحوالها بمرور الزمن بل تزداد جمالا وبهاء ويُستخدم الذهب الحِمْيَري والفضة في تزيين مقبض الجنبية. ويختلف ثمنها لنوعها وعمرها. مثلا، الصيفاني درجة أولى، عمرها بين ٤٠٠ عام و١٥٠٠ صيفاني لشدة صفائه ورونقه ويسمى أيضاً القلب لأنه يؤخذ من لب قرن وحيد القرن. والأسعدي درجة ثانية، نسبة للحاكم أسعد الكامل. العاجي درجة ثالثة، مصنوع من عاج الفيل. الكرك درجة رابعة وهو مصنوع من قرون البقر وهو أقل الرؤوس ثمنا. ولأن مقبض الجنبية مصنوع من القرون، فهي لا تتغير أحوالها بمرور الزمن ويتحسن ملمسها مع مرور السنون. وتزين بالذهب الحِمْيَري والفضة.
- جميل، بديع. والنصل حاد، أليس كذلك؟!
- نعم، فإلى جانب الزينة والتباهي، فهو أيضاً سلاح قاتل عند الدفاع عن النفس أو الهجوم، ويتم صقل النصل حتى يصير حاداً قاتلاً،

وقديما، كانت العرب تقول لا سيف إلا السيف اليماني. لأن النصل اليماني يصقل يدويا وبمجهود ليس بالسهل.

في طريقهما بتجاه سور مدينة صنعاء، توقفا أمام منزل وعلى عتبة الباب نقوش مسند، نسخها يزيد، عاد للخلف ورفع رأسه وعد الطوابق حتى الثامن وهذا أعلى بناء، أدهشه ما تراه عيناه، فقال يزيد متعجباً:

- هذا الاتجاه يختلف عن الاتجاه الآخر وجميع المباني نفس الشيء.
- حسب موقعها الجغرافي والفلكي يا معلمي! فقد أبدع المعمار اليمني بأن تصبح الواجهة الجنوبية للمنزل والتي نحن أمامها (العدنية كما يسميها سكان المدينة) أكثر عرضة للشمس طوال النهار، مما يجعلها أكثر دفئاً في فصل الشتاء القارس بينما الواجهة الشمالية غارقة في الظلال وتصير أكثر برودة في الشتاء. وفي الصيف وأثناء حركة الشمس نحو الشمال وعودتها نحو الجنوب، تكون الواجهة الشمالية أكثر عرضة للشمس بينما الجنوبية ظلية. وبهذا، تكون معتدلة الحرارة. لذا، الواجهة الجنوبية للمباني غرف والشمالية للمطابخ ودورات المياه.

- جميل... (يشير بيده نحو الشبابيك وهو يتحرك نحو الجهة الشمالية ويتابع...) شبابيك مثيرة للأعجاب، خاصة الشباك المعلق عليه قُلة الماء..
- نعم... الشباك الصنعاني مصمم للرؤية المستورة وللزينة ولدخول الهواء خفيفاً ورؤية من الطارق. في الجهة الشمالية الباردة، تكون بيت الشربة لتبريد الماء.

اقتربا من باب الخروج لأن المدينة مسورة، راح يزيد يتفحص جزءاً من السور ويتحسسه بيده وسأل حبشوش:

- من بنى هذا السور يا حبشوش؟
- بناه الملك السبئي شعرم أوتر في أواخر القرن الثاني الميلادي.
- هذا الجزء أقدم من ذاك (يشير بيده على بعد أمتار).
- يقال يا معلمي إن السلطان علي بن حاتم الهمداني عندما علم بقدوم جيش توران شاه الأيوبي، أمر بتدمير جزء منه ليسهل عليه مقاومته والهجوم الخاطف على جيشه.
- خسارة أن يدمر هذا الجمال. تخيل يا حبشوش أن البناء الباريسي أيضاً متميز.
- باريس تشبه صنعاء؟!

- فقط متميزة مثل صنعاء. وهناك بالطبع فروق ولا قاعدة للمقارنة.
- مثل ماذا يا معلمي؟ (أقترب بلهفة، فهو محب للمعرفة...)
- باريس تتوسع وفيها نشاط فكري وثقافي وتطوير للقوانين. وهناك، الناس أكثر انفتاحاً على التطور والموضة والإنتاج. وصنعاء لديها ما يميزها وفيها من الجمال ما يكفي وهي أجمل وأنظف عاصمة عربية.

تواصل حديثهما على هذا النحو حتى انتقل يزيد إلى سؤال عن (باب سبأ) الذي ذكره (أرنو)، أجابه حبشوش بأنه لم يسبق له وسمع بهذا، وأنه لربما يقصد (باب الصباح) والذي سمي بهذا الاسم لأنه يُفتح عند الصباح الباكر مقارنة بغيره من أبواب صنعاء. وبعد قليل من التفكير، توصل يزيد إلى أن الأوروبي لا يستطيع نطق بعض الحروف العربية بشكل الصحيح والتي توقعه في خطأ المعنى ونقل الأسماء، وما (باب سبأ) إلا أحد الأمثلة على خطأ النقل وتدوين الأسماء. سأل يزيد دليله عن موقع القُلّيْس، فرد عليه بأن بقايا البناء تبعد عن باب سور صنعاء حوالي ألفي متر. تابعا مشيهما حتى توقفا أمام أنقاض بناء القليس ولم يتبق منها سوى حفرة دائرية بعمق ثلاثة أمتار، مسورة بسور حجري. دار الجدل بينهما حول أصل هذا البناء. من ناحية، حبشوش يجزم أنه كنيس مستدل على ذلك بأن

معنى القليس هو كنيس وكان معبد يهود اليمن ويُعد أقدم كنيس على الإطلاق. ومن ناحية، يؤكد يزيد أن كلمة (قليس) مشتقة من (قلسن) بالحِمْيَرية وتعني كنيسة، حيث قال: "تختلف المصادر الإسلامية عن مصادرنا التي تقول إن أبرهة بن الصباح الحبشي الملقب بالأشرم، وأبرهة باللاتينية (آبراموس) وتعني إبراهيم. لم يبن كعبة في اليمن على غرار الكعبة في مكة، وإنما كان مسيحياً متديناً وبنى كنيسة مسيحية." سأله حبشوش بأن يفسر له أكثر، فانطلق لسان يزيد: "عند سيطرة الأحباش على اليمن واتخاذهم صنعاء عاصمة لهم وفي خضم الصراع بين اليهود والمسيحيين وبعد تدمير كنيس اليهود، فقد طرح أبرهة الأشرم فكرة بناء كنيسة على الإمبراطور الروماني آنذاك، وفكرته بأن تُشيد كاتدرائية ضخمة تسمى كاتدرائية صنعاء، تضاهي كنيسة القيامة والمهد والميلاد في أرض الميعاد حيث تصبح أهم معبد في الجزيرة العربية. أمر أبرهة ببناء القليس، كأول كنيسة في اليمن لتصبح مزاراً للمسيحيين في جزيرة العرب. لذا، استعان بالإغريق في بنائها من المرمر المرصع بالجواهر كالذهب والفضة والفسيفساء، وأمر بطلاء أبوابها بالذهب. من ناحية الارتفاع، فقد بلغ خمسة امتار وأخذت مساحة واسعة كفناء للزائرين. وكان أبرهة يردد دائماً أن المسيح سيعود إلى صنعاء وسيصلي في الكنيسة، وهذا ليحث ويحفز

الزائرين على القدوم إليها. تعرضت للهدم في عهد الخليفة العباسي أبو العباس السفاح، بواسطة خاله الربيع الحارثي الذي عينه والياً على اليمن حيث هاجم مع رجاله الكنيسة. وسطوا على محتوياتها من جواهر وذهب وفضّة وفسيفساء قبل تخريبها وهدمها وتسويتها بالأرض..." أكملا نقاشهما حتى وصلا إلى أمام ما تبقى من قصر غمدان. من فوره، يزيد يتفحص الأحجار لعله يجد نقوشاً تجيب على كتلة أسئلة هي الشغل الشاغل للمؤرخين وإن عثر على ضالته وأجاب عليها، بذلك يكون صاحب الحظ السعيد.

قصر غمدان من أكثر المعالم الأثرية المرتبطة بتاريخ اليمن القديم. فقد وصفه الهمداني، بأنه متعدد الطوابق ومزخرف بزخارف متنوعة منها تماثيل لطائر النسر ولأسود نحاسية مجوفة خارجة صدورها. فإذا هبت الرياح دخلت من مؤخرة التمثال وخرجت من فمه يسمع له زئير كزئير السباع. وذكره الهمداني في كتاب "الإكليل" بقوله: "يسمو إلى كبد السماء مصُعّداً عشرين سقفاً سمكها لا يقصرُ". أما ياقوت فوصفه وقال: "لغمدان سبعة سقوف بين كل سقفين منها أربعون ذراعاً". أما القزويني، فقد وصف القصر بارتفاع عشرين طابقاً وأورد في كتابه (آثار العباد وأخبار البلاد)، قصة الخشبة التي كان مكتوبا عليها أنه لا يسلم من هدمه. وقال بن

الكلبي: كان كل ركن من أركان غمدان مكتوباً بالحِمْيَرية "أسلم غمدان معاديك مقتولا بسيف العدوان". ويروى أن عمر بن الخطاب قال:"لا يستقيم أمر العرب مادام فيها غمدانها ."وهذا القول هو الذي حض الخليفة عثمان بن عفان على هدمه. يروي المؤرخون أن التبابعة كانوا إذا قعدوا على هذا القصر وأشعلوا شموعهم يرى ذلك على مسيرة أيام. لم يُحدد على وجه الدقة العصر الذي تم بناء قصر غمدان فيه أو حتى من قام بتشييده، فلقد اختلف المؤرخون. حسب ابن هشام وابن كثير، فإن بانيه يعرب بن قحطان وأكمله من بعده وائل بن حِمْيَر بن سبأ بن يعرب. وتقول إحدى الروايات بأن من بناه هو سام بن نوح. لم يتبين بالدليل القاطع من بنى قصر غمدان وحجمه ولا من هدمه. كل ما قِيل وتناقله المؤرخون وغيرهم يبقى كلاماً لا نقش حجري يؤكد أو ينفي تلك الفرضيات. لذا، يزيد هنا يتصفح الأحجار كأنها أوراق كتاب بين يديه يتصفحه بدقة العالم العارف الشغوف المتلهف. يتحسس يزيد ما تبقى من أحجار، لم يعد للمبنى كيان متماسك، أنقاض لا وضوح كاملاً لها. يتحسس بعض الأحجار وهو يقول لحبشوش:

- تصور يا حبشوش، اختلف الجميع حول هذا القصر من بناه ومن هدمه ونسجوا الأساطير والحكايات.

- بناه سام بن نوح يا معلمي وهدمه الأحباش وهم من أحرقوه ودمروه ليكسروا هيبة معقل الخصم.
- لم نتثبت من ذلك، ولم نتأكد أيضاً أن عثمان بن عفان أمر بهدمه. ما تبقى من نقوش فقيرة جداً ولا تمنحنا معلومات تسد دائرة احتياجنا. من العجب أن يخلو من النقوش.
- الخلاصة التي بين أيدينا أن القصر مُهدم.
- للأسف الشديد. (يزيل الأتربة عن بعض الأحجار ويجمع الحروف في قرطاسه ويتأكد له ما وصل إليه من معرفة، وقال...) نعم، القصر بناه الملك إيلي شرح يحصب، وهو من الملوك الذين حكموا مدينة صنعاء خلال القرن الأول من الميلاد.
- ها أنت يا معلمي أجبت، وعلمتني معلومة ثمينة.
- أتدري يا حبشوش. أقدم ذكر لقصر غمدان جاء في نقوش تعود إلى عهد الملك السبئي شعرم أوتر ملك سبأ وذي ريدان في عام ٢٢٠ للميلادي.
- عرفنا من بناه. ويا ليتنا نعرف من هدمه.
- ربما ما قلته صحيح يا حبشوش بأن الجيش الحبشي هو من أحرقوه ومن ثم هدمه، وسيأتي اليوم الذي نجد فيه إجابة صحيحة. كم

كنت أتمنى أن أقيم خارطة المبنى لأثبت طوله الفعلي وأنفي بواقعية ما قِيل أن ارتفاع القصر عشرون طابقاً وأن ذلك مجرد أساطير ينسجها العرب بقصد التفاخر كعادتهم. لم يتبين لنا أساس البناء الذي يؤكد أن القصر تجاوز السبعة طوابق إلى الثمانية على أكثر تقدير.

***

مرّ خمسة أسابيع على سعيدة والهم يأكل قلبها. فلا ليلها ليل ولا نهارها نهار، بدأت تطرأ عليها تغيرات لاحظتها كانقطاع الدورة الشهرية والشعور بالغثيان والتقيؤ. أحست ولم تتأكد حتى بدا لها صدرها يتضخم قليلا. بدأ عليها الاضطراب فقد تكون حاملاُ. فصدمة الرعب أفاقتها على موجات ندم تجرف شطآنها وراحت تضرب خدها وتنتحب بشدة "يا فضيحتي، يعقوب لم يأت إلى الآن. حتماً سيأتي. فقد أقسم على الكتاب بأنه راجع ويتزوجني". أخذت نفسها وإلى منزل داية مسلمة في طرف وادي نجران، رحبت بها. وفي غرفة الضيوف، راحت سعيدة تشكو للداية متغيرات طرأت عليها فسألتها الداية: "كيف هذا وأنتي مش متزوجة، لابد وأنه أضطرب ويروح، قولي لي متى جاءتك الدورة بالضبط

تذكري؟". بتلعثم، نطقت سعيدة: "قبل شهر وأسبوع أو عشرة أيام".

تزحزحت الداية واقتربت منها وقالت لها بصوت منخفض:

- يا ليهودية، وأني مثل أمك فلا تخبي عليا وقولي لي الصدق ويش عملتي (ظلت سعيدة صامتة وتابعت الداية...) هذه علامات حمل يا ليهودية..

طأطأت رأسها لثوان ثم انفجرت بكاء ونحيباً والداية تهدئها حتى قالت وكأنها فكرت:

- يالداية، بكتابك وبنبيك، لا تخبري أحداً أني جيتك أو بما بي.
- والله ما أتركك إلا لما تقولي لي وين ابتليتي نفسك ومع من؟!
- هو بيجي يتزوجني، المفروض قبل أسبوع يجي ولا بد من مانع خير أخره.
- من هو يا يهودية؟ خبريني لا تخدعي نفسك.
- يعقوب شلوم بيجي يخطبني هو سافر بتجارة للحجاز وبيرجع.

وقفت الداية مفزوعة وهي تقول:

- عليه لعنة الله الكلب ابن الكلب ما لقي غير الطيبة سعيدة اليهودية يضحك عليها.
- هو قال بيتزوجني.

- هذا الكلب كذاب يا يهودية ولا أمكر منه يهودي ولا يخاف الله أني أعرفه.

ارتعدت سعيدة بشدة وراحت تلطم نفسها بقوة والداية تمسك بها وتحاول تهدئتها. وما أن جمعت أنفاسها بعد شربها القليل من الماء واخذت عهدا من الداية بأن لا تتفوه بكلمة وبأن تكتم الموضوع لربما يعود يعقوب. فالأمل معقود على عهد وقسم بينهما.

***

في منزل الحاخام نقاش محتدم بين كبار شخصيات اليهود، والناسي (هو المسؤول اليهودي أمام الحكومة والسلطات اليمنية كافة والمسؤول أمام القضاء وعن جباية الضرائب والجزية وحل جميع المنازعات التي تنشأ بين اليهود والمسلمين. شخصية مؤثرة بين العوائل اليهودية وملم بالتوراة. وهو مسؤول عن حفظ النظام بين اليهود. يعتبر أيضا محامي دفاع عن اليهودي المتهم أمام السلطات لإثبات براءته. بوصف أدق هو رئيس المحكمة المحلية الخاصة باليهود في تجمعاتهم وتحت إشراف المحكمة المركزية في صنعاء. ويتم انتخابه من قبل اليهود أنفسهم.)

في إحدى الزوايا، يجلس رجل خمسيني وكأنه معزول. عودة يزيد وحبشوش على هذا النقاش الحاد. ظل يزيد صامتا يتابع ما يجري هنا. سأل حبشوش الحاخام والناسي عن سبب هذا السجال، أجابه ناسي صنعاء:

- وصلتنا هذه العريضة من المحكمة المركزية (ناول حبشوش العريضة وتابع...) هذا قليل الناموس فضحنا أمام القبائل.

تصفح حبشوش محتوى العريضة والتي هي شكوى قدمها قاسم ضد نجار النوافذ الخشبية اليهودي فائز بن ميمون في المحكمة المركزية. ولكون المحكمة متخصصة في الفصل بين المسلمين فقط، تفصل بين اليهود إذا تعذر الحل بعد أرسال عريضة قضائية إلى (الناسي) بالتدخل في القضية. وبما أن قاسم اشتكى للمحكمة، والمحكمة رأت له حق، فردت الأمر للناسي. هذا وضعهم في سجال بقصد إنصاف القبيلي.

(اتفق قاسم والنجار اليهودي على إنجاز نوافذ خشبية لبيته واتفقا على السعر والجودة. وعندما صنع النجار النوافذ لم تكن حسب الاتفاق من حيث الجودة قد بانت لناظر أنها غير متقنة. احتج قاسم وتراجع اليهودي عن وعده وكانت النوافذ غير مقبولة. غضب قاسم وقدم شكواه للمحكمة التي تحققت من الأمر ووجدت أن له حقاً ويجب إنصافه من النجار اليهودي)

سأل حبشوش: "الناسي ماهي أوجه الإنصاف للقبيلي؟" أجاب:

- سنحكم باستعادة عشرين بالمائة من المبلغ المتفق بينهما وتسليمه تكاليف إصلاح الضرر لنجار يهودي آخر وتحت إشرافنا ومع تقديم الاعتذار لقاسم.
- هذا لا يكفي يا سيدي إني أرى في صنيعة أخونا عيباً سيطاردنا وسيفقد الناس الثقة بالمهنيين والحرفيين اليهود ويشوه سمعتنا، سيخرب بيوتنا ونخسر أعمالنا. إن أعمالنا الصادقة والمتقنة هي مصدر رزقنا ورأس مالنا ثقة الناس بنا. لذا، اقترح تشكيل لجنة عقابية من المهنيين والصناعيين اليهود تكشف خيانة اليهودي للأمانة المهنية ونعاقب من لا يتقن عمله ويشوه سمعتنا بين القبائل.
- كلامك درر يا حبشوش، وهذا ما يجب أن يكون.

***

فجر بداية رحلتهما الطويلة. عبرا الطريق من قلب صنعاء إلى خارجها باتجاه طريق أرحب. وقبل الظهر، مرا من أمام عشش متناثرة وفيها عوائل

وأطفال ورجال من ذوي البشرة السوداء. وقف يزيد مندهشاً وهو يردد "عبيد؟! عبيد؟!" ويشير بيده نحو جهة السهل

أجاب حبشوش:

- لا يا معلمي. إنهم أخدام.
- يعني عبيد.
- لا. بل أحرار وجودهم في اليمن منذ حوالي ألف ومائة عام.
- أحفاد أبرهة الحبشي، أليس كذلك؟
- هناك ثلاثة احتمالات، وأحدها هو الأقرب للحقيقة.
- ما هي؟
- يقال إنهم أحباش من بقايا التواجد الحبشي الذي جاءوا اليمن لنشر المسيحية وطردهم سيف بن ذي يزن بمساعدة الفرس. ويقال إنه طردهم ومن تبقى منهم أبادهم في ضاحية صنعاء. والمقولة الثانية أنهم هنود. وهذا مستبعد وليس ذا سند تاريخي. والثالثة، وهي ذات سند تاريخي وغزارة معلومات. يقال إنهم بقايا دولة بني نجاح. بعد دخول الإسلام لليمن، تكونت دويلات وأسس نجاح الحبشي الدولة النجاحية. وبدعم عباسي، وصل نفوذه إلى نجران واستمرت الدولة ١٤٦ عاما.

سقطت على يد القبائل اليمنية المتحالفة وأعاد تأسيس الدولة النجاحية ابن المؤسس وبنى جيشاً قوياً استجلبهم من أفريقيا من الشريط البحري المقابل لليمن خاصة وهم مسلمون وكانوا ذوي قوة وبطش. تحالفت القبائل مجددا بزعامة الصليحيين "بقيادة الملك المكرم الصليحي". حاصروا زبيد لإسقاط دولة بني نجاح للأبد. وقتل منهم فوق سن الخامسة عشر وسبي نساؤهم وقتل الذراري وصودرت أموالهم. بعد سقوط المدينة، رفض اليمنيون قتل النساء والذراري. أصر علي بن المهدي الصليحي على أن توزع النساء والذراري على القبائل اليمنية كي لا تتشكل لهم دولة مجددا وينتهي كابوسهم للأبد. وانتهوا إلى اتفاق أن لا يكونوا عبيداً إطلاقاً بل خدماً وهم أحرار، يعملون مقابل عائد في مهن محتقرة ولا يبنون مساكن سوى عشش خارج مناطق القبائل ولا تخرج لهم مواكب ولا زوامل. والزامل يا معلمي، قصائد شعبية غنائية تمجد القبيلة في الأفراح والاجتماعات ومسيرة القبائل حتى في الحرب. تم عزلهم عن المجتمع وتشتتوا وسموّا بالأخدام. وزيادة في القضاء على أي طموح أو آمال لهم في التجمع

لاستعادة دولتهم، فقد قيل إن السيدة بنت احمد الصليحي بعد توليها للحكم بعد وفاة زوجها المكرم أصدرت الحكم الاتي "لا يسكنوا دار، ولا يجاوروا جار، ولا يشعلوا نار". وهذا هو الحاصل إلى اليوم.

هز يزيد رأسه مستغرباً:

- انتقام بشع، وفكرة تقضي عليهم إلى الأبد ولا يمكن لهم الاجتماع يوماً. خبث مطلق.

وبعد مسير طويلة بانت لهم قرى أرحب، ارض وعرة وفيها يدب الخوف كقطع الليل المتناثرة، كلما مرّ ارحبي حتى يفر حبشوش ليختبئ خلف الصخور. شدة خوف حبشوش أرعبت يزيد وصار متوجسا وحذرا أكثر من ذي قبل. رغم من أن المارة يلقون السلام، عيونهم لا تفارق حمولة الحمار (حمار يحمل الحمولة، ولا يحق لليهودي امتطاءهُ) متسائلين ما الذي يحمله الحمار وما مقصدهما في بلادهم. من الهيئة، فشكل اليهودي واضح لما عليهما من زنانير (خصال من الشعر ملفوفة حلزونيا على جانبي الرأس، تميز اليهودي عن غيره) ولحاهم. كأنت الإجابة "نحن نبحث عن صدقة من دار اليهود والقبائل". يدعى المسلم (بالقبيلي). يقول حبشوش ليزيد وهما على مقربة من ولوج منطقة أرحب:

- بركات الله ستخرجنا سالمين من هذه المنطقة. هذا المكان هو الأصعب في رحلتنا. نحن بين الشياطين. المهم أن نصل بسلام إلى الكنيس.

- هنا قبائل وجيرانهم يهود. فالخوف الشديد مبالغ فيه.

نظر إليه حبشوش شزرا وقال:

- مادام الخوف مبالغاً فيه، فسأقص عليك يا معلمي قصة حصل لأخينا في هذه البلاد الأشد نفاقاً في اليمن، وستعرف لمَ أنا شديد الحذر. لنا أخ ساكن في (حرا_مناخة) وكان تحت حماية المُكرمي والي حراز. كان يعيش في أمان الله، وبفسحة من خيره. وذات يوم سافر أخونا إلى صنعاء لقضاء بعض من أموره في قاع اليهود. وما أن انتهى من زيارته وخروج من صنعاء، إذا بنقيب من أرحب (من وجهاء القبيلة) كان يترصده. أمسك به وربطه وجره في طريقه إلى أرحب، ولم تعترضه قبائل بني الحارث لتخليص اليهودي على غير العادة، والسبب أن شياطين أرحب لا تقلقهم الفتن، بل يسيرون إليها كما تسير جداول الماء إلى مشاربها. أوصل اليهودي إلى بيته وسجنه في ظروف مزرية. لم يستطع والي حراز فعل شيء بسبب بعد المسافة ووعورة الطريق. فنال اليهودي شتى أنواع العذاب.

يأمره النقيب بأن يخاطب أهله لإرسال الفدية لكي يطلق سراحه. فهو يعلم أن اليهود ووالي حراز سيرسلون المال. وكلما أرسلوا فدية من المال، لم يطلق سراحه واتخذها وسيلة للربح. وكانت أم الخاطف النقيب ونساؤه يرحمن اليهودي، ويحنين عليه بالأكل. وذات يوم، عملن على فك وثاقه ليهرب سرا، لأن النقيب طاغية حتى على أمه ونسائه، ولم تنفع شفاعة أمه في اليهودي. هذه هي القصة يا معلمي. لذا، وجب الحذر.

- ولمَ لم تتحرك باقي القبائل في هذه المنطقة لتحرير اليهودي؟!
- النقيب كان الأقوى ويتزعم عدة قبائل.
- تقصد أن شيخاً يمكن أن يكون مسؤولاً عن عدة قبائل ويخرجها للحرب بقرار منه؟
- سأشرح لك يا كاشف ظلال فكري... القوانين القبلية تحكم الجميع. وهناك خرق لها أحياناً عندما يعتز النقيب بقوته المفرطة وتأخذه العزة في الظلم لمن هم ليسوا من منطقته. هذه الفعلة لا يطبقها على يهود منطقته، بل على يهود منطقة نفوذ غيره ليستفز قبائل تلك المناطق ويجرها إلى الحرب خاصة وأن هناك خلافاً تاريخياً بين حاشد وبكيل على الزعامة والتباهي بالقوة.

- وهل تشتعل الحروب بينهما وإلى أي مدى تبلغ خلافاتهما؟
- بكيل مجموعة قبائل وكذلك حاشد. وقبائل بكيل هي أخت قبائل حاشد، والعكس أيضاً.
- أحجية يا حبشوش!

ضحك حبشوش وقال مفسراً:

- القبائل اليمنية يا معلمي تركيبة معقدة. بكيل وحاشد إسمان لولدي جشم بن خيوان بن نواف بن همدان بن أوسلة بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ. لبكيل أولاد تفرعت منهم قبائل اليوم وتسمى قبائل بكيل، وكذلك حاشد تفرعت منه قبائل وتسمى قبائل حاشد. الخلاف التاريخي بينهما على النفوذ والسلطة فقط، يتصاهرون ويتحالفون معاً عند بروز خصم يؤثر على أحدهما أو كليهما.
- جميل أن تكون ملماً يا حبشوش بتفاصيل القبائل.

شعر حبشوش بالفخر وراح يتباها:

- سميت هذه المنطقة (أرحب) باسم أرحب بن الدعام بن مالك بن ربيعة بن الدعام بن مالك بن معاوية بن مصعب بن دومان بن بكيل بن سبأ. وأهم قبائل بكيل هي.....

قاطعه يزيد:

- لنؤجل هذا إلى وقت نكون فيه في حالة تدوين وتوثيق على القرطاس.

وصلا قبل الظلام بساعة ونصف، ودخلا الكنيس. بدأ اليهود بالالتمام حولهما والسؤال عن أحوالهما وكلٌ يعرض عليهم ضيافتهما. بدا الجو لهما مضيافا في وقت الجوع فيه طاغ. فمن عادة أهل منطقة أرحب أن يتم واجب الضيافة في الكنيس. ولا يختلف الأمر عند القبائل حيث أن الضيافة أيضا تبدأ من المسجد. في هذا الجو المفعم بسعادتهما كأرواح لها أحاسيسها وشعور، ها هو يقف أمام باب الكنيس الخشبي (ابن الزبيري)، طرق الباب بيده الغليظة مما أرعب اليهود وقال بصوته الخشن "أريد اليهودي الأبيض". دب الرعب والخوف وتقدم حبشوش إلى واجهة الباب وقال له بتودد: "ماذا تريد منا ونحن غريبان نطلب منك ومن غيرك الصدقة؟". ظن حبشوش أن قدومه بقصد المال أو لنهبهما، لكن سرعان ما بانت نوايا ابن الزبيري الذي قال مفنداً:

- لا أريد منكم المال. أريد ذلك اليهودي رسول المسيح المنتظر حق اليهود (يشير بيده إلى يزيد).

(من ضمن المعتقدات الخرافية أن رسول المسيح المنتظر في العقيدة اليهودية هو شخص يتحكم بالعقول ويسلبها ليجعل المسلم مجنوناً في لحظة واحدة. وأن (شُكر كحيل) هو ذلك الرجل الذي فصل رأسه عن جسده واستطاع في اليوم التالي استعادة رأسه وعادت له الحياة.)

وقف أمامه حبشوش وقال له بتودد شديد:

- يا ذا القبيلي، نحن غرباء وفقراء نبحث عن الصدقات ولا شأن لنا بما تدعي.
- ياليهودي، خيرة الله عليك أنت وهو. (قالها بانفعال...) والله ما أتركه حتى أسلمه لإمام صنعاء، الإمام محمد الشهاري. وهو من يقرر كيف يتصرف معه.

لم تفلح التوسلات والإنكار لدعوى القبيلي. سجن ابن الزبيري (يزيد) في الكنيس وأغلق عليه الباب.

جثم الليل والوضع متوتر جدا، ويهود المنطقة يعتريهم القلق والخوف معاً. فهم يدركون خطورة هذه الدعوى التي لا يثُبت فيها العكس بسهولة. الاسترضاء خير وسيلة في هذه المنطقة، خاصة أن ابن الزبيري من أصحاب النفوذ القبلي.

يجلس يزيد في زاوية الكنيس، غلب عليه الخوف وجوعه الشديد. رهانه الكبير على قدرة حبشوش ووجهاء اليهود وجيرانهم من القبائل على احتواء الموقف. تدخل يهود منطقة (شراع_أرحب). وبعد مشقة، اقتنع ابن الزبيري أن هذا اليهودي الأبيض اسمه يزيد لبيب عاطف وهو متسول هارب من الجوع في القدس وجاء إلى اليمن ليبحث عن قوته بين إخوانه اليهود.

- يا القبيلي الأصيل، ماذا ستقول القبائل عندما تعلم أن يهودي مسكين ضعيف وضيف غريب سُجن وقيد في بلادكم بلا سبب؟ ماذا ستقول القبائل عنكم بعدما تُسلم الغريب لإمام صنعاء ويتدخل الحاخام ويوضح لمولانا الإمام أن هذا الغريب ليس ما تدعي؟ ستربح العيب وهو بعيد عنك وأنتم أكرم العرب. (هكذا قال له حبشوش ومن حوله مجموعة من اليهود)

بدأ الإحراج وضعف الحجة يقنعان ابن الزبيري، وعلى مضض جاء رده:

- حسنا، ليرحل اليوم من منطقتنا.

رد عليه حبشوش بشيء من المنطق:

- يا عيباه يالقبيلي. اقتلنا خير لنا من طردنا من أمام دياركم وأنتم أهل الكرم والنخوة. كل القبائل الغنية تفتح دواوينها في الدور

لكل شارد من الفقراء والمساكين. وصاحب الدار نفسه يكرم الغريب ويخدمه ويقدم له ما يحتاج من القهوة والتتن والعيش جزاهم الله خيراً وأنت تطردنا؟!

استدار ابن الزبيري يمنة ويسرة بارتباك، خطى خطوة مغادرا المكان وهو يقول:

- أكرموا غريبكم.

فتحوا باب الكنيس وأخرجوا يزيد لبيب ونقلوه إلى بيت أحد وجهاء اليهود.

صباح اليوم التالي استغله حبشوش في استطلاع بقعة اسمها (صنعاء العتيقة). وفي اليوم الذي يليه، عزما الرحيل إلى منطقة نهم، جمعت لهم الصدقات من الشعير، كلٌ بقدر استطاعته رغم الفقر الشديد ليهود هذه المنطقة.

***

في منطقة نهم، حّط رحالهما في الكنيس. وبدا يزيد أكثر حذرا، فقال لدليله إنه سيبقى هنا مختبئاً حتى الغد ليطمئن أن لا متربص بهما قد لحق بهما من أرحب ليمكنهما الرحيل في أمان. المقلق أن المحاربين من أبناء أرحب

يعدون عدة الحرب لمساندة حليفهم في (بني مطر) بغيه هزيمة (والي حراز) وأسقاط منطقة (الحية) واستعادة السيطرة عليها. إذا، هما في منطقة قد يمرّ منها المحاربون في لحظة انطلاقهم. فقال له حبشوش، إنهما في أمان لأن قبائل نهم فيهما نوع من الود، ولليهود حقوق كاملة في هذه المنطقة لأن لهم اعتقاداً، إذا كان اليهودي يعمل ويوسع داره ويرفع صوته، فذلك يدل على قوة الجار القبيلي. استحسن يزيد ذلك، وتبدد القلق جزئيا.

هاجس يزيد من حبشوش ظلّ قائما من الوهلة الأولى أن دليله ليس بالرجل العادي، ولزم عليه اختباره من حيث الاستفادة في حد معين. أعطاه قرطاسا وقلما وطلب منه العودة بمفرده إلى ذلك الجبل في (شراع) ونسخ النقوش. هنا، دخل جديد في بنود الاتفاق بينهما، فقال حبشوش:

- يا معلمي، اتفقنا أن أرافقك وأدلك على المناطق وتعطيني أجرتي. ولم نتفق على أن أنسخ لك النقوش. وإن كنت تريد مني ذلك، فلن أقول لا، شرط أن تعلمني مما تعلم، وتمنحني أجرة النسخ بالسطر الواحد.
- كم تريد أجراً.
- نصف قرش على السطر الواحد.
- هذا كثير.

- ليس بكثير، فأنا سأعرض نفسي للخطر بين الشياطين وخاصة في الجبال المسكونة بالأرواح الشريرة (يعظم من الشيء). وأنت اطلع على ما انسخ، إن وافق مبتغاك دفعت لي أجري، وإن لم يوافق مبتغاك، أكتفي بأنك علمتني.

اتفقا على ذلك. وانطلق حبشوش لغرضه وقضى يومه في ذلك الجبل حتى عادت الشمس إلى مخدعها، وأحاطت بالمنطقة وحوشها من الظلام والحيوانات الشاردة. قفل عائدا وبيده حديدة كسلاح يدافع بها عن نفسه. فيهود اليمن لا يمتلكون سلاح، لأنهم في حماية القبائل من جيرانهم. وفي أيام قديمة، توفر لليهود فرصة امتلاك السلاح، لكنهم رفضوا. ففيهم من الفطرة ما تكفي لكي لا يخوضوا الفتن والحروب ويجعلوا الحماية لهم من القبائل. وهاهم يعيشون بسلام. فلا هم يدخلون بالنكف (الحشد القبائلي للقتال والتزام القبائل برفد الجبهات القتالية بالمقاتلين من أبنائها) ولا بالغرم (الجمع المالي للمساندة) ولا علاقة لهم بأي حرب أو دفاع ومن هذا المبدأ، سنت الأعراف القبلية بأن العيب الأسود هو الاعتداء على الضيف والضعيف واليهودي والمرأة والطفل، ومن يتجاسر عليهم وتعرفه القبائل، فأنها تتداعى كالسيل الجارف لرد الاعتبار للضحية والانتقام له وإلا كانت فضيحة

للجار عند القبائل بأنه تخاذل في الدفاع عن جاره وأنه ضعيف وغير مقتدر.

وصل حبشوش في منتصف الليل إلى القرية المجاورة للجبل وهي (الشراع) ولم يسعفه الوقت لمواصلة الطريق إلى (نهم). وقصد بيت يهودي للمبيت باقي الليل. طرق الباب أكثر من مرة، دب الرعب الشديد في قلب مالك الدار اليهودي. فالخوف قائم. فتح النافذة وصاح بأعلى صوته "من ذا الذي يطرق بابي في منتصف الليل وأنا في أمان الله وفي أمان جاري القبيلي؟!". فرد عليه حبشوش:

- افتح، ولا عليك شيء.

فرد بصوته المجلجل:

- لن أفتح، ومن له أمر فليأتي في الصباح بحاجته أو يأتي لجيراني وأنا أقبل جاري القبيلي بالسؤال والجواب.

سمع حبشوش، صرير نافذة وصوت القبيلي (الجار المسلم) يرد على صوت اليهودي:

- من الذي يؤذي جاري في منتصف الليل؟! الذي له أمر يأتي ويأخذه مني حاضراً أو باكراً.

قال حبشوش لليهودي وقد اقترب قليلا إلى تحت النافذة لعل ضوء القمر ينير بصيرة اليهودي:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ما الذي أخافك وأنا صاحبك حميم حبشوش رفيق الحاخام، أتيت أستجير بك بليلتي هذه وأمسي عندك. (التعويذة وبعض الأدعية مشتركة بين يهود اليمن والمسلمين)

نزل وفتح الباب الخشبي وجذب حبشوش للداخل وأغلقه ويداه ترتعدان وهو يقول:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟! القبائل تبحث عنكما بدعوى أنكما أشعلتما الجبل بالسحر. يجب أن تتوكل على الله وتغادر. إذا علمت القبائل أنك الطارق لبابي، ستفتح باب لهلاكك وهلاكي. فالواجب الطريق الذي جابتك تردك لا أحد يشوفك واحذر بنفسك.

- أي سحر؟! ومن أطلق هذه الإشاعة؟!

- قالوا إنك مع رجل أبيض هو شُكر كحيل.

- ما نخلص من حكاية شُكر كحيل في أرحب حتى تلاحقنا إلى هنا!

استسمحه بعض الوقت لرد أنفاسه والمغادرة فورا تحت جنح الظلام. وراح يُمني نفسه ويقول لو قضى ليلته في عرض الجبل لكان أهون من هذا الإحراج. وصل مع خيوط الضوء الأولى إلى نهم وقد نال منه التعب والجوع. التقى بيزيد، تصفح القراطيس، وأعجب بها وبطريقة النسخ. فقد اكتشف للتو موهبة حبشوش في الكتابة، لكنه أخفى ذلك. فهم حبشوش ما يدور في خلد يزيد فكلاهما يتمتع بالذكاء، فقال حبشوش في نفسه "لو أنك شكرتني، لكنت سعيداً يا معلمي".

***

تعذر سفر يزيد ودليله من (نهم) هذا اليوم؛ فالذي أرسله من أبناء المنطقة للاستطلاع، جاءهم بخبر أن قبائل أرحب تغطي الطرق بالرجال الذين يتجهون إلى (بني مطر) لمساندة حليفهم. لذا، قرروا البقاء في نهم حتى يغيب غبار خيول قبائل أرحب. إن المقاتلين في طريقهم إلى بني مطر وحامية أرحب تتمترس بين الصخور للدفاع عنها ضد أي غازٍ مفترض. في ضيافة أحد يهود نهم، أكرمهم بتقديم الأكل المعروف بتلك المناطق، الدقيق المعجون والمنضج على الحطب (عصيد) والسمن والعسل واللحم. شرعوا في تناول الغداء. دقائق وأوقفهم صوت استغاثة، لابد أنه ليهودي:

"أنا مطموع مضروب". توافد الناس من يهود وقبائل تجمعوا حوله. إنه مسك الاقضع وهو يضرب براحة يديه وجهه. تقدم نقيب قبيلة (بن معصار) جار اليهودي وأزاح المتحولقين بساعديه ووقف أمامه بشموخ منقطع النظير وسأله:

- ما الذي دهاك يا يهودي؟

أجابه بانكسار:

- الجرادي ضربني ونهب حماري وبضاعتي وأنا في أمان الله وأمانك يا جاري.

اشتدت الحمية لدى النقيب، وشعر أنه إن لم ينتصر لجاره لنقص مقداره بين القبائل لأنه عاجز عن حمايته، وأن قبيلي تجرأ على هذا الفعل المشين، فقال بصوته المرتفع جدا ليسمع كل من يصل له الصوت:

- وصلت، وأنا جارك، وأني ملزم أسلم لك ما أخذ منك وأخذ بحقك. (ثم أدار ظهره وأطلق صيحة الحرب...) الله الله يا رجال القبائل.

وانطلق مسرعا ليمتطي خيله ومن هنا اشتدت الأمور. أمسك حبشوش بيد يزيد وجذبه نحوه وقال له: لنعد لبيت المضيف. سأله يزيد:

- ما الذي سيحدث؟

أجاب حبشوش

- إنها الفتنة، اللهم نجنا من شر هذا اليوم.

النقيب (بن معصار)، يحوم بخيله حول القرية كمن ليس له عقل، تعالى صهيل الخيول وغبار أقدام الرجال. وفي ساعة، اجتمع من حوله الخمس مائة رجل المسلحين بوسائل الغزو من سلاح البندقية إلى السيوف. (البندقية ذات الفتيل وأغلبها صنع في الهند) مسيرة نصف ساعة إلى محاط أرض (الجرادي)، الذي يبدو أنه استعد جيدا وتحسب لرد فعل جار اليهودي. بدأت الاشتباكات وعند المدخل الأول لأرض(الجرادي). قتل اثنان من رجال النقيب بن معصار. سال الدم، اشتدت المعركة. فكلما صاح المتقاتلون "الثأر" فمعنى ذلك غليان الدماء في العروق واشتداد التزاحم نحو الموت هجوما أو دفاعا، فلا يرد ذلك إلا الدم أو فرار المذنب إذا شعر بالهزيمة العسكرية. هذا ما حدث، شعر الجرادي بأن إثمهُ الآن أكبر بكثير، الخصم مستبسل، انسحب ونسلّ في الوادي باتجاه خولان قبائل بني جبر لطلب الحماية. سيطر النقيب بن معصار على أرض الجرادي، وأمر بنهبها ودمر ما يمكن تدميره. وعاد لقريته وسلم لليهودي ما نهب منه الجرادي بحضور جيرانه اليهود ليشهدوا بذلك. فقال اليهودي الأقضع بعد أن أنصفه جاره "عز الله إنك أوفيت يا جاري". هنا المرحلة

الأخيرة حسب العرف القبلي وهي رش اليهودي بالعطر. وذلك تعبير على استمرار الحماية بين الجيران أو الصلح. احتار يزيد من هذه الحادثة ودون على قرطاسه أدق التفاصيل من متناقضات سلبية وإيجابية هذا المجتمع ولم يخف ذلك على دليله ليوضح له بعض النقاط الغامضة، فقال له مستفسرا:

- أجد أن الأمر متداخل، المنطقة المجاورة حياة اليهود غير مستقرة. وفي هذه المنطقة، يحظى اليهودي بدفاع مستميت إلى حد القتل في سبيل إنصافه؟!
- هذه هي بلادنا يا معلمي، وبشكل عام، القبائل تتنافس على حماية اليهودي لألا تصبح في ضعف أمام باقي القبائل. مثلا، النقيب ناجي أبو لحوم، يأمر جيرانه اليهود الذين يأتون إلى بيته لأي غرض كان أو عند الذهاب معه إلى أي وجهة أن يرتدوا ملابس السبت ويتكحلوا ويدهنوا وجيههم ويتمشقروا (وضع أغصان المشقر والشذاب الأخضر خلف الآذان).
- وما الغرض من ذلك؟
- لكي يبين لباقي القبائل أن جيرانه اليهود في أحسن حال وأن رفعتهم من رفعته وسمعتهم الطيبة دليل على سمعته الطيبة، وأنه نعم الجار.

في اليوم التالي، بعد أن علم النقيب بن معصار أن الجرادي احتمى بقبيلة بني جبر، أخذ هو ووجهاء قبيلته ثلاثة أثوار وساقها إلى مقبرة بني جبر وعقرها جميعا فوق قبور جد قبيلة بني جبر. هرع نقباء وعقال بني جبر إلى المقبرة، وقال كبيرهم مخاطبا بن معصار "عليت ثم عليت، وما مقصدك ياذا العاقل؟". أخبرهم بصنيعة الجرادي، ومقصده منه بحق جارهم اليهودي وطالبهم بأخذ بالقصاص منه أو طرده وإعادته إلى منطقته ليتسنى لهم القصاص. شعروا بالخجل والعار من صنيعة الجرادي وأمروه بالعودة إلى منطقته. وماهي إلا أيام حتى بدأت الحرب واستطاع بن معصار الأخذ بحق مقاتليه وقتل الجرادي وأخوه. وصل خبر انتصار بن معصار إلى مسامع حبشوش ويزيد. فقال حبشوش "غدا، يمكننا مواصلة رحلتنا". تصدق عليهم الناس بما تجود به قلوبهم من طعام ومال ورحلوا.

***

مسيرة ساعات على المنحدرات الخطرة في الجبال الشاهقة، يواصلان رحلتهما مع دليل محلي لعبور تلك المنطقة باتجاه فرضة نهم. تخلل المشي صعوبة بالغة بسبب ضيق الطريق على المنحدرات والارتطامات المتكررة لأقدامهما على الأحجار الحادة. صعد يزيد على جمل الدليل لتخف عليه

صعوبة المسير (لا يُسمح لليهود بركوب الحيوانات في ديار المسلمين، ولكونه ضيف يُستثنى عن باقي اليهود) وبقى حبشوش يجاهد الحال أما الدليل، فهو من أبناء المنطقة وله جسارة وتجلد في التعامل مع الطرق الصخرية الوعرة. تجاوزا الحد الشرقي لوادي جاف. وبعد مسيرة ساعة، وصلوا إلى مشارف الطريق المؤدية إلى بيت راعي هو المقصود للمبيت عنده. التفت يزيد إلى الخلف يتصفح بناظريه الوادي والجبال من حوله وحبشوش يقول له:

- ليس هناك ما يستحق التدوين يا معلمي، جبال خالية على عروشها، كوتها الشمس منذ آلالف السنين، لم يسكنها بشر.

ظل صامتا وتابع تدوين ورسم الوادي ومداخله حتى انتهى، وضع قرطاسه في حزامه وانضم إلى حبشوش والدليل الذي تنتهي مهمته عند تسليمهما لراع. وبينما هم يتبادلون أطراف الحديث عن القبائل والطبقية، طلب يزيد توضيحاً أكثر حيث سأل:

- ما هي جذور الطبقية في بلادكم؟

حك حبشوش لحيته وقال بشيء من التكهن:

- تصور أن لا معلومة موثقة حول أسس الطبقية، مجرد تكهنات، هناك من يقول أنهم من نسل "حام بن نوح". لكنني أميل إلى

تصور واحد. قالوا إن الطبقات التي لا يتزوج منها القبيلي أو السيد هي من بقايا الفرس والمهاجرين. أنا غير مقتنع بهذا إطلاقا لأن البشرة اليمنية متشابهة وشكلها مختلف عن باقي البشر، وأيضاً أعتقد أن التواجد الفارسي في اليمن خرافة وضرب من الخيال. وإذا فعلا تواجدوا، فذلك مقتصر على عدن فقط ولفترة قصيرة جداً، لا توجد مخطوطات ولا نقوش ولا حتى عملة فارسية تدل على ذلك. المصادر العربية تتناقض مع بعضها في هذا الشأن عندما تذكر أسماء الأقيال (القيل وجمعهم أقيال مصطلح يمني قديم وهم الرؤساء ذوي الصلاحيات الأكبر من مشايخ القبائل) الذين حكموا في تلك الفترة ولقبوا بلقب الملك، وتلك المصادر كُتبت بعد قرون من الحدث، وليس من المنطقي أن ثماني مائة فارسي احتلوا اليمن أرضاً وشعباً وحضارة وسواحلاً وبحاراً. ولم أقرأ عن يمني واحد اعتنق الديانة الزرادشتية الفارسية. فليس من المعقول أن يحتلوا اليمن ولا ينشروا ديانتهم، خاصة واليمن طوال تاريخها تعيش في اضطرابات دينية. التصور الذي أميل إليه، وحسب تكون المعلومات في رأسي، أنهم يمنيون وأبناء قبائل ومن

أصول سبأية وحِمْيَرية. والآن يسمونهم مزاينة وفاترين. لكن مع تشكل دويلات وحدوث تمردات بداخلها وثأر وتصفيات، هرب الأضعف من الموت إلى مناطق لا يصل إليها نفوذ الخصم. وغيروا أسماءهم وألقابهم بقصد التخفي كي لا يفاوض الخصم على استرجاعهم وقتلهم. وبما أن اليمني مزارع ومالك للأرض، كان يصعب على الهارب ومن معه التملك والعمل كمزارع. بل لجأوا للعمل الأسهل الذي لا يتطلب رأس مال والمهن البسيطة كالجزارة التي رأس مالها ذبيحة وبيعها بيومها. ويمكن له التنقل بسهولة من منطقة لأخرى كونه مطارداً من خصم، أو الحلاقة والحجامة والحمامية. وكونهم بلا سند قبلي لهم وغيروا ألقابهم، فلا أحد يقبل بتزويجهم أو يتزوج منهم مالم يعرف أصله وفصله. ومع مرور السنوات، ترسخت حياة الأب طريدا بمهنة سهلة وانتقلت للابن والحفيد وانطمست هويتهم حتى جاء زمن الأمان للحفيد فلا يعرف أولاد عمه. وإن عرفهم وذهب إليهم، ينكرونه ويطلبون الدليل وهو عبارة عن بصيرة أرض توثق اسم الجد ومن لا يمتلك أرض أكيد لجده شهادة في

بصيرة بيع. وإن كانت لديه بصيرة، فهم يشككون به ويطلبون كبير السن يعرف بهم. وغالبا يكون الكبار سنا قد ماتوا وانطمست الهوية. فمنهم الفارون في زمن الدويلات لمناطق أخرى خارج سيطرة الخصم للعيش مشردين ومتنقلين بأسماء مستعارة. ومنهم الفارون بسبب الثأر الشخصي. من هنا، تكونت الطبقية لأبناء هذه المهن ويتزوجون في ما بينهم فالقبيلي لا يمكن أن يزوج رجلاً بلا قبيلة وغير معروف من جده. فالعرق دساس هكذا يعتقدون وهنا مقولة شائعة (إذا قلت رجالك ناسب).

- هل هم كثر؟
- لا أظن أنهم كثر. هم عوائل صغيرة ومشتتة.

الدليل يسمع ولأول مرة يعرف هذا حتى أنه استدار نحو حبشوش وقال:

- أول مرة أسمع ما قلت. حبشوش يفهم كل شيء.

دلفا إلى قرب بيت الراعي، طرقا بابه في وقت الغروب. فتح الراعي الباب وإذا بعينيه تبصران حبشوش ورفيقه، رحب بهما ترحيباً بارداً، لم يدعوهما إلى دخول المنزل على غير عادة اليماني أيا كان. بدا مرعوبا أن تغلب عليه الأعراف والنخوة القبلية واشتد رعبه أن يقصده يهودي ويرده من داره.

حبشوش ليس بذلك الذي لا يفهم الامتعاض. فكله إدراك لكل شاردة وواردة في الذهن فلديه حدس مشهود له بين اليهود والقبائل. بادره حبشوش ليستوضح بصراحة قبل أن يطبق الليل:

- أيها الراعي، بالله قل لي ما سبب توجسك اليوم من حبشوش اليهودي وهذا عكس عرفكم ونخوتكم؟!

جفف عرقه بكم قميصه، احمر وجهه خجلا وقال بكلمات متقطعة:

- بقرتي الثانية... البقرة ستلد اليوم.

حبشوش ذو عقلية ترفض الخرافات والاعتقادات غير المجدية، لكنه يستخدمها ذريعة عندما يخوف طرفا ما. تراوده تساؤلات عدة حول فتاوى حاخامات من الأقدمين يعتبرها غير ذات نفع في زمانها وليست ملزمة وله باع طويل في ذلك ونادرا ما يفصح بها. أما ما لم يتمناه اليوم فهو خرافة انطبعت كصفة في اليهودي.

- إمم، إذا ليس لنا مبيت اليوم عندك يا أصيل. (هكذا قال حبشوش ويزيد في تحليل للحدث).

أمسك حبشوش بمعصم يزيد لمواصلة الرحلة في صمت، صاح الراعي "انتظرا" ودخل إلى بيته الصغير وجمع لهما الخبز وقليلاً من السمن، وانتظر زوجته وهي تحضر لهما اللبن (اللبن عند اليمني من أهم وسائل الحياة وله

طرق تحضير عدة إلى جانب الجبن. الآن زوجة الراعي تحضر اللبن بالعشب الأخضر، رحت الكزبرة والحار وفص الثوم ووضعته في الطاسة وسط اللبن وقليلاً من الملح وأخلطته. ولتحسن المذاق، فقد رحت أوراق عشب المشقر الأخضر العطري لتتحول النكهة إلى عطرية ولا تفسد الوجبة حال عدم وجود أوراق المشقر).

وخرج إليهما وقال وهو يناول حبشوش الطاسة والخبز والسمن:

- هذا عشاؤكما. (أخرج ربع ريال) وهذا ما أستطيع.

شكره حبشوش وواصلا رحلتهما لوحدهما. أما الدليل، فقد عاد أدراجه قبل الوصول لبيت الراعي بقليل. خيبة الأمل هذه معلوم سببها لدى حبشوش. أما يزيد، فقد تساءل حال افتراقهما عن الراعي في مستهل الطريق في هذه النقطة:

- ما دهى ذاك الراعي؟
- بقرته ستلد الليلة ربما.
- وما علاقة مقصدنا بالبقرة؟!
- يا معلمي، هناك اعتقاد أن اليهودي إذا رأى البقرة قبل الولادة فإنها تسقِط ما في بطنها.
- وما دخل اليهودي بما في بطن البقرة؟

- الاعتقاد السائد أن اليهود كبار السحرة وإن نظرات العين السيئة تصيب الهدف. هكذا يعتقدون.
- هل لليهود مخطوطات قديمة تعلم السحر؟!
- السحر يا معلمي هو السحرة سواء كان على يد يهودي أو قبيلي. على العموم، لقد زودنا بالطعام يكفينا في رحلتنا، نحن في طريق آمن أيضا.

***

"في العام الـ٢٥ قبل الميلاد فشلت الحملة الرومانية بجيشها الكبير الذي أرسله القيصر لاحتلال صنعاء بقيادة القائد الروماني أيليوس غالوس في تجاوز الفرضة. هزمه الحِمْيَريون وأفشلوا الحملة وقتل العدد الكبير من جنودها ومات آخرون في الصحراء والجبال ونجا القليل منهم وفروا إلى الحديدة ثم عادوا إلى بلادهم بحرا." هكذا قال حبشوش ليزيد مفسراً له هذا المكان من الناحية التاريخية. فتساءل يزيد بشيء من الدهشة: "من هنا مرّ القائد الروماني أيليوس غالوس؟!" أشار حبشوش بيده إلى الطريق المقابلة له وأجاب: "هنا، سحقوا وعظامهم في باطن هذه التربة." سأله يزيد: "ما اسم هذه المنطقة يا حبشوش؟" رد عليه: "فرضة نهم". هز يزيد

رأسه نافياً وهو يقول: "غير صحيح تفسيرك يا حبشوش، ذكر المؤرخ والجغرافي اليوناني سترابو فقط حصار مآرب وفشل الجيش الروماني وتراجعه ثم انسحب إلى مصر ولم يرد ذكر منطقة فرضة نهم. صحح معلوماتك."

في منتصف فرضة نهم، صدى صهيل الخيول يملأ الفضاء حولهما. ذهب حبشوش ليستطلع الطريق من أعلى قمة صخرة، رأت عيناه خيالة تتقدم، عاد يركض باتجاه يزيد وقد دب القلق والتوتر في صدره، وأخبره بأن الحذر واجب والحيطة بالاختباء. تغلغلا بين الصخور الجبلية وأخفيا الحمار وأخذ كلٌّ منهما مخبأه. مرّ موكب الخيالة بخيول عربية جميلة، لا يمتلكها إلا الأثرياء والأشراف وعلية القوم. تبدد القلق وعادا إلى مواصلة الرحلة. يزيد يدون ذلك بأدق التفاصيل. سأل حبشوش من يكون هؤلاء ممتطو الخيول الجميلة، فقال حبشوش:

- إنهم الأشراف من نسل النبي محمد.
- ألديهم غارة؟
- إنهم لا يغارون على المجموعات الصغيرة ولا يقطعون الطريق ويضعون أنفسهم تحت تصرف القبائل. والإغارة تحت أوامرهم

براتب شهري أو نسبة معينة من الغنائم، (المقصود بالغارة هي السطو على مواشي الغير فقط).

- ألا يترتب على ذلك ردة فعل أعنف من قبل القبائل المغدورة؟
- بلى. وأحيانا تتوسع إلى حروب ولكن سرعان ما يجنحون لسلم عندما يشعرون أنهم اكتفوا واستردوا سمعتهم وهيبتهم. ويبدأون في حساب الخسائر والدماء وهي أسس مبدأ الصلح.
- وكيف ذلك؟
- يتم تسجيل عدد قتلى الطرفين. والذي له قتيل زائد يتم تعويضه حسب العرف بالدية وذبح البقر. ولكن تبقى نية الانتقام قائمة إلى أن تحصل فتنة ويستغلها الطرفان. وإذا لم تحصل فتنة بينهما، يعم السلام.
- برأيك يا حبشوش، ما هو مبرر الغزوات بين القبائل؟
- أولا، إهمال الزراعة. ثانيا، نشوة الفروسية والتباهي بالانتصارات. يتربصون بالهدف لأسابيع حتى يقع الكمين وتتم الغزوة ومن يقاوم يتعرض للقتل دون رحمة وتأخذ الجثة علامة على الانتصار. ولا تهم طريقة الانتصار كيف تكون، أوجهاً لوجه أو بكمين غادر.

الحيلة وسوء الظن سلاحان شرعيان عند العرب بلا تأنيب الضمير.

- أيطبق هذا بين القبائل وغيرهم من الضعفاء والقرويين واليهود؟
- يا معلمي، قد رأيت ما صنع ابن معصار انتصارا لجاره اليهودي. فمن الفروسية والشرف الأعلى أن لا يمس الطفل في غزواتهم ولا المرأة ولا الضعيف ولا اليهودي. وقتل أي واحد من هؤلاء لا يجلب الفخر بل يطارده العيب حتى الانتقام.
- لاحظت، أن اليهود في اليمن ولدوا لتلاوة المزامير وإقامة المناظرات حول الفيض الإلهي لا لكي يحملوا أسلحة للدفاع عن أنفسهم؟
- وما حاجة اليهودي للسلاح يا معلمي؟ مادام المظلوم منا يُنصف بواسطة القوي جاره إلى بلوغ التضحية بالنفس والدم. بالعكس، اليهودي نادرا ما يُقتل، بينما كل يوم يقتل من القبائل الكثير. وهذه ميزة ليهودي ليعيش دون مشاكل في وقت الضعف.

***

تعمقا في (منطقة فرضة نهم) تحيط بها جبال يسكنها الإنسان اليمني، بيوت مبنية من الأحجار فوق الصخور والمرتفعات الشاهقة التي يخيل للمتأمل أنها معلقة في السماء. والمنطقة مشهورة بأحجارها الصلبة الصالحة للبناء. ولم تبخل الأرض منذ القدم وعلى مرّ القرون بالغدق على أهلها بينابيع وجداول تبهر الناظر إذ تتفجر من بين الصخور والجبال الجرداء. تمتعا حتى دخلا قرية في وادي ملاح. بدت القرية أكثر هدوءً إلا من حركة القطط والحيوانات الأخرى. رائحة روثها حيثما حلا، يحول إلى وقود يبقى مشتعل لساعات عند إعداد الطعام، حيث من عادة المناطق الجبلية عدم الاستهلاك المفرط للحطب وتعلم الإنسان القديم أن يدخر منها ويستغل ما يمكن استغلاله من روث الحيوانات وغيرها. إنها عبقرية سكان الجبال. رحب بهما معلم يهود وادي ملح (يحيى بن سعيد)، وأحسن لهما الضيافة بعد مشقة السفر. وبعد حديث عن الأحوال والحال، أشار يزيد لحبشوش بسؤال عن المناطق الأثرية، فخرج في اليوم التالي مع أحد أبناء المنطقة للاستكشاف ونسخ النقوش على أحجار الجبل. وعاد آخر النهار بما نسخ إلى يزيد. لكن حبشوش ممتعض منه، فقد قطع عليه عهداً أن يعلمه الخط اليمني القديم (المُسند). ومنذ انطلاق رحلتهما، لم يف يزيد بوعده وشرع

في المماطلة وبحجة أن ليس لديه الوقت الكافي. فطوال يوميه يسأل ويدون ويرسم ويعيد نسخ ما نسخه له حبشوش.

في اليوم التالي، خرجا في زيارة حول القرية لاستطلاع علومها وحالة أهلها من اليهود. وفي هذه الأثناء، طلب قروي من يزيد أن يكتب له بالعربية، فعل ذلك وكتب له ما يريد. هنا دهش القروي ولم يجد حرجاً ليتعجب في حضرة مسامعهما "كيف لقدسي أن يخط باللغة العربية لغة الإسلام؟". اشتد المدح وتناقل البسطاء من الناس ذلك، وكلمة تزيد فوق كلمة حتى وصل لمسامع يزيد أن هناك من يكذب أنه قدسي، بل إنه ملاك بهيئة رجل أبيض والدليل أنه يكتب بلغة الإسلام. وبما أن (ملاح) فيها سكون ورخاء لليهود تحت حماية القبائل مقارنة بأرحب، فقد قرارا البقاء هنا لأيام منها البحث عن المخطوطات. وتبادل قصص العرب والقبائل كلٌ بما عنده. وهذه ثقافة اليمني؛ إذا تمكن من هذه المعرفة، فله شأن عظيم بين الناس جميعا.

***

قبل أسبوعين، وقع مهول على سكان وادي ملاح وكانت الأرض عاليها واطيها. واليوم هو يوم الفصل بالقضية بحضور عقال اليهود المعلم يحيى

بن سعيد وكتابة صك فصل القضية لتبقى شاهدة لكل شارد ووارد في المعمورة أن النقيب (أبو لحوم) أوفى بعهد الحماية. سيجتمعون ليستلم اليهود حقهم. وسينجز الصك وأبى عاقل اليهود إلا أن يكون حبشوش من ضمن الشهود في الفصل. فله مكانة مهمة عند عقال اليهود. حبشوش ذكي، ولا يتدخل في شيء إلا بعد سماع التفاصيل وفهم الموقف وما سيترتب عليه مستقبلا خاصة أنه قدم من تلك المنطقة وسمع كلام متضارب وغير دقيق. أمسك بيد عاقل اليهود وقال له:

- بربك، قل لي ما حدث بالتفصيل. فلست مشككاً، قالوا لنا في نهم إن يهودي قُتل هناك. وما دام أخونا رحمه الله منكم، فأنتم تعرفون القصة بدون مبالغات. قالوا لنا إن بين القاتل وأخونا خلاف قديم على تجارة. وأنا أرغب بقصص ووقائع إخواننا لأنقلها لحاخام صنعاء وأضرب بها المثل عن الحاجة بما ينفع إخواننا.

قال له عاقل اليهود وهو يتموضع ليأخذ مجلسا مريحا في الغرفة:

- قبل شهر، خرج أخونا يوسف شكر لقضاء حاجته، وذهب إلى أمام منزل قبيلي صديق له في منطقة (نهم). وبينما كان منتظراً لصديقه، حتى تفاجأ غدرا بضربة على أم رأسه بصميل (عود حطب غليظ). انفجر رأس أخينا ومات في لحظته. القاتل قبيلي

مختل عقليا. حجة القاتل أن أخانا اليهودي سحره وتسبب في فقدان عقله... (قاطعه يزيد وطلب منه أن يفصل الحادثة ليدونها في قرطاسه، ثم تابع عاقل اليهود...)

- تعالت أصوات كل من يتنفس صغيراً وكبيراً من القبائل "عيب يا عيبه" استنكارا ووسيلة ليسمع القاصي والداني ليجتمعوا في الحال حول الجريمة. والصوت يتبعه صوت حتى سمعت قبائل نهم جميعا، فاجتمعت قبيلة أبو لحوم بألفي فارس مستعدين للقتال، وتلاقوا وجها لوجه مع قبيلة القاتل بن معصار حيث منطقته، بدأ العرف القبلي بالعقر (ذبح البقر أمام الطرفين بغية إطفاء نار الحرب) ثم بادر أبو لحوم بقول ما عنده ومن خلفه فرسانه في بداية فتنة لا يطفئ نارها إلا الله بعقل الحكمة: "إن كان الحكم للشرع وطرح بنادقنا فلا بأس، مالم ننتزع حق المقتول جاري ونشعل نار الحرب ولو هلكنا جميعا". قبلوا التحكيم للشرع بدلا من الحرب وسجل عدد سلاح الطرفين وسلموها للقضاة للبت في القضية. وعند اللقاء في اليوم التالي في حضرة القضاة، ادعى النقيب بن معصار أن ابن قبيلتهم مجنون وإلا ما أقدم على قتل اليهودي وذلك مستنكر في العرف والعادات اليمنية وأن الدية تدفع لو مس قبيلي

شعرة من زنار اليهودي (شعرة من تلك الخصلة المتدلية على جانبي الوجه). ومادام أن ابنهم مجنون، فهم حاضرون لدفع الدية. فرد أبو لحوم على تلك الدعوى بأنه يقبل قول نقباء قبائل بكيل وحاشد وقبائل خولان. تم إرسال الدعوة لنقباء كبار قبائل اليمن على أن يتشرفوا في الحكم والقول في يوم الجمعة نهاية الأسبوع وتحت ضيافة أبو لحوم لكبار وجهاء قبائل صنعاء وما حولها إلى أبعد مدى فيه نقيب قبيلة. في نهاية الأسبوع، هبت القبائل بنقبائها وذبحت الذبائح وتم استقبال الجموع وكأنهم جيش جرار. تباحث نقباء القبائل. أصدر الحكم أن تدفع قبيلة بن معصار دية اليهودي ٣٠٨٠ ريال لأن القاتل مجنون. (دية اليهودي أربع ديات المسلم في العرف القبلي اليمني). وقال من نطق الحكم بأن لو لم يكن القاتل مجنونا لكان القصاص هو الحكم. وأعطوا ابن معصار مهلة ثلاثة أشهر لدفع الدية، وسمعنا أنه قد دفعها اليوم، وسنجتمع لاستلام الدية من أبو لحوم ونصك الصك بذلك وأنت بصفتك مبعوث حاخام صنعاء تكون من الشهود على الصك.

قال حبشوش مندهشاً:

- نحن قدمنا من نهم حيث قبيلة بن معصار وشهدنا حربه مع الجرادي بسبب يهودي وكان موقفه مشرف، وإخواننا في نهم كل وأحد يقول قصة غير الثاني. وليش ما وصلتنا رسالة منكم إلى حاخام صنعاء؟! الخبر عندنا في صنعاء أنه القتل بقصد النهب، وما كان ينبغي فهمنا لغير الحقيقة!
- كتبنا الرسالة وما عاد أرسلناها. خفنا يحصل شيء لأخينا لا قدر الله في الطريق، أبو لحوم له خصوم، ولو يبيت خصم ويقتل أخينا في الطريق بتقوم حرب تحرق الأخضر واليابس. ولا يهودي من منطقنا يخرج حتى نصك صك الحكم.
- الحمد لله الذي وهبنا الحكمة. (هكذا دعا حبشوش)

اجتمع اليهود وأبو لحوم ودفع لهم ديتين واحتفظ بديتين له. صك ذلك ووقعوا عليه وعاد اليهود لحزنهم على فقيدهم والمواساة في بيت يوسف شكر بين زوجته وأبنائه.

***

"سأبقى هنا في بيت المعلم يحيى بن سعيد وأنت اذهب لليهود وانظر ماذا ستجد معهم من مخطوطات". هكذا أمر يزيد دليله. قبل ذلك

حبشوش وبدأ بالمرور على اليهود واحدا تلو الآخر، فأخذه يهودي إلى كنيس (بني قامس) فوجد مخطوطة عمرها ٤٠٠ سنة وبداخلها وثيقة عمرها ٩٠٠ سنة. وما أثار دهشته هو المكتوب في الورقة بألوان عدة وهي الأحمر والأخضر والأصفر والأسود والأغبر والأزرق. كانت تلك لحظة دهشة له لتعدد الألوان. تابع البحث بين الكتب واستخرج كتاباً عمره ٥٠٠ سنة وآخر عمره ٧٠٠ سنة. أبقاهما في مكانهما واكتفى بكتاب دلالة الحائرين الذي أخذه إلى يزيد. وكعادته، يزيد لا يبدي استحسانه لأي منجز، بل يستصغره كي لا يعطيه أهمية أمام حبشوش، فقال له:

- لم نوفق اليوم بمخطوطة تهم الباحثين.

حبشوش يعلم أن يزيد لا يقول الحقيقة وذلك بعد سلسلة أحداث بدأت تحدث شرخا في جدار الثقة بينهما.

جاء موعد الرحيل إلى الجوف حيث سيمرون بمناطق وقرى تكون في نهاية المطاف منطقة الجوف. فقبل الرحيل، بدأ حبشوش يثير مخاوف يزيد بسلسة أحداث افتراضية:

- هناك طرق غير آمنة، سنتعرض لتفتيش من قبل قطاع الطرق. وإذا وجدوا ما لدينا من نحاسيات ومخطوطات، لن ننجو. إما سنقتل

لحظتها ونُنهب أو يسلمونا للقبائل والتي بدورها ستتخذ موقفا من إخواننا اليهود وسيعاملونا بطرق مختلفة.

- وما الذي تقترحه؟

- اقترح يا معلمي أن نستأمن المعلم يحيى بن سعيد بكل ما لدينا حتى نكمل رحلتنا، حيث أننا وجدنا فيه الصفات المطلوبة والكرم والجود.

فكر يزيد قليلا ثم وافق على وضع الأمتعة من ملابس فرنجية كما يسمونها إلى النحاسيات ونسخ المخطوطات وبعض المخطوطات الأصلية. لم يستبقيا سوى ما يلبسانه. جاء المعلم يحيى بن سعيد وقد جمع لهم الصدقات وأكرمهم بزاد الرحلة. سلما له الأمتعة ليبقيها عنده حتى العودة. وخرجوا من الدار باتجاه مدخل القرية لغرض لقاء بدوي هناك. شقوا طريقهم من مناطق فيها الفقر سائد. يظهر ذلك للأعيان من البيوت النصف مسقوفة أحيانا ومن هيئة الأطفال العرايا غير سترة صغيرة.

وصلوا إلى مدخل القرية والتقوا بدوياً يمتلك جملاً اسمه سالم ليكون دليلهما ويوصلهما إلى منطقة يهود الغيل سالمين. استدعى المعلم يحيى بن سعيد اثنين من أبناء القبائل ليشهدا أن البدوي مسؤول عن سلامتهما وعن أي مكروه يصيبها، ثم دفع له أجرته لقاء هذه المهمة. غمز حبشوش

للمعلم يحيى بن سعيد وابتسم له. تلك علامة بينهما بعدما اتفقا على شيء ينجز حتى العودة من الجوف لأخذ ما استأمنه عليه.

***

في منزل سعيدة الجميع لاحظ تغير حالتها عكس المعتاد ولكنها بقت صامتة وتراوغ حتى اخترعت كذبة بأن ذئباً قابلها وأفزعها قبل هروبه وكانت تتوقع أنه يركض باتجاهها. في وقت توسط الشمس كبد السماء وميمونة في طريقها إلى دارها وإذا بزوجة أخي الداية تستوقفها وتسرب لها خبر حمل سعيدة. حال ميمونة أقرب إلى الموت بل هو الموت نفسه. وبالكاد وصلت للدار، وهناك حدث وأن اعترفت سعيدة لأختها بعد مواجهتها بما تتناقله نساء وادي نجران، توسلت سعيدة لأختها: "أتوسل لك أستري عليا لا تفضحيني ورب موسى أنه قال بيجي يتزوجني، ضعفت يا أختي، استريني" تصفعها اختها على خدها ثم أنشبت أضافرها في شعرها وشدته نحوها وإذا بها تنحب وتترك شعر أختها وتصرخ "فضحتينا يا سعيدة، فضحتينا ودمرتينا"، تزامن هذا مع دخول الأم لتنصدم هي الأخرى وتحول المنزل على حالة من الفوضى. فهكذا قضايا تكون فناء للعائلة حتى الأب مري معيض الطاعن في السن الذي لم تعد قدماه قادرتين على حمله

ليسقط أرضا وهو ينادي "المعقرة" آلة حادة تنفع للقتل، لكنه أعجز من فعل ذلك بسبب سنه. حالة المنزل يرثى لها حقاً. وبعد شدة، ازدادت الشدة بعد ذهاب الأب مري معيض إلى حاخام نجران الذي أكد له بأن يعقوب شلوم نصاب ومجرم وملعون ومطرود الذمة لأنه فعل نفس هذه الفعلة مع فتاة يهودية في الجوف وهرب وتسبب بكارثة على الضحية وأهلها. بعد مناقشة حول يعقوب والتأكد أن سعيدة في مصيبة وببطنها (ابن حرام) وهنا الشرع اليهودي في نجران لابد من ذبح الضحية لأن في بطنها جنين سيولد حرام وسبق ونفذوا هذا الحكم على كل ضحية يهودية تقع فريسة الذئاب التي تجردت من الإنسانية والأحاسيس كما تجرد مصوغ هذا الحكم أيضاً. وبما أن شرط تنفيذ ذبح الضحية لا يكون إلا على يد الأقرب من الضحية وبما أن الأب طاعن بالسن وكذلك الأم وليس لسعيدة أخ، فقد كلفوا من يسافر إلى منطقة صعدة ليستدعي أخوالها ليتولوا ذبحها.

***

لم يستطع يزيد الصمود كما توقع رغم تدريباته. فقد اعتقد أنه استعد جيداً لجبال وصحاري اليمن. ولكن سرعان ما كشفت جبال اليمن أنها لأهلها

الراجلة حفاة الأقدام بين الحجارة ذات الرؤوس الحادة. والصحراء للبدو حيث التيارات الرملية. وليس ذلك فحسب، فقد قيل له إن جمال الجبال تختلف عن جمال الصحراء. ليس أمامه سوى ركوب الجمل ليخفف على قدميه ألم المسير. في منتصف الليل، وعلى أطراف وادٍ بمنطقة لا سكان فيها، افترشوا التراب للنوم ساعات حتى يقبل الصباح. تناولوا وجبة المسافر، الخبز المنقع بالسمن والحليب وخلدوا للنوم بين أحضان الخلاء المسكون بأصوات الحشرات الليلية التي تئزّ أزاّ حتى تُفيق السكون وترميه بين أحضان الجنون. هناك عواء ذئب في البعيد، وصدى تردده ذئاب لا مستقر لها. وفي الجهة الأخرى، صفير الرياح العابرة بين ثنايا ستائر الليل تندف الهواء ندفا. ليس ذلك هاجسا في بادئ الأمر. فالهاجس هو قطاع الطرق من البدو حتى هذه اللحظة. الدليل البدوي سالم. يحذرهما من ارتفاع أي صوت منهما لكي لا يكون ذلك سبب هلاكهم جميعا. انبطحت أجسادهم في التراب، وأغمضت أعينهم وبقيت أذانهم تسمع رعب الليل. يزيد غاص في نوم وشخير. البدوي نصفه نائم ونصفه صاح. أما حبشوش، فليس بالإنسان السهل الذي يستسلم للنوم وعيناه تطالعان السماء، يتصفح النجوم، يعرف أسماءها ويعرف اتجاهاتها ويْستدلّ بها في الطريق، تقلبت عيناه من نجم إلى آخر. روحانيات العقيدة تستحضره قبل

أن يستحضرها، تموج شفتاه بتراتيل عبرانية وأدعية لا نهاية لها. فهو أنسان متدين رغم معارضته سراً لبعض الأحكام الجائرة القديمة، وله صولات وجولات في الأحكام الدينية والفصل. في غمرة خشوعه وتأملاته، أحس بزاحفة بين رجليه، تلتف حولهما وترتفع وكأنها تبحث عن مكان شهيتها. تسمر واسود وجهه فوق سواد الليل وهام بالصراخ للنجدة وخشي سماع البدو صوته. وحكمته أنه بين خطرين، خطر حنش وخطر قاطع طريق. شعر بالموت يجثم على جسده لسحب خاصتها. نادى النائم إلى جواره بالمساعدة بصوت خفيف، فأفاق من نومه:

- ما الذي تريد؟
- حنش دخل بين قدمي وأخشى أن يلدغني، أعني...
- لا تتوهم ونم.
- ويلاه، لو تحركت سيلدغني، ومادام صحبتنا فيها لله ما فيها، فأنقذني.
- لا تتحرك وسيرحل عنك، وعد لنومك. لو كان مأموراً بلدغك من الله، لكان لدغك.

(اليمني يعتقد أن الحنش لا يلدغ إلا إذا كان مأموراً بذلك بأمر إلهيّ وألا يحوم ليحذر ويرحل. والتحذير قصد به إن كان على المرء نذر عليه الوفاء به

أو صيام يجب قضاؤه. لذا، يرسل الله الحنش إما منفذاً لأمر اللدغ أو محذرا للوفاء بالنذر) لاحت أدعية حبشوش بصوت هادئ وهو يرتعد، شعر بانسياب نحو أسفل قدميه وكأن الحنش ينسحب، واصل أدعيته وقلبه يكاد ينفجر من قوة النبضات حتى اختفى ذلك الإحساس بزاحفة على جسده. شكر الله وتدريجيا هدأت نفسه. سحب لحافه الذي يستر نصف جسده وغطى ما استطاع منه وقضى كثيراً من الوقت يسيطر على تفكيره بالأبراج.

صباحا، واصلوا رحلتهم إلى أن وصلوا إلى قرية الدليل البدوي (سالم) ليطمئن البدوي على أغنامه ويقدم واجب الضيافة لمن يرافقهما. أدخلهم إلى بيته بترحيب حار وهمت زوجته بتجهيز الغداء. وخرج البدوي إلى فناء الدار، قطف أغصان الأعشاب العطرية المشقر والشذاب ليشقر ضيوفه (وضع أغصان الشذاب والمشقر في مشدة اليمني أو جيبة وأيضا تبقى بيده يشمها بين اللحظة والأخرى) هذه عادة يمارسها اليمني سواء هنا أو صنعاء أو أي منطقة يمنية سواء عند القبائل أو اليهود. ولذلك، اعتقاد مشترك أن المشقر والشذاب تحرق الجن وتنفره من المكان وتبطل مفعول السحر وتمنع العين والمس والحسد. وتعتقد النساء بأن الشذاب حرز وحجاب وتستخدم لحماية العروسين وأيضاً الأم عند الولادة. وتوضع

أغصان الشذاب في وعاء من الفخار بقرب الطفل وأيضاً حول رأسه وصدرة أو بين ملابسه. للمشقر والشذاب علاقة وثيقة بيوم الجمعة، واعتاد الكثير من المصلين على التمشقر بعد الفراغ من لبس ثياب الجمعة، ووضع أغصانها في الجيب أو بين طيات المشدة وهذا يقوم بدور العطور. الأمر لا يختلف عن السبت وتمشقر يهود اليمن كما الجمعة ولا يوجد مسجد أو كنيس في صنعاء أو غيرها من المدن يخلو منهما، وتتنافس الأسر على إرسال أبنائها الصغار لتوزيعه في جمعة المسلم أو في سبت اليهودي.

شاع خبر قدوم اليهود في المنطقة السكنية، كان الخبر قد شاع سابقا وغادر منطقة أرحب وتجاوز قرية تليها قرية ومنطقة تليها منطقة أن اليهودي الأبيض هو (الخرافة بأنه رسول المسيح المنتظر في العقيدة اليهودية، وله قدرات خارقة). سمع عاقل البدو بوجودهما في بيت أحد أبنائهم، أخذ من فوره أعيانهم، وذهبوا للترحيب بهما وأسمعوهما من الكلام الطيب وبدا عاقل البدو ودودا جدا معهما بل إنه سعد بوجودهما: "حياكم الله، أهلا وسهلا ومرحبا، شرفتمونا في دياركم" كلمات ظل لوقت يرددها هو ومن معه. هكذا أعرافهم، ومن يدري لو التقوا بهم في الخلاء لكان الوضع مختلفاً على عكس وجودهم بينهم. فالأعراف تقتضي أن الضيف سيد القوم.

بدا السؤال المطمور في قلب عاقل القوم ليتقصى حقيقة ما وصل إليهم من إشاعات أتت من منطقة أرحب:

- هل أنت كما يقال بانك رسول المسيح المنتظر؟ (موجها كلامه إلى يزيد...)

أجاب وهو يضحك:

- بالطبع لا. وهل يعقل هذا؟ ألصقوا ذلك بي في أرحب ولا علاقة لي بشيء مما ذكر إلا لأن لون بشرتي أبيض ناصع.
- وكيف أحوال العراق؟
- لا، لا يا سيدي، أنا لست من العراق.
- لكنهم يقولون إنك جئت من العراق؟
- غير صحيح يا سيدي، هناك لبس في الموضوع. والحقيقة، كما يعلم حبشوش، أنا مقدسي من القدس. (يدير رأسه نحو دليله الذي بدوره يؤكد...)
- نعم، إنه مقدسي، جاء بغرض الصدقة من إخواننا، حيث وأن بلادنا فيها الخير، والقدس تمرّ بسنة القحط والجوع شاغل الناس قبل أي شيء.

علت الدهشة وجوه القوم وكلٌّ ينظر في وجه الآخر، فقال عاقلهم غير مصدق:

- القدس؟!

رد يزيد وحبشوش بنفس اللحظة:

- نعم القدس.
- وكيف حال القدس وأهلها؟

أجاب يزيد:

- إنها بخير من الله. ولكن هذا العام تمرّ بالقحط وطغى الجوع وتشرد الكثير يبحثون عن الصدقات كلٌّ في بلاد.

سأل عاقلهم سؤالاً لم يتوقعه يزيد:

-هل رأيت حجر الواقعة؟

كبار القوم يمدون برؤوسهم قليلا للأمام ليسمعوا رد المقدسي:

- لتلك المعرفة كرامات يخص بها الله من يشاء من عباده وأنا لست منهم، ولست صاحب معرفة متى تقوم الساعة. العلماء الأتقياء هم وحدهم من يرون الصخرة ولا يراها العاديون.

بصوت واحد وكأنه تحسر:

- لا حول ولا قوة إلا بالله...

"الحجر الكبير، يطلق عليه (حجر الواقعة) يشاع أنها معلقة في الهواء فوق مسجد عمر بن الخطاب في القدس. تهبط حجر الواقعة بانتظام كل عام باتجاه الأرض. وعندما تتلاقى مع أعلى مآذن جامع عمر وتلمسه، ستهتز الأرض وتقوم القيامة." قدم لهم عاقل القوم جملة من النصائح للتعامل مع أي ظرف طارئ في منطقتهم وأغدق عليهم بما جادت نفسه ومن معه من صدقة رغم ضائقتهم والحكم الذي أثقل كاهلهم، (لولا دية المقتولين في طريق قريتنا، لكنا أكرمناكم بما يليق بكم) هكذا قال عاقلهم. شعر حبشوش بأن وجع هذه القرية أكبر مما تتحمل. الأسى واضح في وجه العاقل. سأله حبشوش ما عليهم من دية، أجابه عاقل البدو:

- ثلاث رجال من همدان مروا من طريق قريتنا، ظهر لهم من قطعوا المسبلة ويبدو أنهم تعاركوا وهذا واضح من ملابس القتلى الممزقة، القتلة لا يعلمهم إلا الله. ولأنهم في طريق قريتنا، فالحكم علينا قبلياً بالدية. ولو لم نقبل، لتحاربنا مع قبيلة القتلى. ثلاث ديات كلفتنا كل مدخراتنا. وها نحن نبيع ما يمكن بيعه من أغنامنا ورهنا أرض...

دهش يزيد وقال وكأنه يحتج:

- وما دخلكم أنتم إذا لم يكن القتلة من أبنائكم، هذا لا بشرع الله ولا بشرع العقل؟! (تفاعل يزيد معهم لحسن ما لقاه منهم من كرم الضيافة رغم ضائقتهم).

رد عليه حبشوش:

- هذا شرع القبائل، لأن كل قبيلة وقرية تحمي منطقتها، والقتيل في حدود قريتهم يتحمل دمه أهل القرية حيث يعتبر أهل المقتول الأمر تقصيراً في حماية المسبلة.

تنهد عاقل البدو وقال بوجع:

- الحياة لا تخلو من المتاعب، نفي بالتزاماتنا ونبيض وجهنا أمام القبائل والله الوهاب.

***

الشمس تشوي الوجوه في هذا الطريق باتجاه منطقة (الغيل في الجوف) خاصة عندما تتوسط كبد السماء. الجوف يغلب عليها الطابع السهلي وتتداخل مع صحراء الربع الخالي، مناخها صحراوي. فيها مدينة قرناو، الخربة البيضاء والخربة السوداء وبراقش. وكانت عاصمة مملكة مَعَّين. المكان لا يدل على وجود الأحياء سوى صخور جلمدة وأتربة متطايرة

تعمي الأبصار وتكتم الأنفاس. لم يبق لهم ماء، زاد العطش تهوره، جفت الأفواه، وتناقص العرق جفافا تدريجيا. المراد الماء قبل كل شيء. وبدلاً من استطلاع المنطقة، صاروا يستطلعون أي أثر لمار أو بدوي بغية طلب الماء. يتساءل حبشوش "كيف قامت هنا حضارات في هذه الأرض القاحلة؟! كيف عاشوا وكونوا مملكة تليها مملكة وحكموا ونظموا وتوسعوا؟!". رد عليه يزيد وهو يلهث وبالكاد يتكلم من شدة العطش: "من يدري لربما كانت في زمنهم واحات وأنهار". رغم الإعياء، عقب حبشوش "لعمري لا أخف من عقل اليمني، كل أسرة تسكن لوحدها في قرية بأعلى قمة الجبال أو في صحراء وقطرة الماء معدومة، اليمنيون أغرب الأقوام إنهم جبابرة". نظر إليه يزيد شزراً وقال: "ليست ميزة ما ذكرت يا حبشوش". وبعد توغل في أعماق الجحيم من أرض قاحلة وشمس حارقة، حنت عليهم الأرض براعية غنم هناك بعيداً بالكاد يراها أحد سوى حبشوش حاد النظر. انطلق سالم البدوي، أسرع باتجاهها لجلب الماء، اختفى أثره لوقت ليظهر لهما بالحياة، شربوا ثم واصلوا المسير برفقة الجمل يركبه يزيد. قبل عودة الشمس إلى مخدعها بقليل، تقف أقدامهم بالقرب من قرية الغيل. توقفوا، فقال حبشوش لسالم البدوي بخطته:

- يا سالم، خذ معلمي يزيد إلى منزل عاقل اليهود المعلم يحيى الصعدي، وأنا ابحث عن يهودي يستضيفني.
- أخذكم الإثنان إلى معلم يهود الغيل.
- لا، الشر هنا مضمور في القلوب، وما يصح أن نجتمع الاثنان في دار.

افترقوا، سالم والجمل ويزيد أخذوا طريقاً، وحبشوش طريق آخر. وعند أول دار لليهود، الباب مفتوح، أسرع إليه حبشوش وهو يتلفت يمنةً ويسرةً لألا يراه قبيلي. وجد نفسه وجسده في اقتحام لدار دون استئذان وأوصد الباب من خلفه بسرعة خاطفة. جاء الصوت من خلفه. إنها امرأة صاحبة الدار "من في الباب؟! لا تدخل داري". لم يستمع لها بل ظل يستجمع أنفاسه حتى تنخفض دقات قلبه. استدارت وبيدها المشط وشعرها منساب جداول ساقية موزعة حولها. إنها تحظر نفسها للغد السبت. ما أن رأى ذلك حتى طرق عينيه براحة يده خجلا. تناولت غطاء الشعر وغطت شعرها وقد أبصرت بطرف عينيها زنانيره. نهضت من مجلسها بنشاط وترحيب شديد، اقتربت منه لتعتذر:

- لا تتحامل عليّ وتزعل مني، لأني اعتقدت أنك لست يهودياً، ونحن نخشى غير اليهود، لأنهم يأتون ليفسدوا علينا طعام السبت. (قالت ذلك بالعبرية).
- أنا دخلت بدون استئذان لأني خفت أن يراني قبيلي ويبطش بي. (رد عليها بالعبرية أيضا).

سلمت عليه ودعته إلى خلوة الاستقبال، ثم ذهبت لإحضار القهوة واللحوح (خبز خفيف) وذهبت لتنادي زوجها وأخاها. "ما يميز اليهود هو استقبال الضيف. فلابد لسيد الدار أن يدهن أقدامه بالسمن ويعطوه الكحل الأصبهاني. وتبقى لهم عاداتهم التي هي شائعة بين أبناء اليمن ولا يتنازلون عنها بسهولة كسائر جيرانهم من القبائل."

أحضروا لحبشوش الماء، فقام وغسل رجليه ويديه ووجهه بغية صلاة السبت في الكنيس. وأعطوه المكحلة ليتكحل والدهن ليدهن زنانيره ووجهه. عاقل اليهود يحيى الصعدي، عبر عن سعادته بوجود يزيد في بيته، قام بمسح رجليه بالسمن حال دخوله الدار وحاول جاهدا أن يقدم واجب الضيافة حسب استطاعته برغم من فقر حاله الشديد. وبما أن اليوم هو ليلة السبت، فهم منهمكون في تجهيز أنفسهم بحلتهم العيدية لصلواتهم

ومآدبهم. فقد نال يزيد ما ينالوه في سبتهم، من كحل ودهن وأغصان المشقر والشذاب.

خرج حبشوش برفقة مضيفه (هارون الصعدي) إلى بيت عاقل اليهود الذي فيه الكنيس. وهناك أقاموا صلواتهم. وحال عودته إلى بيت المضيف، تنافس الكثير على من ينال شرف ضيافته. لكن المضيف رفض لأن حبشوش نزل عنده في البداية. عادوا للبيت ودارت الأحاديث وأخبار البلاد والعباد حتى آخر الليل. وهو الوقت الذي يذهبون به إلى الكنيس ليبدأوا سبتهم.

في الكنيس، أطفئت القناديل، وبدا هجيل لحن صلواتهم وانتهوا من الصلاة وقدم لهم عاقل اليهود مشروب القهوة القشر (الغلاف الخارجي لثمرة البن) ومشروب الزنجبيل. بعدها، راحوا يقرأون من سفر التوراة.

عصر السبت، والطقوس الدينية مستمرة في دار هارون الصعدي، بدا حبشوش مرتاحا، وهو يمارس طقوسه. سمعوا طرق الباب، فلم يردوا لأنهم في حضرة السبت. تكرر الطرق حتى مل الطارق ونادى بصوته جاره اليهودي بأنه يريد المساعدة حيث أن زوجته ستلد. لم يرد عليه، فسأل حبشوش لمَ لا يجيب نداء جاره القبيلي لربما هو في حاجة. فأجابه هارون:

- لا، بغيتي أن أجيب ندائه، لكني أخشى من تحميل الغلط في فسخ سبتنا. فالقبائل تعتقد أن اليهود لا يخاطبون أحد يوم السبت، وإن أنا أجبت، ربما هي وسيله للتحرش بنا.
- أهل القبائل هنا أجلاف ويتعاملون بما يفهمون وإن كان غلطاً.
- نعم، فأنت لا تعلم ما صنعوا باليهودي صائد الجراد.
- ماذا صنعوا به؟
- موجة جراد اجتاحت المنطقة في أيام القحط وهرعت القبائل للملمتها وأكلها. وأخونا اليهودي ذهب ليلم رزقه من الجراد وهو مسبت. فأمسكت به مجموعة من القبائل وقالوا له "كيف تجمع جراد وأنت مسبت؟ فقد اخترقت السبت، إذا أنت كافر ويجب قتلك" ضربوه ونهبوا ما معه وساقوه مكبلا إلى القاضي الذي حكم عليه بالسجن لأشهر حتى افتسخ خرق السبت بمصادرة بيته وتشريده من البلاد.

أعاد الطارق للباب طرقات المزلاج، فلم يردوا عليه، فقال هارون:

- والله أن قلبي يؤلمني أريد أن أرد عليه، لربما هو في ضائقة.
- ردَّ عليه، وإن حصل شيء نقول أمام القبائل إنك أجبتهُ عندما هم بخلع الباب.

- هذا حل.

أطل هارون من النافذة: وقال من الطارق لبيت يهودي مسبت؟!

فاقترب الطارق إلى أمام النافذة التي تقابل وجهه وقال:

- يا داعي الله يا جاري. زوجتي في حالة ولادة، والله ما معي شيء وأنا فقير كما تعلم، ولا أحد من جماعتي معه فلوس اليوم. سلفني عشرة قروش.

- انتظر.

ذهب خطوات إلى مَخْبأ نقوده وأخرج ما يملك ريال ونصف. أعاد الريال إلى محفظته الجلدية، واتجه إلى النافذة واخرج يده ليعطيه المال:

- هذا نصف ريال، حتى يفك الله ضائقتك وتعيد حقي.

- سلمك الله يا جاري. (سعادة الفرج بالغة الأثر على وجهه).

- وسأرسل زوجتي آخر اليوم لتقوم بواجب زوجتك.

في آخر يوم السبت، أرسل هارون زوجته لتقوم بواجب زوجة جاره. أخذت معها ما تبقى من طعام سبتهم، وبدأت بتخضير درج منزل الجار حسب العادات اليهودية في هذه المناسبات. تتم عملية التخضير بواسطة أوراق الشذاب والمشقر يفرك على درج ومقدمة باب الدار.

***

أيام مرّت في غيل الجوف، ويبدو أن الكرم والسوالف أنست حبشوش مهمته مؤقتا حتى سمع أن يزيد ذهب بصحبه يهوديين إلى (حزم همدان) ليقضي عيد الفطير هناك في دار تاجر المجوهرات اليهودي (سالم بن سعيد). في اليوم التالي تبعه حبشوش إلى الحزم، ووجده ينسخ نقوشاً من بنايات عاد. في الحال، باشر حبشوش المساعدة في النسخ كي لا تفوته أجرة هذه المهمة. فنظر إليه يزيد بامتعاض وقال بصوت هادئ:

- مادي أكثر من اللازم. (قالها بالغة الفرنسية).

لم يفهم حبشوش ما قال، لكنه أنهمك في الإسراع بالكتابة قدر الإمكان، وكلما كتب سطرا كلما ربح نصف قرش، وهو يقول في نفسه "هذا رزقي، وإلا ما الفائدة من هذه الرحلة الشاقة؟".

في نهاية اليوم شقا طريقهما نحو منزل يهودي في (حزم همدان). وفي أرض الحزم، توقف حبشوش ونظر يمنة ويسرة وتنهد، توقف يزيد واستدار نحو دليله وقال في سره بالفرنسية "سنتأخر ونتعرض للمخاطر". اقترب منه وهو شارد الذهن يتأمل المكان ويهز رأسه متعجباً، فسأله يزيد:

- ما دهاك؟! سنتأخر والليل هنا يعني الموت.

تنهد حبشوش مجددا ورد:

- أتأمل هذه البلاد، من هنا خرج جيش عظيم وله بصمته في تاريخ اليمن القديم.
- لنتابع مشينا وأنت تحدثني عن الجيش العظيم..
- حسناً يا معلمي...

استأنفا مشيهما وراح حبشوش يسرد ما يعلم من قلب التاريخ:

- من هذه البلاد انضم، جيش عظيم إلى جيش الملك يوسف أسار في حملاته العسكرية ضد القوات الحبشية الغازية لليمن. في مطلع القرن السادس الميلادي، اندلع صراع سياسي ديني خطير بين زعيمين هما الملك يوسف أسار يثأر والملك السميفع أشوع. كانت بداية الصراع عندما فشل الملك معد يكرب يعفر في حل الخلافات الدينية بين اليهود والمسيحيين. تطورت الخلافات بعد وفاته، حيث تولى الحكم اليهودي الملك يوسف أسار. ولأنه كان متهوراً، نشب صراع ديني بين اليهود والمسيحيين. وبسبب هذا الصراع، تدخل الأحباش بحجة مساندة أخوتهم في المسيحية. نتيجة لذلك التدخل وعكس توقع الأحباش، فقد وقف مسيحيو اليمن بزعامة السميفع أشوع ضد تدخل الأحباش في الشؤون اليمنية برغم أنهم ينتمون لديانة واحدة. وكان الملك المسيحي السميفع أشوع قائداً

بارزاً في جيش الملك اليهودي يوسف أسار. وبسبب تهور الملك يوسف واضطهاده للمسيحيين، فقد نسف التحالف بينه وبين مسيحيين اليمن بقيادة الملك السميفع أشوع وترك المعركة وذهب إلى شبوة. قتل الملك اليهودي يوسف أسار في معركة مع الأحباش. وعندما علم السميفع أشوع بذلك، استشعر خطر وقوع اليمن تحت الاحتلال الحبشي، فعاد بجيشه من شبوة وعقد اتفاقاً مع الأحباش ينص على عودة الجيش الحبشي إلى أكسوم. لكن الأحباش خانوا الاتفاق وتحالفوا مع الرومان بغية السيطرة على الطريق التجاري البحري ومن ثم محاربة الفرس. مزق الملك السميفع الاتفاقية وخاض معارك ضارية ضد الأحباش حتى قتل في منطقة السحول. ومقتله كان سبباً في نجاح الأحباش في احتلال اليمن. ثم ظهر الملك سيف بن ذي يزن غير المذكور في مخطوطاتنا نحن اليهود فقط شفهياً...

قاطعه يزيد:

- أيضاً لم يُعثر على نقش يذكر اسم ذي يزن، على الأقل حتى الآن..
- المذكور شفهياً في تاريخنا نحن اليهود، بأنه كان وثنيا. قابل كسرى طالباً الدعم فرد عليه: "ما كنت لأورط جيش فارس في أرض

بعيده قليلة الخير". وقدم المال لذي يزن، لكنه رفض قبوله وطلب الرجال حيث أبدى استعداده لمنح فارس حكم اليمن. لم يقتنع كسرى بذلك لأنه يخشى التورط، فقرر إرسال ٨٠٠ سجين مع ذي يزن مات منهم ٢٠٠ في عرض البحر. كون ذي يزن جيشه القوي. وبحنكته العسكرية، نجح في طرد الأحباش العدو التاريخي لليمن. مع أني اعتبر قصة ذي يزن غير منطقية مع الفرس إلا أن تدخل الأحباش في كل صراع داخلي، لا توجد مملكة يمنية قديمة قامت ولم تنشب بينهم المعارك منذ سبأ حتى تدخلاتهم في دعم دولة بني نجاح.

- هذا صحيح، والأبحاث مستمرة لمعرفة تفاصيل أكثر، المعلومات متضاربة، ولا نؤكد شيئاً دون نقوش تثبت سواءً في أكسوم أو مأرب. قد يكونون امتداداً لحضارة سبأ أو بينهم تزاوج، وقد لا يكونون. أتدري يا حبشوش أن الأحباش يعتقدون أنهم أحفاد الملكة بلقيس، يعتقدون بأن الملكة بلقيس عادت للحبشة وهي حامل من الملك سليمان ووضعت مولودها اسمته "منليك" ومعناه أبن الحكيم. هو أول إمبراطور للحبشة يدين باليهودية ومؤسس السلالة السليمانية في الحبشة التي تحكم منذ ثلاثة آلاف سنة ل

٢٢٥ من الأجيال المتلاحقة. وحسب "مجد الملوك" عندما بلغ منليك الثانية عشرة من عمره أخبرته أمه عن أبيه. وحين بلغ الثانية والعشرين، قرر زيارة والده في أورشليم الذي سعد بقدومه وقال: "أنتم تقولون أنه يشبهني والحقيقة إنه أشبه بوالدي داوود في صباه وأيام شجاعته. إنه أجمل مني بكثير".

- ليس كل ما تعتقد الشعوب والأمم صحيحاً إذا لم يخضع للمخطوطات والنقوش ووزن المعلومة في ميزان المنطق والعقل. رؤيتنا في اليمن تختلف عن رؤية إخواننا في الحبشة.
- صدقت يا حبشوش، بالنسبة لتضارب الروايات والمنقولات التاريخية حول بلقيس ليس حصراً في هذه المنطقة بل وصل للصين أيضاً. مثلاً، التاريخ الصيني يقول مالم نستدل عليه، ولا يمكننا أن نجزم بمصداقيته حتى نجد نقوشاً سبئية تتحدث وتوثق ذلك. فالسبئيون كانوا يوثقون أهم الأحداث. يتحدث تاريخ الصين القديم عن زيارة ملك الصين مو ونغ لمملكة سبأ في القرن العاشر قبل الميلاد. جاء ذكر ذلك في الكتاب الصيني الشهير (الحوليات القصبية)، بأن الملك مو ونغ قام برحلة إلى مملكة سبأ، حيث استقبل بحفاوة شديدة، ودخل على الملكة بلقيس وهو يحمل

الصولجان الأسود والأبيض في يديه، وقدم إليها هدايا ثمينة تليق بها، مائة أوقية من الذهب والأحجار الثمينة ومائة لفافة من ديباج الحرير. قبلت الملكة الهدايا بعد أن انحنت عدة مرات. أقامت الملكة بلقيس وليمة على شرف الملك مو ونغ على ضفاف بحيرة يشب (المقصود بها بحيرة الري الاصطناعية في العاصمة مأرب). مكث الملك مو في العربية السعيدة أرض مملكة سبأ لفترة ثم عاد إلى الصين.

- هل هذا معقول يا معلمي؟!
- وأكثر من ذلك، نفس المصدر الصيني يتحدث بأن الملك الصيني مو ونغ أعجب بالملكة بلقيس وطلبها للزواج، لكنها رفضت أو اعتذرت، وتبقى دائما معضلة دقة الترجمات وانتقاء ما يقابلها من مفردات.
- بوركت يا معلمي على هذه المعلومة.

صمت يزيد قليلا وسأل حبشوش:

- ما معنى همدان؟

- كلمة همد باللغة العربية تعني الرجل الرشيق. فقد كان شعباً خفيف الحركة وسريع الضربات في المعارك. من هنا، أظن جاءت هذه التسمية.

***

في اليوم التالي، قال حبشوش ليزيد محذراً:

- لا تخرج من الدار وتلفت الأنظار عند القبائل.
- وما الضير في ذلك ما دمت هنا غريباً وضيفاً، أليست هذه الأعراف؟ فلسنا في طريق مقطوعة من البشر.
- يا معلمي هنا بلاد القتل بالصميل؟
- ماذا تقصد؟!
- الصميل، هو عود من الحطب ويعد من وسائل الدفاع عن النفس.
- ألهذه الدرجة؟!
- وأكثر. أبناء أرض جافة. ولهذا هم عنيفون.

أخرج يزيد ما تحصلوا عليه من الصدقات وأعطاها لحبشوش لينطلق وينسخ النقوش في نواحي المنطقة. فقال حبشوش في سره "يدعي معرفة اليمن وهو لا يعرف شيئاً" ذهب حبشوش برفقة أحد أهل المنطقة وقام

بعمله وعاد ليشتري ما يحتاجه له ولدار المضيف من قمح وشعير وسمن. وفي طريقه، وجد كتلة من الشعر بين الرمال، أمسكها بيده، فإذا بها ثابتة ولها جذور. أزال الرمل من حولها فوجد جثة غير متعفنة لامرأة شابة قتلت ودفنت في ذلك المكان. دار حبشوش حول نفسه ليستطلع المكان لربما القاتل قريب من هنا، لم يجد أحداً، اطمأن بأن لا خطر عليه، عاد ليصوب عينيه نحو رأس الجثة، انتابه شعور بالبكاء، انحنى وأعاد التراب ليدفنها وقال بصوت مسموع لا يسمعه بشر سوى السماء "لِمَ جرئوا وقتلوها؟! ماذا صنعت لهم؟ ألأنها رفضت أن تكون جارية إذا كان أحد يريد خطفها فقتلها؟ أم أنها لم تسلم نفسها للاغتصاب وقتلها؟ أم أن لها أهلاً قتلوها لسبب عائلي؟ آه، ما أسهل القتل في بلدي". واصل مشيه يسحب قدميه سحبا وكأنه يجرهما خلفه. فلم تعد له طاقة للتنفس بعد أن شاهد بعينيه جثة المرأة.

قضى يزيد يومه في كتابة ما يريد كتابته باللغة الفرنسية. دخل عليه مجموعة من يهود (حزم همدان)، رحبوا به، وحدثوه قليلا ليمهدوا الطريق ليطرحوا ما في قلوبهم. وبعدها، يسأله عاقلهم:

- هل تتكرم يا ضيفنا وتدلنا على مخبئ الذهب؟

صدم لهذا الطلب، ورد عليه:

- لا علاقة لي بمخابئ الذهب. أنا أبحث عن نقوش الأقدمين.
- لكن الله أعطاك من البصيرة والعلم المخفي والتنبؤ.
- هذا صحيح، ولكني لا أجيد معرفة ما في باطن الأرض.
- لن نخبر أحدا أنك هو من دلنا.
- لو كنت أعلم لدليتكم، فلا مصلحة لي في كتمان ذلك وأنا راحل عن دياركم ريثما ننهي نسخ نقوش الأقدمين.

لم يعجبهم ذلك، حيث اعتقدوا أن له علاقة بالسحر وأنه يدعي البحث عن النقوش وفي الحقيقة حسب اعتقادهم هو يبحث عن كنوز الأولين من الذهب. فقالوا له بأصوات متفاوتة:

- نتمنى لك رحلة سعيدة.

خرجوا من مجلسه خائبين وعاد يزيد إلى قلمه وقرطاسه ليدون ملاحظاته باللغة الفرنسية عن هذه المنطقة: "هنا يعامل السكان اليهود بعبودية قاسية. وعلى الرغم من نواياهم الطيبة، لم يستطع هؤلاء الإخوة في الدين أن يمدوني صراحة بما يلزمني من العون لاكتشاف المنطقة، ومع ذلك قدموا لي أفضل المعلومات حول مواقع الخرائب. وبما أنهم اعتقدوا بأني ضليع في علوم السحر، فقد تمنوا لي رحلة سعيدة هدفها حسب ظنهم

استخراج الكنوز المخبأة تحت أنقاض الخرائب التي هي في حماية جنود الجن الخفية"...

***

الآن، سعيدة في انتظار قدوم ذابحيها مستسلمة لقدرها وأملها الوحيد هو رجوع يعقوب شلوم فمازالت تناجي الله إلى الآن بأن يهديه للعودة لها رغم سماعها من حاخام نجران أثناء سؤالها حول ما حدث لها بأنه شاب محترف الجريمة. ميمونة تدور حول نفسها لعلها تنقذ أختها من الذبح، ففكرت سراً بأن تذهب للداية تناشدها بأن تساعد سعيدة بطريقة لإنزال الجنين، كان رد الداية "لا أقتل النفس التي حرم الله قتلها" فشلت ميمونة في إقناعها بالمساعدة ولو تدلها على من له قدرة على فعل ذلك. عادت تجر أذيال الخيبة بحجم انتشار الخبر في نجران سواءً بين القبائل أو اليهود. منذ أيام وسعيدة لا تذوق النوم وفي حلقها غصة كيف تصرفت بسذاجة وسلمت جسدها بسهولة ولماذا وثقت برجل يراودها عن نفسها؟! ترى نفسها غبية فقط محروقة القلب قدمت جسدها لنذل وبسببه ستخسر حياتها وحياة جنينها من أجل نزوة عابرة حقيرة. مبكاها هو سطح المنزل، تنظر إلى السماء وتناجي ربها: "يا رب غلطت فسامحني ورقق لي قلوب من

حولي، من لي غيرك يرحمني ويرحم الي في بطني، يا رب كما نجيت موسى فنجني...". هكذا تناجي ودموعها تنزل بحرقة دون توقف حتى وجهها الجميل فقد بدا شاحباً من الهم والخوف والرعب والبكاء. سعيدة ضحية عفن الرجال الذين يرون في المرأة وحياتها مجرد شهوة. وهذا ليس مقتصر على يهود المنطقة بل حتى المسلمين. فجميعهم يشتركون في نفس الفكر حيث تتحمل المرأة وزر المجرم بالإضافة لمظلوميتها وهي التي تنال العقاب فقط لأنها امرأة وهو ذكر. فالاعتقاد السائد في هذه المنطقة أن الذكر طاهر هو وماؤه، والمرأة هي النجاسة وخُلقت فقط مكافأة للرجل ولتشبع رغباته وشهواته ولتخدمه فقط..

***

مازال يزيد تحت رعاية تاجر المجوهرات اليهودي (سالم بن سعيد) في (حزم همدان_ الجوف الوسطى)، استحسن البقاء متواريا عن الأنظار للحفاظ على حياته أو على الأقل تجنباً للمتاعب، أوكلت مهمة استكشاف معين لحبشوش، فرح بمصدر الرزق هذا الوارد من النسخ، اتخذ دليلا له لخط الذهاب فقط وشد الرحال إلى (معين).

معين مملكة يمنية قديمة في الألفية الأولى قبل الميلاد، عاصمة معين قرناو أو القرن. فيها معبد للصنم عثتر عشتار. كانت تعتمد على تجارة البهارات واللبان. كان الحكم فيها ملكياً وراثياً ويطلق على الملك لقب مزود أي المقدس. المعينيون شعب هود يعملون في التجارة مع مصر وبلاد الرافدين واليونان، اعتمد اقتصادهم على الزراعة وتصدير اللبان، التوابل، والأسلحة، ظهرت مملكة معين في القرن العشرين قبل الميلاد وتضاربت الآراء حول فترة الظهور، ويعتقد أيضاً أن هذا كان في الألفين قبل الميلاد، وست مائة وألف قبل الميلاد.

حرارة الشمس تشوي الأكباد، والجفاف يشقق القلوب عطشا، وذلك الأزيز والصفير القادم من بين ما تبقى من الأشجار الحية تزيد غرابة المكان وكأنه لحن الأشباح المقدسة. من هنا عبر الأجداد وهناك سكنت حضاراتهم وفي باطن الأرض غاصت ذكرياتهم. حبشوش يتعمق في التاريخ كل يوم أكثر من ذي قبل، يتأمل بشوق محب للمعرفة والفخر بالتاريخ من جهة، ومن جهة للبحث عن مصدر رزقه بنسخ سطور قاومت قساوة السنين. اشتدت ضربات خيوط الشمس القاتلة ولم يعد قادرا على التحمل، يسحب جسده الهزيل، الذي زاد هزالا بذوبانه تحت تأثير أشعتها، نحو أقرب ظل ليحتمي قليلا حتى تخفف جنونها. أوصلته

قدماه إلى أقرب ظل في وسط أعمدة مسقوفة وعليها نقوش قديمة (معبد عُثتر)، لا يرتدي سوى ما يستر عورته إلى لركبتيه، استلقى بجسده وانحنى به قدر الظل وغط في نوم عميق. وبينما هو في عالم النوم، شق صوت عالم صمته ليهز ما تبقى له من حياة، فتح عينيه مفزوعا. لا يرى سوى فم مفتوح وجسد يرتعش على وشك الانقضاض عليه، صرخ هو أيضا. انسحب بسرعه خاطفة من بين يدي المهاجم للنجاة من الموت، سحب خنجره وتهيأ للقتال وهو يصرخ بما يمتلك من طاقة "من تكون أيها الشيطان؟". عكس ما توقع، تحول المهاجم إلى كائن منهك القوى وجثى على ركبتيه وتدلى رأسه نحو الأرض وقال بصوت منكسر:

- لست شيطانا، إني من خيار الناس.
- وما الذي سلب عقلك؟

لم يرد عليه ونظرت عيناه نحو الأرض، يداه ترتعشان. أدرك حبشوش أن الرجل إما مجنون أو أنه مفزوع. أعاد خنجره إلى مكانه واكتفى بمسك عصاه واقترب من الرجل وقال:

- لمَ أنت مفزوع؟ إني لمن الطيبين.
- أفزعني شعرك الكثيف على رأسك وجسدك، وصُورت لي بهيئة عفريت. لأن العفاريت ذات شعر أشعث وتسكن الخرائب.

- وما الذي أتى بك إلى منازل العفاريت؟
- أتيت أبحث عن رزقي، عسى الله يفتحها عليّ.
- وأنا مثلك والله أبحث عن رزقي. لنكن رفيقين.

رفع الرجل رأسه ليستقيم وقد تبدد خوفه قليلا وانخفضت رعشته وقال:

- حسناً.

قضيا وقتا معا بالقصص والبحث عن أي شيء من المعادن. وبينما حبشوش خارج من الموقع الأثري، وقد نال منه العطش، واصل مسيرته بمشقة عالية وعيناه تتصفحان ما حوله لتستقرا هناك في البعيد على راعية أغنام. مشى باتجاهها، شاهدته وتراجعت إلى الخلف والمسافة بينهما طويله، يسرع الخطى رغم هلاكه عطشا، فتعود هي إلى الخلف خوفا. لم يعد قادراً على هذا النزال الشاق تحت رحمة الشمس، فصاح بصوته ليسمعها:

- لمَ تهربين مني؟

فردت عليه بصوت عال:

- لا تقترب مني يا عفريت.
- لست عفريتاً، أنا من خيار الناس.
- ولمَ تلحق بي؟
- أريد ماء وهذا مقصدي.

توقفت، اقترب منها أكثر فأكثر، فصرخت برعب:

- لا تقترب، توقف يا عفريت.
- قلت لكِ إني من خيار الناس، ألا تفرقين بين العفريت والإنسان؟!
- إن كنت من البشر، لمَ كل جسدك مغطى بالشعر؟!

ولأن ملبسه ما يلف به عورته من السرة إلى الركبة، فشعر حبشوش يرعب الناظر. ظهره كثيف الشعر، وصدره أسود من الشعر. وزيادة على ذلك، رأسه أشعث ولحيته وزنانيره. رد عليها بلطف:

- استغفر الله الذي خلقني هكذا لست من العفاريت ولا من الجن. وإني من خيار العرب.

كررت عليه السؤال عمّا يريد ومازالت نوبات الفزع تهاجمها، فرد عليها بأنه يريد الماء، فقالت له:

- الماء هناك حيث الغنم، واشرب وابتعد عني.

***

أنهي حبشوش عمله وعاد إلى يزيد في (حزم همدان_الجوف الوسطى) وأخبره بما وجد هناك في معين وإذا بيزيد يشكك في ما قاله دليله، كونه

على علم مسبق بما تحتويه المنطقة من نقوش وصخور. فقال له حبشوش بعتب:

- ولِمَ لا أقول الحقيقة يا معلمي؟ بيني وبينك عهد ولا مبرر لأي مبالغة مني.
- ربما أنك لم تحسن الوصف وتشابهت عليك المواقع وأشكالها ووصفاتها.

مضى حبشوش حزينا إلى الخارج وهو يقول في صدره: "لماذا يعاملني هكذا؟ ما مبرر أن أكذب عليه بما رأيت؟"

وضع يزيد النسخ الجديد جانبا في دار مضيفه ولم يستطع صبرا وهو يفكر ويفكر حتى أمسك باليهودي جانبا وقال له:

- سأعطيك أجرك مضاعفاً إن عرفت المنطقة التي كان فيها حبشوش في معين وسأتخذك دليلا بأجرته إلى هناك؟
- الأمر بسيط، نذهب الآن إلى معين. ومن هناك، سأقتفي أثر قدميه.
- وكيف ذلك؟
- نحن أبناء الجوف نعرف الذاهب والعائد باقتفاء أثر الأقدام ونتبعها.
- رائع.

وبينما حبشوش في زاوية منزل اليهودي (هارون الصعدي) غارقا في حزنه، كان يزيد بطريقه ليتحقق بنفسه مما وصفه دليله. ما أزعج حبشوش هو أنه يخلص لمعلمه ولا يجود له معلمه مما يعلم، لم يف معه بعهد قطعه بتعليمه الكتابة اليمنية القديمة، لم يشكره ولا مرة، لم يمتدح له مجهوداً. تحقق يزيد من صحة النقوش بعد أن أوصله اليهودي إلى معين ومرّ به على عدة مواقع زارها حبشوش. وجد أن ما قاله حبشوش حقيقة ولا خلل في ذلك، فقال في نفسه "إنه يحسن الوصف برغم هوسه". وجد حبشوش نفسه في مأزق عدم الثقة وربما هو مقصر في أدائه، فقرر الخروج من فوره إلى (خربة البيضاء)، أمسك بمعصم هارون وقاله له:

- إن لي حاجة عندك، وما أظن أنك تردني خائباً.
- أبشر، وعلى عيني.
- رافقني لخربة البيضاء.
- أرافقك لآخر الدنيا إن كنت تريد.
- مالي ومال آخر الدنيا وشطحاتك، فقط خربة البيضاء.

توجها فورا إلى ذلك المكان البعيد، ووجداً نقوش نسخها. وفي طريق العودة اشتد عليهما الجوع ولم يرى هارون حرجا في جز عشب أخضر مر يسمى في تلك المنطقة قضب (وهو من فصيلة البرسيم) وتناوله كأنه

فرس. عفت نفس حبشوش ذلك ورفض أكل العشب وقفلا عائدين إلى منزل هارون واتضح لحبشوش أن هارون شديد الفقر حيث لا يمكن لواصف وصفه، وله مدخر بسيط لترميم سطح مطبخ داره ريال ونصف ومع ذلك أقرض القبيلي نصف ريال. ومن ثم قرر أن لا يكون ضيفاً ثقيلاً على هارون وقصد منزل عاقل اليهود في الغيل الذي أفصح له أن هارون خلع الخاتمين من يد زوجته وقدمها ضمن جمع الصدقة لحبشوش ومعلمه.

تأثر حبشوش وقال معاتبا:

- ولماذا أخذت منه الخاتمين وأنت تعلم أنه فيه من الفقر ما يوزع على قرى بأكملها؟
- إن لم آخذهما منه، كانت حجة عليّ أمام إخواننا بأني أمنع عليه الشرف. وهذا من أعرافنا وشرعنا في إكرام الضيف غنياً وفقيراً.
- أنا ومعلمي لسنا بحاجة إلى أن نأخذ من الفقير آخر ما يملك. نحن نأخذ ما يكفينا في رحلتنا من منطقة لأخرى وليس القصد التربح والتكسب.

في اليوم التالي ذهب حبشوش إلى هارون وأعاد إليه الخاتمين، وعطاه أجرة مرافقته إلى خربة البيضاء دون إذن يزيد.

***

براقش عرفت المسندية باسم (يثل) وهي العاصمة الدينية لمملكة معين. عصرها الذهبي كان في القرن الرابع قبل الميلاد عندما اتخذها المعينيون عاصمة سياسية لهم وبقيت يثل العاصمة الدينية للمملكة بعد تغير العاصمة السياسية إلى قرناو.

أيام اختفى فيها حبشوش ثم عاد إلى (حزم همدان) منزل تاجر المجوهرات اليهودي وقد أضناه التعب والإرهاق والخوف بعد رحلة دامت خمسة أيام في براقش. يبيت طوال الأيام في خيام البدو. لم تخلو أوقاته من المصادفات التي أرعبته أكثر من مرة. سأله تاجر المجوهرات ما دهاه حتى عاد مصفر الوجه ومشرد الذهن وأنه الآن في أمان. تلعثم أن لا شيء قد حدث، فقال له تاجر المجوهرات في حضور يزيد الذي لم يكترث لأمر دليله وحالته التي تظهر للعيان كم هو مصدوم:

- قل لي! ما حصل معك؟ واني لك صاحب ورفيق وأخ في الدين.

أجاب بتردد:

- لا شيء سوى وعثاء السفر.
- إني أقرأ من وجهك غير ذلك، إني لك ناصح. والله أني أراك أنت والحاخام هذا مثل أبي. (وأشار بيده نحو يزيد).

- حسنا. إسقني الماء أولا.

نهض تاجر المجوهرات وطلب من زوجته تحضير العشاء وأحضر الماء.

شرب حبشوش حتى ارتوى وحكى قصته:

- وصلت إلى (براقش) وبحثت عن مرادي، فوجدت مقبرة عرب وبجوارها مقبرة اليهود وعمرها ٤٠٠ سنة. ومع الزمن، أخذت الرياح والأمطار التربة وتكدست العظام، بقيت هناك أتأملها وأسأل نفسي أين منهما عظام السيد وعظام العبد وما الفرق بين عظام الملك وعظام الخادم. كانت لحظة تأمل الدنيا وأنا أرى بقايا السابقين وفاضت عيناي من الدموع. وذهبت بعد ذلك إلى الخرابة، بحثت عن مقصدي ونسخت ما هو موجود. في اليوم الثالث، ذهبت لخربة (هرم) وبينما أنا أكمل السطور الأخيرة في بير المسجد، جاء وقت صلاة الظهر، فخرجت لأبقى بعيدا حتى يخرجوا من المسجد. دخل السلطان (بن قملا) سلطان الجوف يرافقه خمسة عساكر وهو متقلد سيفه، خرج من الصلاة وإذا بعبد يصوب البندقية من خلفه ويطلق النار عليه، استدار السلطان وسحب سيفه من غمده وتقدم خطوات وسقط، لاذ العبد بالفرار، ضجت المنطقة بصياح الرجال والنساء والأطفال، وراحوا

يبحثون عن القاتل. تحصن العبد مع أصحابه خارج القرية وتبادلوا إطلاق النار حتى نزل أهل (جبل خب) وأطفوا نار الفتنة. وانتهت هذه القصة.

سأله يزيد:

- وما مصير العبد؟ لا اعتقد أن القبائل بعنفها تتساهل مع عبد يقتل سلطاناً.

أجاب حبشوش على سؤال معلمه:

- ليس على العبد ما يمكن تحمله مثل ما على سيده. فبشرع قبائل ذو حسين وهمدان والجوف وأشراف الجوف عادتهم إذا قتل العبد أو المرأة أو الولد أو القراري أو اليهودي فلا قصاص عليه إلا من أهله أو أصحابه. وإذا قتل قبيلي ما ذكرت، فالحجة كبيرة. حتى في حروبهم إذا غُلب أحدهم وتقدمت النساء والأطفال فعيب كبير أن يستمر القتال ولا يقاتلون حتى وإن كان لهم الحق أو الباطل. وقد سبق لي وأن سمعت نساء البدويات عندما يربين أولادهن ويدعين لهم (جعلك الله قتيل ولا يميتك موت الدواب) وإذا مات موتة طبيعية فصياح الرثاء (ليته اغتسل بالدم ولا مات موت النساء).

سأل يزيد باستغراب:

- لا يطبق القصاص على اليهودي القاتل ويطبق على أصحابه؟ ماذا تقصد بذلك؟

أجاب تاجر المجوهرات اليهودي:

- لأن اليهودي لا يتساوى مع القبيلي بهذه الحالة ويشعرون بالعار أن يجرؤ يهودي ويقتل قبيلياً وأن دم القبيلي أغلى. فالقصاص من صاحب أو جار اليهودي.

سأل يزيد مجددا:

- وإذا كان المقتول يهودياً؟

أجاب تاجر المجوهرات:

- تلك أعراف، وقد يرجع السبب أن اليهودي لا يحمل السلاح وهو في حماية جاره القبيلي الذي يحمل السلاح. ومن غير المقبول بتاتا أن يقتل يهودي لسبب أو بدون سبب لأن العار يطال القبيلة بين القبائل ولا تمحوه السنوات. ذات مرة، خرج أربع يهود من إخواننا إلى صنعاء وعند عودتهم أسفل الجبل في طريق الجوف، ذهبوا لجلب الماء. في اليوم التالي، وجدهم البدو موتى بداخل البئر. تداعت الأصوات (يا عيباه يهود مقاتيل في البئر بطريق راكض)

ومضت الكلمات تتناقل من قرية لأخرى ويكررها الناس إلى أن وصلت إلى هنا والمسافة بيننا وبينهم مسيرة يوم. فعرفنا أنهم إخواننا الذين ذهبوا إلى صنعاء. فعزم جيراننا الذهاب بالجمال إلى مكانهم، أحضروهم لنا لدفنهم وأحضروا حميرهم والبضائع عليها كي لا يقال قتل يهود. والذي عرفناه، أنا أخانا سقط في البئر، ولحق به الآخر لإنقاذه، ثم نزل للماء الثالث والرابع لإنقاذ أخوته وهم لا يعرفون السباحة فغرقوا جميعا وماتوا.

قال يزيد رداً على ما قاله تاجر المجوهرات:

- تلك حكايات لو قلتها لأصدقائي من العرب وغير العرب لما صدقني أحد.

قال حبشوش لمعلمه:

- هذه هي اليمن، شريعة القبيلة. في صنعاء يمرّ جاري النقيب ويقول لنا (كونوا عاقلين يا يهود، لا تدخلوا في صراع مع أحد كي لا أتحمل أنا الفتن، بيضوا وجهي أمام القبائل بأخلاقكم ومظهركم).

قال تاجر المجوهرات لحبشوش متسائلا:

- لا يمكن، للقصة التي حكيتها لنا هي التي خطفت عقلك وكدرت حياتك، وجعلتك تحدث نفسك. مم تخشى؟ وأنت تعرف أني لك صديق وسأنجيك ولو كان عليك ما كان بعون الله وعون جيراني.

أجاب حبشوش بتلعثم:

- والله ما أخشى إلا ميثاق الله وعهداً قطعته بكتم السر (للقراري).

أنتفض تاجر المجوهرات من مكانه حال سماعة بالقراري وقال بانفعال:

- ماذا يريد منك هذا الشيطان القبار، وبماذا غرر بك؟ إنه محتال.

كلام تاجر المجوهرات فتح ملف السر ونقض العهد بينهما ليكشف حبشوش ما حصل:

- بعدما قتل السلطان (بن قملا)، استدعاني رجل قراري إلى بيته وكان لطيفا معي وقدم لي الطعام، أكلنا وسولفنا. فقال لي: (معي لك سر ياذا اليهودي، والسر على الله)، فقلت له تكلم بالسر ولا تخشى فأنا من أهل السر. فقال: لا أقول لك إلا بعهد الله ألا تفشي السر فيذهب رزقي وتقتلني القبائل بسببك. وعدته بذلك. فقال: أعلم أني القبار في هذه المنطقة، وعندم أحفر القبور أجد ألواحاً نحاسية وتماثيل وأدفنها في المقبرة كي لا تراها القبائل ويأخذها وأخسر أنا رزقي. أريد منك أن تأخذها من المقبرة وتبيعها

وتعطيني نصيبي وتأخذ نصيبك. غدا نلتقي وأنا أريك القبر وبيني وبينك الله ألا تبوح لأحد بهذا. فمضيت إلى هنا وأنا حائر ومرعوب من رزق المقابر ولم أقرر بعد هل أمضي معه أو لا.

استند تاجر المجوهرات ظهره وأخذ نفساً وقال:

- الحمد لله الذي جعل قلوبنا كالمرآة لكي أنبهك بما أخبرتني، وألف بين قلوبنا وأنبت فيها المودة والرحمة لبعضنا البعض. هذا القبار من قبائل (حام بن نوح) ولا يعرف الرحمة مثل جده حام. هذا القبار يريد أن يأخذ رأس السلطان من المقبرة ويسلمه بمقابل مادي للقتلة الذين أرسلوا العبد ليفتخروا برأس السلطان أمام أهل المقتول. وكان ينوي أن يأخذك إلى المقبرة لتنبش قبر السلطان ويذهب إلى أهل السلطان ويقول لهم إن هناك من ينبش قبر سلطانكم وهو من أخذ الرأس ولابد أنه سيأخذ الجثة لغرمائكم. يحضرون ويجدونك تنبش القبر فيطلقون عليك الرصاص ويقتلونك.

شعر حبشوش بموجة ساخنة تستقر في قلبه ورجة في جلده، فقال:

- الحمد لله الذي جعلني أكشف لك ما في قلبي. سأذهب إلى أولاد السلطان وأخبرهم بخديعة القراري.

فقال له محذرا:

- إذا نجوت من شر القراري فلن تنجو من شرور القتلة. أنت غريب، وفي هذه البلاد يستنكرون وجود الغريب. ولولا أنك مدعي أنك من (آل شرارة)، لكانوا أخذوك عبد أو قتلوك دون سبب. (آل شرارة، يهود من منطقة نهم، وهم في حماية جيرانهم قبائل نهم الأشداء. وبما أن هناك عصابات متمردة في الجوف، فإن الخوف من قبائل نهم والانتقام لجيرانهم يؤخذان في الحسبان).

***

طرق سريع على الباب، بدا لهم الأمر مرعبا بعض الشيء، خاصة وأن مالك الدار تاجر المجوهرات اليهودي (سالم بن سعيد) يخشى ألحاق الأذى بضيوف لأن أحدهما ليس يمنياً ومن السهل ظلمه وإلصاق أي تهمة مبتكرة به. ارتعدت فرائصهم جميعا، أطل مالك الدار من النافذة وقال بصوت متثاقل: من الطارق على باب يهودي في أمان الله وتحت حماية جاره القبيلي الشهم؟

جاءه الصوت من الخارج:

- إفتح الباب. أنا قبيلي لي من ضيفك غرض.

هنا انهار الجميع رعبا وارتعدوا خاصة يزيداً، فأي غرض لقبيلي منه. ذلك يعني مصيبة تلوح في الأفق. تراجع مالك الدار قليلا من أمام النافذة ووزع نظراته على حبشوش ويزيد وقد اسودت وجوههم جميعا. تقدم حبشوش من النافذة وأطل منها وقال:

- ما قصدك يالقبيلي من يهود لا مشاكل لهم مع أحد؟ إن كان لك مطلب، فجارنا هو مُحكمنا وعاقلنا.

جاء الصوت من الخارج:

- مالي مقصد غير الحديث لضيفك اليهودي.
- ومالك والضيف؟ ألا تعلم بنخوة العرب بتبجيل واحترام الضيف. وأن أكبر جريمة اعتراض الضيف. وهذا بقيم قبائل اليمن من شرقها لغربها. (هكذا رد حبشوش)
- بالله عليك، افتح الباب، ونجني من هذه المصيبة. سمعت أن ضيفك حكيم. وبعون الله، ينجيني مما أنا فيه.

أدركوا أن الطارق في ضائقة. فتحوا له الباب. دخل وسلم عليهم ثم جلس إلى جانب أبريق القهوة وصب لنفسه كأساً ليشعرهم بأن بينهم ما يدعى عن العرب (عيش وملح)، شرب قليلا ثم قال:

- النقيب قحطان بن شاجع ابن عمي، وحكم عليّ بالموت. السبب معركة نشبت بيني وبين أخيه وعلى إثرها، أصيب بطعنة في يده اليمنى. أقسم النقيب أنه لقاتلي. الآن أنا هارب منذ شهرين زبين الوجه عند نقيب خولان (زبين الوجه هو من استنجد واستجار بشخص أو جماعة خوفا من شر يحدق به ويحمل صفة النكير من معتدي طاغ) وإذا بي بلا حلال (الغنم) ولا أرض وأهل وقدنا نادم لأني كنت غلطاناً من البداية وقد نصحني الكثير وراجعوا تهوري. والآن، أنا أجنح للسلم. أرسلت وسيط قبيلي ورفض النقيب قحطان بن شاجع لأنه أقسم. سمعت من دليل رحلتكم البدوي أنكم ضيوف في بيت سالم بن سعيد اليهودي وأن حبشوش حكيم وطليق اللسان وحاخام، فتبادر لذهني بأنه في أعراف القبائل لا يرد لليهودي طلب أو مقصد أو وصول بقصد الحل عند القبائل ولو كان الجرم ما كان، خاصة لو أن اليهودي المصلح هو حاخام. ولن يرفض قدومه لأن العرب تجعل من القبيلي مُعاب إن رفض وساطة الحاخام.

امتشق حبشوش وشعر بالفخر وكأنه وجد الفرصة ليظهر بمهاراته أمام يزيد:

- وصلت يا ذا القبيلي، وأنا حاييم بن يحيى بن سالم الفُتيحي (حبشوش). أنا منجيك بأذن الله وما تذهب من عندي خائباً.
- وأمرك مطاع يا حبشوش.
- ولا لي مطلب منك مقابل الصلح، فقط كبش نذبحه عند باب النقيب وصلة (الوصلة في العرف هي ذبح كبش أو ثور بصدد إحراج من يطُلب منه الصلح)
- تم يا الأصيل...

ذهب الرجل لجلب الكبش، وبقى يزيد يطالع حبشوش منتظراً فرصة الاختلاء به وقول ما عنده.

قضى يزيد من الوقت وكأنه يجلس على الجمر حتى نفد صبره وقال لحبشوش:

- لنخرج ونمش ولنر أحوال اليهود والقبائل.
- على عيني.

خرجا ومرا على المحيط من بيوت لليهود والقبائل وحلقات اللعب لأطفال اليهود والقبائل مع بعض، باستثناء الأطفال الإناث اليهوديات، فذلك محرم أن يلعبن مع الأطفال أكانوا قبائل أو يهوداً. تتعالى أصوات المرح بينهم ويركضون كلٌ في اتجاه بحثا عن المختبئ. واصل يزيد

وحبشوش مشيهما حتى وقف يزيد في مكان خال من الناس وأطلق صرخته في وجه حبشوش:

- أحمق، وغبي. أنت من سيقضي علينا في هذه البلاد.

استغرب حبشوش هذا الهجوم وسأل:

- ما دهاك يا معلمي، لم أخطئ.
- اتدعي الحذاقة وأنت كومة غباء؟! ما دخلنا بالصلح بين المسلمين؟ أتوا يقبضوا علينا ويقتلوننا ونحن غرباء ويهود.
- ولمَ كل هذا الحنق والغضب؟ أنا ابن البلد وأدرى بقوانين وأعراف قبائلها. ولست طفلا حتى أخطئ. إنه من عظيم الأمور أن يصلح اليهودي بين خصمين من القبائل. أنت لا تدري مدى الاحترام والفخر بذلك بين القبائل والعرب وقت الصلح. لو قام بذلك جني، فما بالك بيهودي.
- ما دمت معك فلا تتدخل بهذه الأمور.
- لا يمكن لأي شيء أن يلغي جذوري وعاداتي وتقاليدي. فأنا ابن البلد ولي منها نصيب بالنخوة والقبيلة مهما كانت ديانتي وأموت على ذلك. القبيلي قصدني، والقصد بالعرف اليمني مسؤولية لا

يردها إلا الموت ولا مكان للتردد. فأنا بعون الله المصلح بينهما وستتناقل العرب ذلك.

- إفهمني ياحبشوش. نحن في مهمة ولا دخل لنا بهؤلاء القوم، إنهم سيئون.
- لا تفهمهم من منظورك لأنك غريب. أنا أفهمهم من منظور الجذور المشتركة قبل الدين.
- أنت تفضلهم على دينك؟
- لا ترميني يا معلمي بهذه التهمة الباطلة. لكني أعرف ما أنا مقدم عليه وأتحمل المسؤولية وستجد النتيجة غدا واضحة وستسهل رحلتنا ومقصدنا.

سجال شديد بين الانتماء للواقع والتراب وبين الانتماء للبحث والنسخ والدراسة المعرفية العابرة بقصد بحث أكاديمي ما. لا يمكن لحبشوش التراجع عن التوسط والحل بين القبيلي وغريمه. فقد مسح بأصبع السبابة على خده بأن يكون طرف في الوساطة، ومسح الخد بالسبابة في العرف اليمني أشد وثيقة قبلية ووعد لا يخلف وهي تعتبر بمثابة صك موثق.

في اليوم التالي صباحا وتحت أهازيج غناء الفلاحين القادمة من بين الحقول، يعبر حبشوش لوحده الحقول باتجاه القرية المجاورة ويجر خلفه

كبشاً وقد استلف ملابس السبت من صديقة سالم بن سعيد اليهودي. وصل إلى القرية. وحسب الوصف، تقدم نحو بيت الشيخ وبادر بذبح الكبش أمام بابه. في اليمن، لا يذبح الحيون غير الجزار وغير مقبول لغيره القيام بذلك وتلك عنصرية تاريخية حيث يتولى الذبح الجزار للقبائل حصراً، ولليهود الحاخام في طقوس دينية. وحسب الطقوس اليهودية ذبح حبشوش الكبش، خرج الشيخ مبهوتا وهو يقول:

- عزك الله ياذا اليهودي. مطلبك، والمال مالك والحلال حلالك والرجال رجالك.

عرف أن حبشوش يهودي من زنانير الشعر المتدلية في جانبي الوجه. فرد عليه حبشوش:

- عز الله أنك قبيلي وشيخ أبن شيخ وأن جدك من أنقى أصول العرب وأني يهودي وأنتم تقدرون اليهود ووصولهم إليكم. ويشهد الله أن جلد ظهورنا من جلودكم، وإني لقادم إليك بمطلب القبيلة والأصالة.
- قول ما عندك ياذا اليهودي عز الله أصلك. ويشهد الله لو عليك الدم لأني منجيك.

- وهذا العشم فيك ياذا الأصيل. مطلبي الصفح عن أبن عمك حميش بن شاجع فأنا الوسيط وأنا الواصل إليك بعرف وشرع العرب القبائل واليهود.
- يشهد الله ويسمع القاصي والداني أني عفيت عنه لوصلت اليهودي إلى باب بيتي، وإنك اليوم ضيفي.
- عليت ثم عليت ياذا القبيلي، وإني لملبي ضيفتك وكرمك وشهامتك.

أدخل الشيخ حبشوش إلى الديوان وأمر بوليمة الغداء على شرفه والصلح حسب العرف القبلي. وأمر أحد رجاله بإبلاغ الخصم بالصلح ودعوته لضيافة على شرف المصلح وعفى الله عما سلف. حبشوش بقلبه شيء من يزيد وأراد أثبات مهاراته وتعريف يزيد بالعرف القبلي اليمني أكثر وها هي الفرص، فقال للشيخ:

- يا شيخ! باقي لي دعوى.
- سم، وأنا ملبي دعواك.
- لي ضيف مقدسي يهودي، جاء لليمن يبحث عن رزقة لأن القدس تمر بزمن القحط والجوع. وهو رفيقي وهو الآن في بيت سالم بن

سعيد اليهودي بالقرية المجاورة. وليست من اليمني بشيء أني ضيف وهو ضيفي ومتباعدين.

- يشهد الله أنك أصلي ياذا اليهودي.

نادى الشيخ أحد اتباعه وأمره بإحضار يزيد اليهودي فورا وأبلغه أين يجده. وأمر أيضا الشيخ بعزومة أعيان القرية ليكونوا شاهدين وناقلين العفو، والأهم من ذلك تناقل أن الشيخ لم يرد اليهودي الوسيط خائباً من باب بيته. من العار أن يرد اليهودي خائب عند الوساطة، ومن يرفض وساطة اليهودي ينال من الذم والعار القبلي ما يأكل الوجه. لذا، الفتن المستعصية يتم أحيانا الاستعانة بحكماء اليهود من الحاخامات للتوسط بها سواء عند الشيخ أو عند الحاكم والعكس أيضاً.

طرقات الباب أفزعت يزيد، وجد جسده واقفا في الجهة المقابلة وقد انتابه الرعب والتوتر وهو يسمع (ياليهودي المقدسي). فتح مالك الدار الباب وبادره القبيلي بطلب اليهودي المقدسي للحضور لدى الشيخ في الحال. سأله أذا كان هناك شيئاً ما، أجاب بأنه لا يعلم وأنه مكلف بإحضار المقدسي في الحال. اصطحب يزيد معه. طوال الطريق ويزيد يكيل الشتائم لحبشوش الذي وضعه في هذا المأزق وقد شك أنه مطلوب للشيخ ولا خير من ذلك. يزيد لا يثق بأي من أبناء الشرق عموما فكله هواجس وشكوك

منهم. وحين وصل القرية وهناك من كان في استقباله على مشارفها وباحترام يليق بالضيف، تبددت مخاوفه وتذكر كلام حبشوش أن الصلح يصنع الاحترام الشديد ويتفاخر بذلك العرب. اليوم مميز. وليمة مميزة. وبعد الغداء، احتسوا القهوة وكان لحبشوش نصيب من النارجيلة العربية (المداعة) وأغصان القات. قفلا عائدين إلى القرية المجاورة وكان لحبشوش الافتخار بنفسه أمام يزيد وقال له متفاخرا (أنا لي احترام عند القبائل واليهود معا).

***

الرحلة إلى نجران،،،

عزما على السفر، وارتحلا إلى (الحزم) بصحبة قبيلي وأمسوا ضيوفا في بيته. واليوم التالي، أوصلهما إلى بيت اليهودي (سعيد بن يحيى هوه) وبمعية يهودي آخر أحضر لهم دليلاً بدوياً ليصحبهما إلى نجران وكاتب ذلك بشهود عند سلطان البدوي ليلتزم بأمنهما. لم يكمل معهما البدوي الرحلة فقد تركهما عند قبائل بني حسين. وهناك، استأجر بدوياً آخر وكاتبوه وشهدوا عليه بإيصالهما سالمين إلى نجران بخط قاضي سيد من صنعاء (السيد هو من آل البيت) بدا هذا البدوي صافي النية، فاستأنس به

حبشوش وأضحيا صديقين. دخلوا الصحراء، وبدأ السكون. مازالت طاقاتهم عالية وغلب عليهم الحكايات والأقاويل، فقال يزيد متسائلا وفيه قليل من الضحك:

- نصف يهود اليمن إسمهم سالم، ونصف المسلمين في اليمن إسمهم سالم. من هو سالم الذي تزاحمتم للتسمية باسمه؟

ضحك البدوي وقال:

- أنا اسمي سالم، وأبي سالم. ابن أخي اسمه سالم وجدي الرابع سالم...

قال حبشوش مفندا:

- أعتقد أن الأمر مرتبط بوولي صالح.

قال يزيد:

- لم أجد أغرب منكم اليمنيين. تتبركون يهوداً ومسلمين بقبر واحد.

فقال حبشوش متسائلا:

- أتقصد قبر الشبزي رحمه الله؟

- نعم، وجدت مسلمين ويهوداً يتبركون بقبر المعلم الشبزي في تعز.

ضحكوا وقال البدوي:

- الصالح أيا كان فهو صالح. والأنبياء كلهم من عند الله. وجميعنا نعبد الله.

واستمر الضحك والكلام لحكايات حتى ملوا من الكلام. وراح البدوي يشجو بأغان بدوية تستخدم عند السفر لقتل الوقت وشحذ الهمة، لم يفهم منها يزيد شيئاً. أما حبشوش، فقد بدا له الأمر قاتلا للوقت. بينهم وبين أقرب منطقة مأهولة بالسكان مسيرة يومين ونصف ولم يعد لديهم أي تموين غذائي في عمق الصحراء. وبما أن الجمعة ستبدأ من منتصف هذا الليل، فقد يخسران سبتهما في هذا المكان الشاسع. هذا ما جعل حبشوش أكثر قلقا فعبر عنه للبدوي:

- ألم تلتزم بإيصالنا إلى أقرب منطقة سكنية قبل السبت؟ الآن لا دقيق ولا ماء لدينا، كيف سنسبت؟

أجاب بصفاء النية، وأصبعه يلامس أنفه:

- على أنفي، وأنا سأسبت معكم هنا. ولا تقلقا على الزاد.

تعجب حبشوش وسأله:

- كيف لا نقلق ونحن في قلب الصحراء لا شجر ولا ماء وليس لديك غير الرمال؟

ربت البدوي على كتف حبشوش وقال:

- إنزل رفيقك من على الجمل ليستريح، وأنت أشعل النار وحالا سآتي بالطعام.

برك الجمل وأنزل يزيد، لا يبصر شيء في قلب الليل وبدأ في قرع النار على الرمال بـــ (حجر السملوك والبارود) وحالما توهجت النار وقد تأخر البدوي، فرقها حبشوش ووضع ما تبقى من العجين كخبزتين بين الرمال الساخنة لتنضج. أقبل فجأة البدوي وهو ينادي معترضا:

- لمَ أطفأت النار؟
- لأنك تأخرت.

اقترب وإذا به قد اصطاد ثلاثة ضباء وسلخ جلدها وأشكها بعصاه. أشعل حبشوش النار مجدداً، فشواها البدوي وآكل حتى شبع، وحبشوش ويزيد يتفرجان ولم يقويا على الأكل معه. فقال له حبشوش معاتبا:

- لمَ ترمينا هنا ولا ناس ولا حياة. إن كان على الأكل، فأنت أكلت هذا الحيوان الغريب، وماذا عن الماء؟

أجاب البدوي وهو يبتلع لحم الضب:

- الجمل.
- بالله عليك سر بنا إلى أقرب مكان فيه ناس، وإلا تركتني هنا أموت.

- ما عاذ الله أتركك تموت وأنا حي.
- إذا، إمضي بنا إلى أقرب منطقة مأهولة وسأزيدك على أجرك نصف ريال.

أنتفض من مكانه وطلب من يزيد أن يركب الجمل ووجهه باتجاه، وسار بهم ليلا. الرحلة تخللها لحظات جوع وعطش اشتدت مع مطلع الشمس في اليوم التالي. وعند الظهير، خارت قوى حبشوش لينهار أرضا في صراع مع الموت. ناداه البدوي أكثر من مرة وإذا به نصف ميت. أخذ البدوي عصاه وضرب حبشوش أكثر من مرة بقوة حتى استفاق من الإغماء وحمله إلى ظهر الجمل إلى جانب يزيد وواصل به المسير. فتح حبشوش نصف عينيه ليرى يزيد متماسكا، وسأله بهزيمة:

- أنا أموت، وأنت صابر على الجوع والعطش ومتماسك، بالله أي أنسان أنت؟!
- هذا لأني لم أبذل مجهوداً مثلك في المشي، فأنا على ظهر الجمل. تحمل وسنصل سالمين.

في أشد المواقف وأحرجها هناك بصيص أمل. هكذا اشتد نظر حبشوش وهو يرى هناك بعيداً شيئاً يدل على الحياة. فرح كثيرا وأسرع البدوي باتجاه ذلك المكان يتبعه الجمل. وما إن اقتربوا أكثر فأكثر، حتى وجدوا عجوزاً،

سألوها عن مكان فيه بشر، أجابت بانكسار وتعب أنها ضلت الطريق منذ يومين وهي تبحث عن بدو ابنهم تزوج ابنتها حديثا. خيم الحزن مجددا وأخذوا العجوز معهم وواصلوا المسير حتى التقوا بثلاثة من البدو أكدوا لهم أنهم قريبون من مخيم بدو، فسلموا لهم العجوز لتمضي معهم. وبدورهم، شقوا طريقهم نحو أمل الحياة.

وعند العصر، بانت آمال الحياة مجدداً لحبشوش في البعيد، فقال للبدوي إنه يرى شيئاً هناك، التفت البدوي وبشرهما أنهم على قرب من مطرح البدو. سعادة تدب في الأوصال كنسمات الحياة عند الغرق في أمواج الرمال. تقدموا نحو ذلك الاتجاه. وهناك، توافد عليهم البدو لأخذهم وسقيهم الماء والحليب وأطعموهم بترحيب حار وأكدوا لهم أنهم في أطراف وادي نجران وأن هناك يهوداً أيضا. استجمعوا قواهم وعزموا على المواصلة إلى وادي نجران.

***

قطع الليل تتساقط، لا شيء يدل على الأحياء في هذا المحيط. فالمخلوقات الضوئية أوت إلى مخادعها من بشر وحيوانات. ذلك الصفير وبكتيريا القدم ترعب المارين الجدد بين طيات الطرق الوعرة وبداية أولى للنخيل المعانقة

السماك، إنها نجران، حلم الوصول منذ أيام بين حبات الرمال الصحراوية.

وأخيرا، بانت للحياة أوراق خضراء، الخطوات المتعثرة تكابر وتستمر إلى أن وقفت أمام أول دار يهودي. طرق حبشوش الباب، فجاء الصوت من الداخل:

- من ذا الذي يطرق الباب؟

أجاب حبشوش:

- أخوك، إفتح الباب.

صمت مالك الدار ومضى وقتا ولم يفتح الباب. لم يستطيعوا النضال لمواصلة الوقوف، جلس يزيد والبدوي على الأرض وبقى حبشوش متعلقا بمزلاج الباب، تعب وانتظار. طرق الباب مجددا، فسأل صوت من الداخل مجددا:

- من ذا الذي يطرق الباب في ليلة السبت؟!

اختفى الصوت، ولنصف ساعة ولم يفتح الباب وحبشوش يسند ظهره إلى الباب على أمل فتحه. حرك البدوي رأسه ممتعضا من عدم الترحيب بهما وقال مقترحا:

- لو طرقتما باب قبيلي لكان رحب بكما وسعد لوجودكما في داره وأقام لكم السبت. لنذهب إلى دار قبيلي ونحن بكرامتنا.

أجاب حبشوش متخوفا:

- أنا لا معرفة لي في هذه المنطقة وإن رحب بي القبيلي هذا وارد وليس فيه حرج وهذه طباع القبائل. لكني أخاف على معلمي يزيد وواجب الحذر ولو من باب الحرص.
- وما الذي تقترحه؟ نذهب لدار يهودي آخر؟

صمت حبشوش ليفكر وقد أنتابه الغضب من تصرف اليهودي مالك الدار، وقف وأمسك بالمزلاج، واستخدم ما تبقى له من قوة في طرقه وإفراغ غضبه. لم يسمع سوى صرير الباب ليقف أمامه اليهودي المالك مصوبا سلاحاً حاداً نحو حبشوش. مد حبشوش قدمه ليدخل الدار وإذا به يمسكه من معصمه ويجره إلى أبعد من الباب في الخارج غير مرحب بهم. غضب حبشوش بشدة وقال بالعبرية:

- يا خبيث! جاء أخوك من بعيد لزيارتك والسؤال عن صحتك ومعرفة أحولك، ولم تهب لاستقبالنا ولم تدعنا للدخول إلى دارك. بل خرجت خارج الدار. لو لم يكن يوم سبت مقدس لطردناك من الطائفة. أنا باسم محكمة صنعاء والحاخام باسم حاخام أورشليم التي تتجه إليها أنظار إسرائيل.

فرد مرعوبا:

- إننا نخاف من غير اليهود. فهم لا يدعوننا ندخل الضيوف إلى ديارنا.

فرد عليه حبشوش معنفا:

- كذبت، غير اليهود سوف يرحبون بالضيوف ويطعمونهم ويسقونهم ويؤوونهم. أما أنت، فالعياذ بالله، لست من نسل إسرائيل.

فقال بمضض:

- مبارك بالذي أتى، مرحبا بالضيف.

أفسح الطريق ليدخلهم داره، فقال له حبشوش:

- اعمل معنا معروفاً، وخذ من أصدقائك أو جيرانك القبائل نصف ريال وسلمها لهذا البدوي. ولا تقلق. سأرجع لك النصف ريال عند خراجنا من السبت، فأنا ومعلمي لدينا ما يشغلنا.

هز رأسه موافقا بامتعاض أيضاً وقال:

- حسنا.

أدخلهما حيث يجلس أخوه الذي لا يختلف عنه وخرج لدقائق مع البدوي إلى صديقه القبيلي وأخذ منه نصف ريال، قفل البدوي عائدا إلى سبيل حاله وعاد اليهودي (مري مطرود) إلى ضيوفه غير المرحب بهم.

في داخل الدار، بدا حبشوش ممتعضا. لكن لا حل له في نظره سوى أن يكون هو ومعلمه ضيوفاً ثقالاً على (مري مطرود). قال له حبشوش بالعبرية وهو قاضم جبينه:

- نريد إقامة شعائر السبت. (أي الاغتسال بالماء لإكرام السبت).

هذا أسوأ استقبال لهما منذ انطلاق رحلتهما، أقاما صلواتهما بالرغم من الجوع والتعب، وعند العشاء قدم لهما ما تيسر. الكلام المفيد وتناقل الأخبار والأحوال معدومة في هذا الدار. لذا، طلب حبشوش بمكان للنوم. فقال له مري مطرود:

- حسنا، لكننا سنذهب فجرا للصلاة عند مري معيض.

أشرقت ابتسامة بين ثنايا حبشوش أشعت رغم غابة الشعر الكثيف على لحيته وسأله:

- ماذا قلت؟ مري معيض؟!

أجاب مؤكدا:

- نعم، مري معيض. إنه قريب منا. سنصل إليه عند الشروق.

- أحسن الله إليك. فقد أسعدتني بذلك.

***

في وادي نجران وهم في طريقهم إلى دار مري معيض، بدأت الشمس تنساب بلطافة كما ينساب الحرير على جسد أنثى. نسمات الوادي تعبر النخيل وتتلاقى مع طرب العصافير وبعض أنواع الطيور وخرير الماء.

أنظار يزيد تمشط المكان ويدون عقله كل ما تراه عيناه حتى يختلي بنفسه ويكتب ما شاهده. طال المسير قليلاً وقد تساقطت حرارة الشمس الأولى وبدأت تزيد من كثافتها تدريجيا رغم النسمة الصباحية الباردة. تعمقوا في الوادي، وحجبت أوراق الأشجار أشعة الشمس وبقيت خيوط لها تتسلل من بين الأوراق. فقال حبشوش متسائلا:

- لقد مضى وقت من سبتنا، أولست تحسب الوقت حتى نفقد من السبت ونتخطى حدود السبت.

فرد عليه مطمئناً بالعبرية:

- لا تقلق، لقد بدأت شعائر السبت.
- أحسنت بذلك. لنسرع الخطى.

أمامهم هناك، أربعة دور، نظرت إليهم خمس نساء وهن بزيهن المهيب، دخلن الدار الثاني، وأطلين من النوافذ. تشابهت على حبشوش مللهن، فوجه سؤال إلى مري مطرود:

- قبائليات هن؟

- يهوديات.
- يتشابهن في الملابس مع القبائليات؟
- نعم، هنا تلبس اليهوديات نفس ملابس القبائليات.

هز حبشوش رأسه مستحسنا. اقتربوا أكثر فأكثر من الدور وانحرف بهما مري مطرود نحو الدار الأول وإذا به المقصود. دلفوا إلى الدار، رحب الرجل الشيخ وزوجته بهم أشد ترحيب. أدوا صلاة الفجر، ومن ثم تناولوا وجبة الإفطار التقليدية الخاصة بأبناء نجران. وبعد القهوة والتمر، قرأوا شعائر أيام الأسبوع وأكملوا صلاتهم وعادوا لقراءة ما تيسر من كتاب المزهرة.

انتهوا من الشعائر وإذا بمري مطرود أراد العودة إلى بيته وأخذ حبشوش ويزيد معه. هو لا يريد ذلك إلا ليحسن من صورته السلبية التي رسمت في مخيلة الضيفين، فقال معيض مالك الدار:

- هم اليوم ضيوفي.

فرد مري مطرود باصطناع الكرم وقام وأمسك بمعصم حبشوش من جهة ومعصم يزيد من جهة:

- لا، هم ضيوفي من قبل وعيب عليّ تركهم.

حبشوش يقول في سره: "يا للغرابة، يصطنع النخوة وكأنه مصدق ما يقول".

نهض معيض من مجلسه بصعوبة لكبر سنه وتوجه نحو باب الغرفة ومد يديه على ساعدي الباب ليمنعهم من الخروج وقال:

- جميعكم ضيوفي ولن يخرج أحد من هنا. لدينا ضيفان واحد من صنعاء والآخر حاخام من القدس. لن تخرجوا. (أشار لأبنته سعيدة لتعد الطعام...)

***

لم يتوقف فم حبشوش عن الكلام، يطرح السؤال ويلقى إجابات مختصرة، حدثهم دون أن يسألوه عن أحوال صنعاء، وجد أن ذلك لم ينل اهتمام الرجل وزوجته وابنتيه. "خبرني عن أحوال نجران؟" سؤال وجهه حبشوش لمري معيض.

أجاب بنفس ضائقة:

- إخوانك يهود نجران رُبعان. (يقصد، جوير بالدارجة. بالمعنى القبلي، لا حق بالتملك) اليهود هنا لا يملكون لا بيوت ولا

أراضي ولا شيء في وادي نجران، لا هم ولا غيرهم وإن كانوا قبائل من خارج وجوار نجران وحتى أشراف الجوف.

سأل يزيد باستغراب وقد علت الدهشة عليه:

- وكيف تدبرون مساكنكم؟

بادر حبشوش مسرعا متكهننا بالإجابة:

- يدفعون إجار مساكنهم يا معلمي.

هز معيض رأسه يمنة ويسرة نافيا ومفندا:

- البيوت ملك القبائل ونسكن بها ولا ندفع إيجاراً، هكذا منذ القدم. إنهم شديدو الحرص والحذر. وإن اضطر أحدهم للبيع، فإن القريب له هو الذي يشتري. هكذا جرت العادة. ولا يضايقوننا ولا يطلبونا بإيجار أبدا، نعيش كأنها ملك لنا.

وجه يزيد له سؤالاً آخر:

- وإن تقدم يهودي يريد أن يسكن أو تزوج أحد اليهود هنا وأراد أن يسكن، ما العمل في هذه الحالة؟

- أي بيت غير مسكون يستأذن ويتخذه مسكنا، ولا يدفع إيجاراً لا هو ولا ذريته من بعده.

- وإن لم يجد بيتا شاغرا؟

- في هذه الحالة، يجتمع أبناء القبائل ويبنون داراً أو يشترون داراً.

التفتت زوجة معيض نحو ابنتيها وقالت "إلينا بالغداء، فالضيوف جائعون".

دقائق والغداء على المائدة أرضا والجميع من حولها، وصبت على اللحم ما يشبه السمن. اشتد استغراب حبشوش وقال متسائلا ومفزوعا:

- ما هذا؟ أوليس تعلمون أن الشريعة تحرم اللحم والسمن؟

أجابت الزوجة موضحة:

- أعوذ بالله. هذا ودك وليس سمنا ولا شحما. (الودك بقايا طاسة طبخ السمن)

***

اشتهر بعض يهود اليمن بالفطانة والنباهة على عكس رغباتهم في الفتن التي تكاد تكون معدومة وهمهم في سائر حياتهم التدين والبحث عن الرزق بالأعمال اليدوية والمهنية. لذا، سادت الألفة بينهم وبين جيرانهم في شتى بقاع اليمن وكثيرا ما يعتمد عليهم في مهنهم. وصار من المألوف إطلاق صفة يهودي على القبيلي (المسلم) من قبل القبيلي حال إنجازه عملا ما بإتقان أو تنبه لشيء ما بدقة أو أبدى حرصا على ماله، فيقال له (أنت

يهودي) وذلك من باب التشبيه بما اشتهر به جيرانهم اليهود. تطور أيضا التشبيه إلى صفة لمن يتلاعب بالكلام بشكل سياسي ودهاء فيقال له (بطل يهودة). حبشوش مشهور في حارته بصنعاء بأنه داهية وليس بالإنسان السهل. لذا، حاول أن يجر عائلة مري معيض إلى أحاديث شيقة، فوجد أن ذلك لم يخرجهم من حالة الشرود. رأس الزوجة نحو النافذة وعيناها معلقتان في أعلى قمة النخيل، وزوجها شارد تارة ويده على خده وتارة يتكلم ويتوقف دون رغبة. فقال حبشوش في نفسه "لابد وأنهم في ضائقة من أمرهم، ولابد لي أن أعرف ضائقتهم، وكم أجري عند الله إذا أخرجتهم مما هم فيه". أوجد حيلته في رأسه وتوقف عن الكلام معهم فجأة ووضع يده على خده وأغمض عينيه، وبدأ يتمتم بكلمات وتموج شفتاه بما لم يفهموه. نهض فجأة باتجاه النافذة وعاد لمكانه وكرر الحركة وكأنه يعد النجوم. لفت أنظارهم.

في الزاوية حيث مجلس يزيد، ينظر إليه وقال في سره بالفرنسية "هذا المهووس يدعي الشعوذة وعلم الغيب في حضرة إخوانه اليهود، إنه لخرق لشريعة".

زاد من حركاته المثيرة للسؤال، فبادرته العجوز بسؤالها له:

- ما الذي لك يا مري حبشوش؟! (مري أو الموري هو المعلم الحاخام رجل الدين والمسؤول عن الذبائح وفحصها. هو من يشرف على الشؤون الدينية ومدى تطابقها مع تعاليم التوراة، وتوصف لتبجيل والاحترام أيضاً) قلب مقلتي عينيه أكثر من مرة وأجابها:
- إني أحسب النجوم وأعرف الضمير.

أخذت نفسها العميق وزادت دقات قلبها وسألته:

- وما الذي عرفته بضرب حسابك هذا؟
- لقد عرفت نجومكم المنحوسة وأنتم في ضائقة شديدة. ولكن لا تقلقوا، فاليوم سبت ولا يمكن العمل ولا يجوز الحزن. إن شاء الله، عندما ينتهي سبتنا سنجد الحل، لا تخافوا.

قال يزيد في سره وقد التزم الصمت أمامهم "إنه عمل الشياطين، في السبت ويستخدم أساليب خبيثة". انفجرت عينا العجوز بالدموع وسالت جداولها بألم محرق، يسمع شهيقها وزفيرها. اندفعت سعيدة إلى أمام حبشوش دون غطاء وجهها لتسمع ما يقوله. (يهوديات اليمن أشد تدينا والتزاما بالأعراف التي هن جزء منها ومكون أساسي من تكويناتها).

رفعت الأم وجهها وأزاحت راحة يديها عنه، صوبت ناظريها في وجه حبشوش وهو واقف، وقالت بانكسار ورعب:

- كيف لا نخاف ونحن في مصيبة لا مثيل لها؟! هذه المصيبة قد حدثت لبنت خالة أمي. والحل كان قتلها وهذا شرعنا. وزوجي شيخ وعاجز عن ذبحها ودفنها بمفرده. وقد أرسلنا برسول إلى صعدة في طلب حضور أخوالها ليساعدونا في ذبحها ودفنها ونتخلص من هذا العار والعيب الذي نحن فيه. ونخلص من الجنين الحرام.

بهت حبشوش وصمت قليلا وراح يخاطب نفسه: "يا للمصيبة. هذا الشرع وسننه التي سنت لكم ذبحها". عاد ليقول للأم وابنتها مطمئناً:

- لابد وأن الله قد أخرجني من بيتي في صنعاء وأرسلني إلى هنا لأنجيها من هذه المصيبة وأخرج الجنين من بطنها دون أن يعلم أحد بما جرى معها، لا تحزنوا، وإني أنجيها بمعرفتي.

رمت سعيدة بنفسها بين قدمي حبشوش وتمسك بهما، أمطرت قدماه بقطرات الدموع وهي تقول متوسلة:

- جارك يا موري، إني أخطأت، وقبلت بهذا الحكم، ولكن أحيني أو اذبحني بيديك ولا أنتظر وصول أخوالي الذين لا أعلم كيف

سيفعلون بي. أنا عند الله وعندك يا موري إن كان لك جهد بنجاتي.

أنا عقيرة الله وعقيرتك (أي ذبيحة الله وذبيحتك).

ينظر لها حبشوش وهو واقف وهي بين قدميه وتمسك بهما وقد وجد نفسه صغيرا جدا في هذا الكون الواسع أمام أنثى بكاؤها يشوي الأحجار، رق قلبه وشعر بلهيب في حنجرته منعه من بلع ريقه ولولا تماسكه لوجد الدمع طريقاً. سال قلبه رقة وشعر بما تشعر وأحس بها ثم انحنى وتناول يديها ورفعها لتستقيم وقال لها بلطف:

- لا تخافي يا أختي، إن شاء الله أنا من ينجيك من ذلك.

***

رغم الشرائع السماوية، التي يلتزم بها كافة أبناء اليمن، إلا أن تجاوز الأحكام المدونة أمر لا غرابة فيه. فاليمني أكان قبيلياً (مسلماً) أو يهودياً، فذلك القاع فسيح للعنف تحت مبرر غسل العار وضرب معتقداتهم المقدسة عرض الصخور الجبلية التي تشتهر بها بلادهم. ومهما رحل أو ارتحل، أيا كانت شريعته السماوية، فهو يبقى يمنياً بجينات التراب والصخور الجبلية، متشابهين بالتصرفات والأعراف الاجتماعية أكانت سلبية أو إيجابية. فطريقة عمل العقل اليمني متشابهة. (هكذا تمتم يزيد

وهو يتابع غرابة لم يفهم منها إلا القليل وينتظر الفرصة ليختلي بحبشوش ويطرح استفساراته...) أمرت الأم ابنتها الصغرى ميمونة:

- احضري لموري حبشوش المعقرة.

اندهش حبشوش لهذا معتقدا أنه تخويل وتكليف بذبح ابنتها الكبرى (سعيدة). أخذته وسلمته له، "ويلاه، ما حاجتي بهذا ولا طاقة لي لذبح عصفور فكيف بإنسانة؟!" هكذا قال ووضع المعقرة جانبا. فقالت له الأم، شق المسند. بدا له المسند كالحجر من بعيد، فقال لها:

- ما المراد من شق المسند وهو من حجر واليوم سبت وأنت تعلمين أن ذلك محرم؟

- إنه من الجلد، فقط شبه لك أنه حجر.

لم يجسر على ذلك، فقد بدا مشتت الذهن، تناولت ابنتها الصغرى المعقرة وشقت المسند وإذا به تمر محشو في الجلد. فقالت الأم لهما:

- خذا لكما من هذا التمر الفاخر الذي لن تجدوا مثيلاً له.

تناولوا التمر ووجد حبشوش الفرصة للسؤال والتحقق من أمر ابنتهم، فسألها في حضرتهم:

- يا سعيدة، أجيبيني بصراحة.

نظرت لعينيه وهي تقرأ النجاة عبرهما وقالت:

- لا يكون إلا الصراحة يا موري.

- كيف أغواكِ الشيطان وأبوكِ مري معيض وأمك من صعدة من بيت (فنحس هكهن) وأصلهم من صنعاء؟ أنتِ كبيرة ولستِ صغيرة.

- سأحكي لك بما جرى معي. من عادة يهود نجران إذا مرض أحدهم فلزام على اليهود زيارته من كل القرى ولا يتوقفون حتى يشفى أو يموت. إذا مات والزوار الموجودون عنده يرسلون لأهليهم ويبلغونهم أن فلان مات ليحضروا ويقدموا الواجب. فمرة مرض موري، فقال لي أبي لنذهب ونزوره، أخذنا السمن والدقيق وذهبنا وبقينا عند المريض خمسة أيام حتى جاء يهود آخرين غيرنا. فقال لي أبي "إني عائد إلى البيت وأنتِ ابقي هنا لتساعدي زوجة المريض". وبعد يومين، أقبل ستة زوار شباب، تناولوا العشاء في غمرة ضحك، ثم خلدوا للنوم. وبينما كنت نائمة بجانب زوجة المريض، أقبل عليّ شاب اسمه يعقوب بن شلوم وحلف لي أنه بيتزوجني وضعفت وما قدرت أقاومه وكان ما كان...

- امم، سأقص عليكم ما حصل لبنت من الجوف، قصتها تشبه قصتك، والفرق أنها نبيهة. العام الماضي، ابنة يهودي اسمها (رابعة بنت سالم بن سليمان) وكنت أعرفها عندما كان عمرها خمس سنوات. كبرت واشتهرت بجمالها وتزوجت. سمع بشهرة جمالها أحد أشراف الجوف، أقبل على فرسه إلى دارها، طرق الباب وفتحته، رحبت به ثم ربط فرسه على الباب. دخل، وحسب عادتهم، قدمت له القهوة. طلب منها الغداء، فأجبته بالترحيب وذهبت وأحضرت الخبز وما جاد كرمها. وبينما هي تضع الطعام على المائدة وإذا به يراودها عن نفسها. فقالت له "العون يا ذا الشريف، أنتظر حتى أعود لك". خرجت، وأغلقت عليه الغرفة وخرجت من الدار تولول وتصرخ بأعلى صوتها "يا عيباه، يا عيباه". اجتمع كل من سمع الصوت من كل مكان ومن كل دار تواردوا نحو الصوت القادم من أمام دار سالم بن سليمان. فسألها أهل القبائل "ماذا دهاكِ يا ذا اليهودية؟". أجابت، أريد جاري. أحضروا جارها القبيلي. فقالت لجارها والناس المحتشدون بصوتها العالي "إن قبائل الجوف أشراف وعربان على سنة وشرع البلاد واليهود على سنة وشرع ما داموا في البلاد على ظهر القبائل.

واليوم، جاء الشريف إلى داري ورحبت به على سبيل عادتنا وزاد طالبني بروحي. فإن كان قد انتقض الشرع أن القبائل تكون من اليهود، واليهود تكون من القبائل، فعرفنا ذلك ونرى لنا طريقة، ما لم فاعترفوا بهذا الذي حدث إن لم يكن قبيحاً." فسألوها عن الذي تعرض لها، أجابتهم أنه في داخل دارها وقد سجنته وأشارت لهم أن ذلك الفرس هو فرسه. أمسكوا الفرس وعقروها ودخلوا للدار وضربوه وأهانوه ولم يقتلوه بسبب شهرة أهله وسمعتهم العطرة. ثم توعدوه إن كرر ذلك فسيقتلونه كما يقتل الحنش. (قتل الحنش في اليمن، يوتد عليه عود حاد يغرز من ظهره ويوتد على الأرض ثم يجمع الحطب ويقذف به ومن ثم يشعلوا النار)

***

لم يظهر يزيد اهتماما بما حدث لعائلة مري معيض، بل التزم الصمت حيث إنه لم يفهم أدق التفاصيل. دنا يزيد من حبشوش وقال له: "هل لنا أن نخرج ونتفرج على أشجار النخيل؟" أجابه: "لبيك يا معلمي". خرجا فورا، ظل يزيد صامتا قليلا وهو يتصفح طول النخيل ويمشي قليلا ثم يقف ويعاود ذلك، حتى استدار قليلا ليقابل حبشوش وقال له:

- ألا وضحت لي أكثر ما الذي فعلت معهم وما الذي حصل؟

أجابه باستغراب حيث اعتقد أن يزيداً ألم بالموضوع كاملا:

- ألم تر كيف كان الحزن يخيم على هذه العائلة؟ وبعون الله قد وعدتهم بالفرج وإخراجهم مما هم فيه.
- وكيف ذلك؟
- إن لي معرفة بعلاجات أسقيها لها، فتسقط الذي قد حصل.

زاد استغراب يزيد وسأله:

- عجيب. ولكن من شيخك الذي علمك هذا العلم؟
- ليس لي شيخ. تعلمت ذلك من أفواه الناس ومن الكتب.
- ومن أين ستأتي بالعلاجات وأنت في بلاد بعيدة ولست في المدينة حيث يسهل الحصول عليها؟
- لي معرفة بالأشجار والأعشاب التي تعوض عن الأدوية في هذا الشأن.

صمت يزيد وركز ناظريه في عيني حبشوش، فقال حبشوش في سره "إنك تهزأ مني الآن في عقلك وأنا أحدثك بالصدق وافتخر بعلومي".

نطق يزيد جزءاً من جانبه الخفي:

- لو عرفت في صنعاء أنك من أهل العلوم ما قبلت برفقتك.

- وما الضير في ذلك؟ وما علاقة علومي في رأسي وبصحبتك؟

اشتد غضب يزيد وأطلق لسانه ما أدهش حبشوش:

- أنت ملعون ومدلس وسيء، ولا أدري كيف قبلت بمرافقة ملعون؟!

صدم حبشوش لهذا الكلام وقال في سره "رب اجعلني من الصابرين عسى أكون من المقتدرين".

والكلام مازال ليزيد:

- في صنعاء، كنت مسكيناً وفي المناطق الأخرى شيطاناً ملعوناً.

فقال له حبشوش وهو مطأطئ الرأس:

- ذلك ليس من طباعي يا سيدي ويا نور عيني. أفهمني ما سبب غضبك، وأنا أعرف أني بريء من الخطأ ولا أقصد سوى فعل الخير؟

- أي خير تتحدث أنت؟ وأي عمل خير؟ أنت تقتل النفس المحرمة وتسفك الدم.

- استغفر الله من هذه التهمة، من الذي قتلت؟ ومن سفكت دمه؟

- ألست تحلل قتل الجنيين في بطن المرأة؟

- يا معلمي، لو قال ذلك غيرك لقلت إنه مجنون. أما أنت، فلست تعلم شيئاً عن التخلف اليوم. كما سمعت من الأم وابنتها وما سيحدث لها، ستذبح البنت هي والجنين في بطنها سيموتان. هذا شرعهم وهم يطبقون شرعهم. ما جاء على بالي الجنين، فكرت قتلهم للبنت. وهذا من المتفقات حتى في صنعاء. البنت ارتمت تحت أقدامي. وفي أعرافنا ذلك يمحو أكبر الخطايا كالجبال مجتمعة. وحرام تدفن البنت بهذا الحسن والجمال.

هدأ يزيد قليلا وقال:

- عليهم اللعنة. ما هذه الشريعة التي يلتزمون بها. هذا لا ترضى به جميع النواميس. ولا جميع الأديان تحكم بهذا الحكم أن يقتلوا الأمهات وفي بطونها أجنتها. (ينظر إلى السماء ويدعو...). يارب انتقم منهم إن كانوا يهوداً وهذا شرعهم وإن لم يتراجعوا عن ذبح البنت وعن إبطال شرعهم المزيف. (يثبت ناظريه في وجه حبشوش ويتابع...) أنا سأفضح شرع اليهود حيثما كانوا حتى اكشف سوءهم.

- أنت على حق يا معلمي وفي الطريق الصواب ونحن على باطل. ولكن الأم تقول إنها لا يمكن أن تربي ابن حرام في بيتها. وماذا سيقول الناس إن ربته في بيتها؟!
- التوراة تسميه مجازاً، وهو قول الأحبار. لنعد إليهم وسأقول لهم إن لم يقرأوا ويسمعوا للحاخامات فليسوا هم من جمعيات إسرائيل.

قال له حبشوش مداريا:

- يا سيدي ويا حبيبي! كلامك صحيح عند الذين يعرفون طريق الحق. أما هؤلاء، فالأعراف تتحكم بهم.

***

استخرج يزيد ما في جعبته من مواعظ دينية للأم المذنبة (سعيدة) وقال لها: "إن القتل جريمة حرمتها الشريعة وأنتم بذلك ستقتلون نفسين، البنت والجنين، وترتكبون إثماً عظيماً. وأنا بصفتي الدينية حاخام أحرم هذا العمل الشنيع الذي حرمته التوراة ولا أساس لوجوده سوى عندكم". لم تقنع الأم لأن لا مجال لذلك حيث سينبذون ويكرهون ولا قبول لهم في المنطقة والألسن تلوك الأسرة والطفل غير الشرعي. وعند المساء، اختلى حبشوش بالأم والبنت وقال لها بصدق:

- يا أمي، إن ما قاله الحاخام صحيح، ولا تحزني وسيجعل الله طريق.

قالت له بحدة:

- سيجعل الله طريقها للقبر قبل أن تلد أجنبي.
- إن كان ذلك ما تخشينه، فأنا ملتزم ولا داعي للحزن.
- كيف تلتزم وأنت على سفر ولن تتزوجها. هذا محال.
- إن قبلتم، أرسل ابنتكم سعيدة إلى الجوف. فهناك لي معارف يملكونني حسب سنة الشرع.

فقالت بقلق:

- أخاف أن تعيبها وتتركها هناك. (كأن حنان الأم مازال يقاوم نواميس الإنسان المتخلف وإن على استحياء)

فرد عليها بجدية:

- أعوذ بالله، أنا لست من المحتالين وأخشى الله بما فيه الكفاية.

شهقت سعيدة شهقة الحياة واندفعت لتتناول يده. وخبأت عينيها في راحة يده، وقالت بصوت حزين متوسلة:

- إني لك خادمة إذا نجيتني من العار والموت.
- فليصلح الله الحال.

صعدت سعيدة إلى سطح المنزل، اقتربت من المطبخ، رمت جسدها تحت عتبة الباب، ماجت شفتاها مع مقلتيها لتتغرغر بالدموع وقلبها ينبض وهي تراى بصيص أمل لنجاتها. (يارب، بجاه موسى والتوراة نجني من هذه المصيبة. يارب، بصبحك ومساك. يا من نجى موسى وبني إسرائيل نجني ورقق قلب الحاخام حبشوش ينقذني. نذراً عليّ يارب أتعبد لك وأدعوك في قلبي وأقرأ التوراة عشر مرات، نجني على يد الحاخام الطيب..) هكذا قالت في نفسها لتنتقل إلى ترتيل مزامير وأدعية دينية على أمل النجاة.

دخل حبشوش لغرفة الرجل العجوز مري معيض، الذي لم تعد له قدرة على الحركة إلا بصعوبة بالغة. اقترب حبشوش وجلس إلى جانبه وسأله:

- يا مري معيض، هل لك علم بمخطوطات تخص شريعتنا؟
- معي مخطوطات تخصني اشتريتها من قبيلي قادم من حراز بريالين. لم أعلم ما أهميتها لكنني أعجبت بتنظيم الخط فيها.
- هل لي أن أراها؟

أشار مري معيض إلى الخزانة وهي مساحة مربعة على الحائط وعليها باب خشب غير مثبت جيدا، وقال له:

- إسحب باب الخزانة وانظر فيها ما ترغب فيه.

نهض حبشوش واقترب من الخزانة، سحب الباب الصغير، وأدخل يديه ليحمل كتلة من المخطوطات على الجلد. وضعها أرضا وبدأ بفرزها، أدرك أن أحدها كتاب العهد الجديد، ارتبك حبشوش، تناوله بغية إعادته للخزانة وإخفائه عن عيون يزيد الذي خرج لقضاء الحاجة. وشاءت الصدف أن يدخل يزيد فجأة ويبصر حبشوش يخفي كتابا. تقدم يزيد منه عابسا يرمقه بنظرات الخبث وهو يقول له:

- ما الذي تخفيه عني؟!

بهت حبشوش، مد يزيد يده وسحب الكتاب بعنف وهو يقول في سره بالفرنسية "اللعنة عليك..".

***

في صباح اليوم التالي، أحس يزيد بسعادة الأسرة وتبدد الحزن وأن هذا الصباح البيت تشرق منه أشعة الأمل، استغرب لذلك. كيف لأسرة مصيبتها توازي ثقل الجبال أن تتبدد أحزانها بليلة؟! أراد أن يسمع من حبشوش ما فعل معهم ليل الأمس حتى كانت النتيجة إشراقاً. تناولوا وجبة الإفطار في جو بهيج. دخلت سعيدة لتقدم القهوة. وعكس العرف في الضيافة، البدء من اليمين حتى الشمال، تجاوزت وتقدمت نحو

حبشوش في وسط القوم وانحنت وبيدها صحن فيه أكواب القهوة، ارتفع حبشوش قليلا ومد يده لتناول الكأس وعينيه في عيناها، ابتسمت وهو فعل، دقات قلبه لا مستقر لها، إنه يشعر بها، سكنت قلبه "هذا الحب يا حبشوش، وستظفر بأجمل وأرق بنت" هكذا يتمتم سرا وعيناه مازالتا معلقتين في عينيها. يزيد يراقب ذلك، يغلي من الداخل وينتظر فرصة ليستوضح عن هذه النظرات الثاقبة. وبعد ذلك، أشار يزيد لحبشوش للخروج والتنزه بين النخيل.

على بعد أمتار، وهما يمشيان، يزيد يحدث نفسه (قضية سعيدة ستفسد عليّ رحلتي وأهدافها، وسيتحول دليلي إلى عاشق ويتركني في منتصف الطريق. يجب أن يتخلى عنها ونواصل الاستكشاف وإنجاح المهمة التي أتيت من أجلها..) نظر يزيد لوجه حبشوش وهو شارد ولم يستطع الصبر دون السؤال:

- ماذا صنعت حتى بددت حزن هذه العائلة؟
- اتفقنا على إرسال سعيدة إلى الجوف وهناك حيث لي معارف والامتلاك حسب الشريعة.

بدأ يزيد ينسج نسيجه ووجه سؤالاً له:

- عندما تصل بها إلى أهلك ومعاريفك في صنعاء، هل سيقبحون صنيعتك أو يمدحونها؟
- حتما سيمدحون، سيقولون إني عدت بفائدة لا مثيل لها، عدت ببنت مشرقية.
- وكيف ذلك؟
- النساء المشرقيات مشهورات بجمالهن في كل نواحي اليمن.
- حسنا. يبدو لي أنك مغرم بجمالها. حتى أنك أسهبت في المدح والوصف.
- يا سيدي، لست مغرما. ومقصدي الخير وإنقاذها من الموت. أشعر بالفخر لهذا العمل النبيل.

حال ما سمع يزيد ذلك، ظهرت أنانيته وحبه وتقديسه لمهمته على حساب الإنسانية والتي لن تضر فيه نسيجاً أو خلية لأنه قادم من بعيد. فقال بغضب:

- ألا تعلم أنك خرجت معي من دارك للعمل والسعي وراء رزقك في مهمتنا؟ ها أنت تقحمني في أشياء لا علاقة لي بها.
- لكني سأتركها في الجوف يا معلمي حتى ننتهي من شغلنا.

احمر وجه يزيد وجحظت عيناه واندفع قليلا نحو حبشوش وراح يتلو على مسامعه محاضرته:

- وإن تركتها في الجوف أو في أي مكان حتى نكمل سفرنا وعدت إلى صنعاء وبرفقتك ضرة إلى بيتك، فما الذي سيقوله أخوانك وأولادك وزوجتك؟ أليس هذا العمل الذي تقوم به عار ويسبب المتاعب لك؟ ستتخاصم مع زوجتك وأولادك بسببها. وكل هذه المتاعب التي ستجنيها من صنيعتك ستكون التهمة أن جوزيف هاليفي هو السبب. هو الذي أخرجك من دارك لتعود إليهم بالعار. وأنا لن أترك أعمال يهود نجران القبيحة وسأفضحهم. أنتم أهل اليمن لكم نواميس غير باقي البشر. إذا لم ترجع عن هذا الأمر الذي حسبته خيرا وهو شر لك، فلك نصيب في كتابي. لقد عرفت يهوداً في اليمن يتزوجون أكثر من واحدة ولا يبالون بالنتائج من مصائب عليهم وعلى أولادهم. لا أراكم إلا قوماً ستطاردهم اللعنات وكم فيك من فشل بسبب تهورك ومخالفة الشريعة.

استمر يزيد بمهمة الإقناع وطال كلامه حتى أدرك أن وجه حبشوش تكدر ونظراته بين قدميه، فقال له حبشوش منكسرا:

- عرفت منك الحق يا معلمي وصدقت نصيحتك. ولكني أريد منك معروفاً.
- قل ما عندك..
- أن لا تتحدث بهذا مع أحد حتى لا يطاردني العيب. وأنا سأترك هذا الأمر ظاهرا وباطنا.
- حسنا. ولنغادر هذه الدار في الغد إلى منزل يهودي آخر ونقول لهم إننا سنعود إليهم عندما ننتهي من سفرنا.

***

خرج حبشوش من الديوان، وقف عند الباب الخارجي يراقب جمال النخيل، تقدمت سعيدة نحوه، ابتعد قليلا ليفسح لها الطريق "هل جعت سيدي الحاخام؟". ابتسم ورد عليها: "لا، ليس بعد. ناديني بحبشوش أو الفتيحي". ابتسمت وهي تهز رأسها، وخرجت إلى الخارج وسرعان ما عادت لتمرّ من أمامه والنظرات تتحاور "سأكون من نصيبه، ما أجمله، وطيب القلب، أي ملاك هذا؟! وأي حظ يربطني به؟!" هكذا تتمتم وهي تعبر المدخل إلى بداية الدرج لتصعد إلى المطبخ لتتفنن وتبرز مهاراتها في الطبخ. الأنثى في هذه البلاد وسائر المحيط تعبر عن الحب بمدى إتقانها

الطبخ، تجد ذلك وسيلة للتعبير عن مشاعرها. سعيدة فيها لمسات كبرى من الرومنسية الفطرية، تترك الملعقة الخشبية على فوهة إناء الفخار والحطب مشتعل وتتجاوز السخم والدخان إلى أقصى زاوية السطح حيث الوعاء المزروع فيه العطريات، تقطف أجمل الأغصان وتقربها من أنفها وتستنشق عبيرها بلطف وتركض مسرعة متجاوزة الدرج لتقف أمام حبشوش وهو واقف تحت عتبة الباب الخارجي، قلبها ينقبض، ركضت كي تلحقه وهي تمني نفسها أنه مازال واقفا ولم يدخل الديوان، وقفت أمامه والمشقر مقبوض بكلتا يديها وتلمه إلى صدرها وأنفاسها تتسارع، الحال ليس مختلفا عند حبشوش، فهو يشعر بها. ابتلعت ريقها والعيون تتجاذب أطراف الحديث، انتزعت يديها من صدرها ومدت له أغصان المشقر بكلتا يديها. ابتسم، وتناولها، وحسب العادة استنشق عبيرها والتمتمة بالأدعية الدينية ". من العادات عند استنشاق عبير العطريات التمتمة بالأدعية لدى اليهود أو الصلاة على النبي عند القبائل، وقول مشترك "سلمت يداك"، ويرد عليه الضيف "بطيب الله أوقاتكم"، والأمر يشمل أيضاً البخور أو رش الطيب.

***

في اليوم التالي، وقبل مغادرة حبشوش ويزيد بنصف ساعة وقد جهزا نفسيهما للرحيل. وبعد سلام الوداع لمري معيض وزوجته، خرج يزيد وتأخر حبشوش قليلا ليلقي نظرة على سعيدة. جاءت سعيدة، اقتربت منه وفي يدها عقد فيه تعويذة كتبها حاخام الحبشة عندما كان ضيفا قبل ثلاث سنوات في نجران. تناولت يده اليمنى، ووضعت العقد في راحة يده ولمت أصابعه ويديه بين يديها وهي تقول "تعويذة كتبها لي حاخام الحبشة" ابتسم لها، وسألته "رحمة بي أم أحببتني؟". أجابها "الرحمة بقلبي كإنسان، لكنني أحببتك يا سعيدة وأراكِ سيدة داري". تبتسم وأشرق خداها ورود ربيع دائم، تشعر بأنها ناجية لا محالة، وبأن دعاءها لله ونذرها بحفظ ما تيسر من صدر الكتاب قد ساعد على نجاتها. اقتربت منه أكثر وراحت توشوش في أذنه "ودين النبي أني أحببتك، ونذر عليّ لا أعصيك أبدا وأنا خادمة لك إن أردت فأنت ستكون زوجي ومالك روحي وحياتي بين يديك، و....." تصمت وراحة يدها تتحس بطنها، فرد عليها حبشوش بصوت منخفض "وسأكون بمثابة الأب للطفل". أمسكت بيده وقالت له كلماتها الأخيرة: لن تتركني، صحيح (تهز رأسها مؤكدة وهي تتابع...) أنت صادق يا موري حبشوش. رد عليها: "سأعود، لن أتركك. الرجال تحبل من لساسينها."

غادرا دار معيض، ذلك الرجل الطيب الطاعن في السن والذي قتل قلبه ما جرى مع ابنته. غادره وتركا خلفهم قلب سعيدة الطيب معلقا على مشجب الأمل، ظهراهما يقابلان الدار وسعيدة مطلة من النافذة تراقب ظهر ذلك الأمل بالحياة والنجاة من العار، تكاد تقلع بصرها للحاق بهما. إن في حبشوش رقبتها التي سيبعد جانبا حادة السكين. كل خطوة يخطونها كأنها مسافة الروح والقلب "لقد وعدني، سينجيني، إني له خادمة ما حييت، إنه أملي ملاك من الله، الشكر لك يا رب لأنك أرسلت من يسترني". نصف ابتسامة وهي تتحسس بطنها وغريزة الأمومة تشتد في صدرها وهي متأملة نجاتها ونجاة جنينها وكأنها نجت. حاخام وعدها، أنه سينفذ وعده ولا يحنث حاخام يعرف حق المعرفة بها أمر الله، هكذا تعتقد. تابعت قولها لنفسها وأثر حبشوش يختفي تدريجيا مع كل خطوة يخطوها "أكان يعتقد الملعون الذي فعل بي هذا أن الله لا ينجيني. ها هو بعث لي حاخاما، ومن مثل هذا الحاخام؟! (اختفى حبشوش ولم تعد عيناها تبصرانه، أرسلت ناظريها إلى السماء وتابعت..) نجيت يارب موسى وبني إسرائيل وها أنت تنجيني.. "هكذا تمتمت سعيدة وكلها ثقة بأن حبشوش يمني أصيل والرجال تحبل من ألسنتها كما قال لها، لكنها لا تعلم بأن على أبواب الجنان ملايين الشياطين وأن الأرض الطيبة مليئة بالأشواك

وأن لكل خير شيطانه اللعين. ويبقى بين سعيدة ونجاتها عهد حال بينه وبينها يزيد لبيب عاطف.

***

استقر بهما الحال في بيت صائغ يهودي في نجران، كان يعلم بقدوم يزيد ويعلم اسمه الحقيقي وهو من استلم الورقة المالية الخاصة بيزيد وأرسلها له إلى صنعاء. شعر يزيد أنه بدأ يتحرر من مشاكل الآخرين وبدأ ذهن حبشوش يعود تدريجيا لمهمته وهي البحث عن النقوش والآثار. أحسن الصائغ معاملتهم وأكرمهم بالدبس (عسل التمر) واللحم. اسند حبشوش ظهره ليتنسم بعد وجبة ثقيلة. نظر إليه يزيد شزرا وقال له بشكل محرج أمام الصائغ اليهودي:

- لم نأت إلى هنا للراحة، أراك تتكاسل، اذهب وانظر ماذا تجد.

نهض حبشوش وقال:

- صدقت يا معلمي، تحت أمرك.

خرج حبشوش من الدار وقد قيل له إن في الجوار سوقاً (دحضة) فيه المنتجات المحلية من مزروعات وجلديات ما يتم استيراده من خارج المنطقة. توجه للسوق وإذا به عكس ما توقع، لا توجد فيه محلات يمكن

أن يجد فيها ما يسعى إليه. بل إن الباعة يفترشون الأرض. تعمق في السوق تحت وهج الشمس القاتلة في آخر وقت لجنونها. شعر بالعطش، فوجد يهودياً، سلم عليه وطلب منه أن يدله على الماء. وفي بال حبشوش بعد ذلك يسأله إذا كان يعلم عمن لديه مخطوطات. ساقه إلى امرأة تسقي الماء بمقابل حفنة من التمر، سقته وأخذت من اليهودي الثمن ثم سقت اليهودي الآخر. وبينما اليهودي يشرب إذا بالأصوات تتعالى لترعبه ويبصق ما في فمه من ماء ويهرب. الأصوات مرعبة والباعة تركوا بضائعهم وهربوا، والمتسوقون يركضون ويدوسون البضائع. خلا السوق من البشر، بقى حبشوش حائراً يتلفت يمنة ويسرة لعله يعرف ما الذي يحدث مع تيقنه أن لا مكروه يمسه لأنه غريب. لم تتضح له الرؤيا. ودقائق، حتى عاد المتسوقين والباعة والأصوات تتداخل وكلٌ ينطق (سوق... سوق...). قليلا من الوقت والباعة يرتبون بضائعهم. وفجأة، عادت أصوات الصريخ مجددا وتكرر الهروب الجماعي إلى وراء النخيل ومنهم من غاب في زحام التراب. دخل مسلحون وأطلقوا الأعيرة النارية في الهواء، اختبأ حبشوش خلف النخيل حتى غادر المسلحون دون خسائر في الأرواح وعاد الجميع وهم يرددون كلمة سوق... سوق... (المقصود من ذلك، أن الأسواق لا أحد يأخذ بحقه وإن كانت النتيجة قتلاً كي لا تثور الفتن.

ومن يخالف ذلك تعاقبه جميع القبائل). غادر حبشوش السوق خالي الوفاض ولم يستفد شيئاً من ذلك.

***

شدا الرحال إلى قرية (القابل) عندما عرفا أن لا غزارة للمخطوطات في المنطقة التي كانوا بها. وفي القرية قابلهما القاضي (محمد بن لغة) رحب بهما واقسم عليهما أن ينزلا ضيفين مرحباً بهما ومعززين في داره. أدخلهما إلى الدار وأكرمهما وسعد لوجودهما معه. يرى يزيد أن المجتمع اليمني مجتمع خداع وخاصة القبائل. ولم يحسن الظن في كثير من المواقف. بل إن الشك يراوده في كل لحظة ونادراً ما يطمئن. اليوم وبعد حواره مع القاضي محمد بن لغة، قال يزيد بسره بالفرنسية: "أنا أمام موسوعة تاريخية وأدبية. ذلك يجعلني مطمئناً بأن لا خوف عليّ من رجل يتنفس تاريخاً وفلسفة وأدباً متنوعاً." سمع يزيد من القاضي أحوال نجران وحاكمها وتجارها وعقالها. وسمع القاضي من يزيد أحوال القدس وما فيها.

ظل حبشوش ساكتا وليس من عادته السكوت وعدم تناقل أخبار البلاد والمعرفة. القاضي محمد بن لغة، وجد حبشوش صامتا صمت الموتى. وكلما

سأله ما به، يخرجه من دهاليز الحزن ليجيب "لا شيء"، ويعود إلى حزنه مجددا.

صباح اليوم التالي، أمسك القاضي محمد معصم حبشوش واقتاده معه إلى فناء داره الجميل، وقال لحبشوش مستفسرا:

- ما بك شارد الذهن؟ أراك غير مرتاح في ضيافتي.
- لا والله يا سيدي القاضي، أكرمك الله فقد أكرمتنا وسعدت لوجودنا.
- إذا ما الذي يحزنك؟ إن كان المال، فمالي مالك، وحلالي حلالك، ورقبتي رهنك.
- عز الله إنك أصيل. ليس هذا ما يشغلني.
- قل لي لربما أساعدك بحكم إني كنت قاضي الحاكم ولي معارف واسعة في هذه البلاد.

حكى حبشوش له قصة سعيدة والحكم الذي ينتظرها، تألم القاضي لما سمع، وقال مقترحا:

- سأمنحك الدار والنخيل والأغنام، تزوجها وعيشا هنا في نجران.
- إن لي زوجة وأولاداً في صنعاء وذلك يشق على قلبي. وليس لي طاقة بفصل أسرتي عني.

- هذا الحل الذي أراه مناسبا، فليس لي سلطة أن أتدخل في شرع اليهود. فذلك شرعهم. لو كانت سعيدة من بنات القبائل لتدخلت وأوقفت الحكم عليها.

قال له حبشوش مهزوما:

- لا مناص من قضاء الله. سيجعل لها طريقاً. بعد سفر معلمي سأعود إلى نجران وأمتلكها.
- وأنا سأكون معك في قرارك الصائب. ذبح البنت جريمة في ديننا وكذلك دينكم.
- أعلم... لكن طباعنا تغلب على عقيدتنا في بعض الأمور.
- أجرك عند الله عظيم يا حبشوش، من أحيا نفسا كأنما أحيا الناس جميعاً.
- ونعم بالله. والله يا قاضي أني رحمتها ودخلت قلبي.
- سبحان الله الذي سخرك لها.

في خضم الحوار بين حبشوش والقاضي محمد بن لغة، يتخذ يزيد من زاوية الغرفة مجلسا له ولقراطيسه وقلمه حيث وراح يكتب باختصار بعضا مما لفت أنتباهه ليضيفه لمذكراته باللغة الفرنسية:

"في مدينة (مخلاف) توقفت وقلبي مفعم بالعاطفة في وسط بستان نخيل. نزلتُ ضيفاً عند أخوين يهوديين يمارسان مهنة الخياطة. وبعدئذ رافقني يهودي من أبناء (مدينة رجلة) الواقعة في منطقة مقابلة للوادي والتي يبلغ عرضها ما يقارب ٣٠٠ متر وهي مبنية وسط غابة من النخيل. السبت ويتبعه مباشرة عيد الحصاد عند اليهود. لذا، لدينا ثلاثة أيام لا يعمل فيها اليهود. توفر لي وقت كافي لأستخلص من مضيفي معلومات ثرية. وحرصاً على المصداقية، كنت مخطئاً في الحذر من أهالي نجران، فهم طيبون. في شبه الجزيرة العربية يتمتع اليهود فيه بالحقوق والحرية والاحترام. ادعيت أني حاخام من القدس، هذا جعلني أحصل على الرعاية من علماء نجران ودعوني لمنازلهم. بعد الانتهاء من الطعام نناقش مسائل تاريخية وجغرافية وخصوصاً علم ما وراء الطبيعة. وسعدت بالتعرف على القاضي محمد بن لغة في (قرية القابل). إنه ثمين جداً بالنسبة لي، متضلعاً في الأدب العربي وارسطا طاليسياً متحمساً وكان مستشار رئيس الدولة المعروف بالمكرمي. فقد زودني بمعلومات موثقة عن موارد البلاد والعلاقات التجارية بين الحاكم مع الشعوب المجاورة. نجحت جولاتي باكتشاف خرائب نجران (مدينة الخدود) وهو لفظ خاطئ لمدينة (الأخدود) التي ذكرت في القرآن، وأخطأ المفسرون في اعتبارها مدينة (نجران) نفسها.

سكان هذه المدينة يعرفون الادعاءات حول وحشية الملك اليهودي الحِمْيَري يوسف أسار يثأر (ذو نواس)، وحسب بعض كتب العصور الوسطى إنه ألقى عشرين ألفاً من المسيحيين في حفر مضطرمة بالنار. التقاليد الشعبية هنا في غاية التسامح مع اليهود. يقول علماء نجران بأنه لا يوجد في العالم سوى ذريتين شريفتين وهي ذريتهم ذرية إسماعيل، وذرية إسحاق والمقصود الشعب اليهودي".

***

ها هما يودعا نجران، برفقة قبيلي اسمه (حنُبك) بمقابل مادي ليوصلهما إلى (كتاف-الجوف). خرجا من نجران سيرا على الأقدام وليس لديهما لا جمل ولا حمار. شق السير قلباهما من التعب، طال المسير نهارا وليلا تحت مصابيح السماء إلى أن وصلوا إلى (نقيل الحديدة). يزيد متذمر من وعورة المشي على عارضة الجبل، صخور وأشجار شوكية مزعجة. أراد الاستراحة، فرفض القبيلي ذلك لخطورة المنطقة واشتهارها بالزواحف السامة. حبشوش توقف وقال "لنا من الله المكتوب، نرتاح حتى ساعة تحت ضوء القمر". ما إن أكمل كلماته حتى دفعه القبيلي إلى الخلف ليسقطه أرضاً، ويبتعد هو أمتاراً. صاح حبشوش:

- ما بك؟ تريد قتلي؟!

رد عليه القبيلي بصوت عالٍ:

- إبتعد، ستقتلك.

يوزع ناظريه على كل الاتجاهات باحثا عمن سيقتله، استقرت عيناه على حنش مرعب على مقربه منه. تراجع القبيلي إلى الخلف، امتشق عودا حادا ودار قليلاً وراح يتقدم بهدوء وبخطوات خفيفة وقد انحنى قليلا. تقدم نحوها أكثر فأكثر إلى أن صار خلفها بمسافة ليست بالبعيدة. تأكد أن أصابعه تمسك العود بالشكل الصحيح كمسك قبضة الخنجر عند الطعن من الخلف، بلع ريقه، وحبشوش فاقد القدرة على الحركة ماعدا فرائصه التي كانت ترتعد بصمت، تراجع يزيد خطوات إلى أن وجد صخرة واعتلاها. ابتلع القبيلي ريقه وأسقط يده على ظهر الحنش ليطعنه بالعود ويثبته على التراب كالوتد ويرتمي إلى الخلف بمسافة لا يصل إليه الحنش لأنه مطعون ومثبت بالعود بين التراب الصلب. يدور الحنش حول نفسه يحاول اللحاق به، فيفشل إذ هو مثبت. قال القبيلي، "لنضرب رأسه بالأحجار الكبيرة، أو نحرقه بالحطب". قذفوا عليه الأحجار مرات، وغرزوا عود حطب وحوله أحجار ليعلم المارة بأن هذا المكان مسكن الزواحف. غادروا المكان مسرعين إلى قرابة الفجر. ارتمى يزيد أرضا، لم

يعد قادرا على مواصلة المسير. حاولا حمله حبشوش من جهة والقبيلي من جهة، فشل حبشوش لنحالة جسده وتعبه ولم يعد قادرا على مجهود فوق مجهود نفسه. فقال القبيلي:

- هذا نهاية المنحدر، والخطر هنا عظيم. وإن بقينا، سنموت وإن تركنا الرجل، يموت هنا.
- يا معلمي شد نفسك قليلاً. (يخاطب حبشوش يزيد وهو مستلق على الأرض).
- قدماي تمزقتا، الألم يعبر من أسفل قدمي حتى منتصف ظهري. (هكذا رد يزيد وهو يئن ألما).

وجد القبيلي نفسه في موقف يجب فيه التصرف، طلب من حبشوش المساعدة في رفع يزيد حيث سيدير ظهره لحمله. حمله على ظهره ومضوا في شق الطريق للنزول من هذا المنحدر. يئن يزيد ألما. فلا تدريب ولا تهيئة افتراضية تساعد على التغلب لهكذا منحدرات أحجارها حادة. تجاوزوا المنطقة الخطرة إلى أن بانت لهم نار موقدة هناك في عارض الطريق. اقتربوا منها إلى أن تأكدوا من أمان المكان وخلوه من الأشجار. وضع القبيلي يزيد من على ظهره، ومضى نحو النار لجلب عود منهم وما تجود أنفسهم. تحدث إليهم قليلا، فسمع حبشوش ضحكاً متواصلاً. عاد القبيلي بعود الحطب

المشتعل ويبدو عليه الغضب، جمع حبشوش بعض الأعواد اليابسة لإشعال النار. وما أن انتهوا من ذلك وهما في لحظات استراحة، حتى سأل حبشوش القبيلي:

- من أين هم تلك الجماعة؟
- إنهم من أشراف الجوف وعددهم خمسة وهم في طريقهم لنجران.
- لِمَ ضحكوا عليك؟ وصل إلى مسمعي كلمة مغفل.
- نعم، وصفوني بذلك.
- ولِمَ؟
- لأني حملت اليهودي على ظهري.
- وما أدراهم، إلى هذا المكان وفي هذا الظلام شاهدوك؟
- لا، أنا مدحت نفسي مفتخرا.
- وما حجتهم في أن يضحكوا عليك؟
- قالوا إني مسلم أصلي على النبي وأنتم يهود، فكيف أحمل اليهودي على ظهري ولا يجوز لي الحديث معكم بالكلام اللين. وقالوا "إذا تحدثت معكم لا تضحك معهم"، وإن شرعاً الذي يضحك مع اليهودي ما يقدر يشوف وجه النبي يوم القيامة.

- من حيث وهذا كلامهم، اسمع مني ما يبطل دعواهم رجح الله عقولهم، وتدعم مسعاك عز الله قدرك. فالنبي كان له جار يهودي وكان يتحدث معه بالكلام اللين، وقول الكتاب إلا بالتي هي أحسن.

لم يقتنع القبيلي حنبك بكلام حبشوش، بل أكمل معهم المسيرة ممتعضا من إثم ارتكبه. وفي أول فرصة سنحت له، استأجر اثنين من رجال القبائل لتوصيل حبشوش ويزيد إلى (كتاف) وفارقهما. أكملا طريقهما برفقة اثنين من القبائل ولم يكونا على أمانة العهد فقد ضايقاهما طيلة الطريق بغية التربح الزائد منهما. أوصلاهما إلى دار يهودي في كتاف وأرادوا أجراً مضاعفا عما اتفقوا، فدخل حبشوش دار اليهودي الطاعن بالسن وأخبره بمراد من أوصلاهما إلى هنا. خرج العجوز وطاردهما بعصاه فهربا. ذلك أغضب يزيداً خشية تعريض حياته للخطر، فقال له حبشوش: "إن هذا الرجل ابن البلد ويعرف كيف يتصرف وقد تربى بين القبائل".

***

اليوم التالي، واصلا المشي لوحدهما دون دليل باتجاه برط. وفي الطريق، وجدا سمسرة (مكان للراحة والنوم للمسافرين وجمالهم وتعتبر استراحة

تقدم فيها القهوة والأكل). مع أن يزيد معارض لدخول السمسرة في الأماكن المقطوعة، إلا أنه رضخ لرغبة حبشوش بعد إلحاحه ورغبته في تدخين النارجيلة ومضغ القليل من القات. في سمسرة برط، كان الجو عكس ما توقعه يزيد. أغلب رواده من التجار وتبرك في فناء السمسرة جمال. منها المحملة بالبضائع. ويتم إنزال البضائع لترتاح الجمال. ومنها مالم تحمل شيئاً لأنها قد أفرغت حمولتها في مقاصدها. أخذا مكانهما في ترحيب شديد من قبل مالك السمسرة وقدم لهما الغداء ومن ثم القهوة. للتجار فضول في السؤال عن يزيد ومن أين أتى ومقصده في اليمن. تقرب من مجلسيهما تاجر وأعطى حبشوش بعض القات الرفيع والنارجيلة قيد التحضير. عرف التاجر عن نفسه بأنه من عمران واسمه ثابت العمراني.

للتاجر غرض ولا يمكن أن يفوت فرصة يحصل منها الربح:

- يا المقدسي، ما رأيك بالعمل معي؟ تربطني بعلاقة مع تجار مقدسيين ولك نسبتك خير لك من الشحاذة والتعب من بلاد لبلاد.

استدار يزيد نحو حبشوش وقد انتابه نوع من الارتباك ولكنه قرر المناورة قليلا:

- وما حاجتك بالتجار المقدسيين؟

- أصدر لهم الجلود والقهوة والسمن.
- تلك منتجات تصدرها القدس للمحيط بها.
- لا، ليس الأمر كذلك. فأنا أعرف يهود يصدرون تلك المنتجات للقدس ويحصلون على عائد جيد. ما أريده منك هو إعطاء تجار القدس اسمي وعنوان جمالي في ميناء الحديدة للاتصال بي عند الحاجة لأي كمية من الجلود والقهوة والسمن. (أخذ منه يزيد معلوماته وقال له إنه سيفعل ذلك في حال عودته.)

قضى حبشوش يوما من الراحة مع أغصان القات والنارجيلة وكرم التاجر ثابت العمراني الذي دفع تكاليف إقامتهما في السمسرة. يزيد كان متخوفاً في بادئ الأمر. وتدريجيا، صار مطمئناً وإذا به يطلق لنفسه جواً من الراحة بعد مشقة السفر. لم ينخرط مع حبشوش بوسيلتي الراحة بأغصان القات. فقد سبق له وحاول تجربتهما وتدوين الانطباع والشعور ولكنه فشل في فهم تلك العادة.

في اليوم التالي صباحا، ومع نزول أول خيوط الضوء، غادرا السمسرة إلى منطقة (برط). وعند وصولهما. "هناك جانب خفي ليزيد"، هذا ما يقوله حبشوش في سره مؤخرا. وبرغم من تأكيد حبشوش ليزيد أن لا وجود لنقوش في هذه المنطقة إلا أنه يرفض مشككا ولم يستطع حبشوش معرفة ما

في نواياه لتضارب كلامه وكثرة السؤال عن أسماء القبائل وعدد يهود المناطق وأسماء عقالهم. وما يثير الاستغراب إخفاؤه بعض ما يرسم. فليس مهتماً بالآثار وحدها. فله اهتمامات أخرى وكأنه باحث بشيء آخر أكثر من كونه باحث آثار. يشك حبشوش بقدراته التي يظن أنها خارقة. وكثيراً ما يردد حبشوش ذلك العهد الذي قطعه يزيد على نفسه بتعليمه الكتابة اليمنية القديمة. وإلى الآن لم يتعلم حرفا. "هل فعلا يزيد يجيد هذه الكتابة أم أنه يدعي المعرفة؟" هكذا يحدث حبشوش نفسه مرارا وتكرارا. لم يستفد منه إلى الآن، لا علم ينفع ولا مكسب مالي يستحق المغامرة. وكثيراً ما يتودد ليزيد لتعليمه اللغة والأخير يتحجج ويماطل في وعوده. بدأ حبشوش صراحة يعبر عما يختلج في صدره وقد أضناه التعب وتمزقت قدماه بفعل الاصطدام بالأحجار الحادة. الندم على الخروج يشعل صدره وزاد الطين بلة أن يزيد لم يرثى لحاله وتعبه ونزيف قدميه. فكلما وجد حصناً للعرب، يطلب منه الصعود والبحث عن النقوش. وبما أنه ابن البلد، فهو يفرق بين البنى العربية والقديمة، إلا أن يزيد يأمره بالذهاب وهو يجلس منتظرا. وعند عودته ولم يجد شيئاً، يتلقى سيلا من الشتائم ويبدو أن الرحلة أفقدت يزيد صبره تدريجيا بفعل المخاطر ووعورة الدروب.

وصلا إلى قرية يهود في (برط). وعند مدخلها ارتمى حبشوش ورفض مواصلة الطريق إلى دار أحد اليهود:

- لم اعد قادرا على المشي.
- حاول، ولا تتحجج بالتعب، فأنا أيضا مشيت كثيرا كما مشيت أنت.
- أنا أكثر منك يا معلمي، زيادة في صعود الخرائب والجبال.
- لو أنك عدت بشيء يستحق...
- ومن أين أتي بالنقوش من خرائب للعرب وليست للأقدمين؟
- دعك من هرائك وهيا لندخل القرية. وإلا دخلت لوحدي وتركتك هنا.

هذه الخشونة أرهقت حبشوش نفسيا أيضا، فرد عليه:

- إذهب لوحدك وأنا سأرتاح هنا. فرجلي تنزف دما.
- إذا، ابق هنا مع حماقتك. (قالها وواصل مشيه...)

فقد بدا ضجرا ولا رغبة له في شيء "تعبت معك، وخسرت قواي، وأوصلتك لما لم تكن تحلم به. ومع ذلك تشتمني". هكذا يقول حبشوش بصوته وهو جالس وقد اختفى أثر يزيد عند مدخل القرية وها هو لوحده يطرق باب دار اليهودي دون دليله. لا يدري حبشوش كم من الوقت

مضى وهو يتنفس الغبار المتطاير ويبصق اللعاب الملوث بالغبار أيضا وعصاه بيده يرسم فيها على التراب أشكال غريبة، حتى اطل يهودي خارجا من القرية باتجاه الطريق التي يجلس على جانبها. ومن المؤكد أن يزيد تحدث لليهود أنه برفقة شخص يجلس بحنق على بعد من مدخل القرية فأرسلوا من يحضره إلى الدار. لما اقترب الرجل منه، سلم عليه ورحب به وهم بمسك معصمه ليوقفه، فإذا به يرى قدميه وقد خضبهما الدم، استغرب وسأله:

- ما الذي حدث لقدميك؟

أجاب حبشوش بروحه المرحة حيث ينسى تعبه وألمه حال أن يحدث أنساناً:

- هذه جبالكم التي ارتوت من دمي.
- ألا تعرف كيف السفر في الجبال؟
- ومن أين لي أن أعرف غير المشي بالجبل، ولا قدرة لي على الطيران؟

ابتسم الرجل وقال له:

- سأعلمك كيف تمشي في الجبال.
- جازاك الله خيراً إن علمتني.

وقف الرجل وعلمه كيف يتجنب الارتطام بالأحجار الحادة عند السفر في الجبال. جرب حبشوش ذلك أكثر من مرة وهو يخطو في الطريق إلى القرية حتى تعلم.

في الدار، غسل قدميه وبانت الجروح والألم متواصل، استلقى على ظهره قليلا، فبادره يزيد:

- جروح بسيطة وستشفى سريعا.
- آمل ذلك.

جاء مالك الدار بالدهنة الممزوجة بالخشخاش بقصد العلاج وإطلاقاً لا يستخدم كمخدر في اليمن. دهن مناطق وجع قدميه ليزول الألم بعد قليل من الوقت. أهل الدار مشغولون بتحضير وجبة الضيافة، هذه القرية فيها القليل جدا من اليهود. لذا، الأمر ملفت ليزيد. اقترب قليلا من حبشوش وسأله:

- لماذا يهود اليمن مشتتون في كل المناطق والقرى؟ أليس من الأجدر أن يكونوا في منطقة واحدة لعون بعضهم البعض، مرت عصور وأنتم مشتتون؟ تشتتكم هذا يثير استغرابي.

نهض حبشوش ليسند ظهره وأجاب:

- الأمر غريب فعلا يا معلمي، وقد فكرت في ذلك خلال رحلتنا وأنا أرى إخواننا مشتتين. صحيح أننا سنخسر حماية القبائل لنا وسنصبح عرضة للغزوات ونضطر للتسلح، وذلك باب من أبواب جهنم مفتوح علينا وهو الذي لا يمكن أن يكون ولا طاقة لنا بالفتن والاصطدام معهم. فهم شرسون كما سبق وقلت لك.
- هذه ليست إجابة، أنا أبحث عن الأسباب.
- الأسباب هي مجرد تحليل لمعرفتي بالكتب القديمة وليست واضحة لي تماما، ولكني أظن أن هناك سببين. الأول، توزع اليهود على القرى ليكونوا في حماية كل قبائل اليمن. وإن تعرض يهود في قرية ما للاضطهاد، ففي القرى الأخرى هناك يهود سالمون. ثانيا، عندما دخل الإسلام وكانت اليمن تدين باليهودية وهم السكان المحليون الأصليون في أغلب مناطق اليمن، والبعض يدين بالمسيحة، أسلم المسيحيون والوثنيون وأسلم غالبية اليهود في كل منطقة وقرية. ومن تبقى على دينه، بقي مكانه في قريته.
- حسب علمي، تاريخيا أنتم يهود اليمن لستم من السكان الأصليين. هاجرتم من أورشاليم إلى اليمن.

- والله، يا معلمي أنا يمني من أول نطفة، أنظر إلى جلودنا وإلى أشكالنا. فنحن يمنيون من السكان الأصليين. الطائفة اليهودية في اليمن من أقدم الطوائف اليهودية في العالم كما ورد في الكتب والروايات التاريخية وما ورد في التلمود لـ(موسى بن ميمون)
- المعلومات لدي أنكم هاجرتم إلى اليمن بعد تدمير الهيكل ومعبد القدس في العام السبعين قبل الميلاد.
- يا نور عيني ومعلمي. كان لدينا وثائق إلى ما قبل الإسلام بثلاث مائة عام تذكر ذلك.
- وأين الوثائق؟
- خدعنا أهرون عراجي عندما قدم لليمن من مصر ورغب في تزويج ابنه من يهودية يمنية ووجد أن يهود اليمن متقيدون بسجلات الأنساب التاريخية ولمن يرجع كل فرع نحو الجذر. خدع جدودنا وطلب سجلات الأنساب لأنه يبحث عن نسب محدد لابنه. جمع السجلات ومن ثم أحرقها بحجة أن اليهود جميعهم متساوون في النسب وخسرنا من وثائقنا وسجلاتنا بهذه الخديعة.
- ألا توجد لديكم وثائق مشتركة مع المسلمين؟

- لا. القبائل لا تهتم بهذه المخطوطات، إنهم يحتفظون بها له علاقة بامتلاك الأرض. وما دون ذلك، لا يساوي شيئاً لديهم. وأقدم ما يثبت نسبهم بعد دخول الإسلام. أما أشراف اليمن، فلديهم ما يربط نسبهم بعلي بن أبي طالب.
- ألم تسمع أن صراعاً نشب بين القبائل واليهود أو مخطوطة تتناول موضوع من هذا القبيل؟
- يا معلمي. على مر العصور، لم تحدث أبداً فتن بين اليهود والمسلمين في اليمن، لا نشترك في حروبهم ولا في غرمهم. وعند الحروب، أيا كانت لا ندخل في التجنيد الإجباري، فقط ندفع جزية سنوية عن الذكور البالغين وليست عن الأطفال والنساء. وأحيانا يدفعها جار اليهودي المسلم إذا كان أخونا فقيرا من باب الجار قبل الدار.
- لكن الجزية شكل من أشكال العبودية والظلم.
- نعم هي كذلك إن دفعت للجار أو للقبيلة. ولكن دفعها للدولة يوازي ما يترتب على المسلم من دفع الزكاة وهي مبالغ كبيرة بالمقارنة بالجزية والتي هي مبالغ رمزية. فالجزية والزكاة تذهبان لخزينة الدولة. فهذا لا يجرحنا أطلاقا. الذي يؤلمنا هو أن نشعر

بالعبودية إذا انهارت الدولة وتسلم شياطين القبائل حكم المناطق وحينها ندفع الجزية للجار أو القبيلة.

- ستعيشون بهذه الطريقة الدهر بأكمله. فأرض الميعاد هي المنقذ لكم وكفاكم سلبية. واختلف معك بأنكم السكان الأصليون في اليمن، أنتم نزحتم من أرض إسرائيل بسبب الخراب الذي سببه الإمبراطور الروماني تيتوس. وسيأتي الوقت الذي يجب عليكم فيه العودة لبناء الوعد المقدس.
- لنفترض ذلك وجاء إخواننا اليهود مستنجدين طالبين الحماية، كم عددهم ألف، ألفان؟ ومن هرب من بابل كم عددهم مائة، مائتا يهودي؟ هذا يعني بالمنطق والعقل يا معلمي أن يهود اليمن منهم المستجير زمن تيتوس وهم الأقلية ومنهم النقي وهم شعب دافعوا وحاربوا وقاوموا المد المسيحي الروماني الحبشي وكانوا حصناً منيعاً دفاعاً عن يهوديتهم وهويتهم وعن الوجود اليهودي بشكل عام لأنه وصل لمرحلة الفناء والمطاردة وهزيمة الروم والأحباش وفشلهم في اليمن هو ما حافظ على اليهودية. وجاء الإسلام وأسلم من اقتنع وبقي من قلبه معلق بالتوراة، ولك أن تتخيل

دخول دين وانقسام الناس ما بين قابل ورافض. ولولا حب الله، لكانت فتن وحروب.

- أنتم لستم طموحين للعودة لأرض الميعاد، وسيأتي اليوم الذي تتمنون الرحيل وستسعون وراءه وسيتأكد لك يوماً أنك هاجرت لليمن فحسب.
- سيجعل الله الخير، فهناك من يرغب وهناك من يرفض. أما قولك اننا لسنا أبناء اليمن الأصلين، فلمَ جلدي أسمر وشكلي يمني يميزه الجني قبل والإنسي. (ضحك حبشوش وابتسم يزيد..)

***

العودة إلى الجوف هي المقصد المبيت والسبب الأكبر أن لا أمان على ما في حوزتها إن هما توجها إلى مأرب. فالخطر هناك قائم ومن الأفضل العودة إلى الجوف وإيداع ما في حوزتها عند اليهودي سالم بن سعيد تاجر المجوهرات إلى جانب ما أخفوه عنده من قبل. ذلك الظاهر، أما الباطن فمسار رحلتها يكشف خطوات من النوايا المبيتة. وصلا الجوف، ومباشرة إلى دار تاجر المجوهرات. حال الوصول، سلم ليزيد رسالة وصلت من زوجته وتناقلها عدد من الحاخامات ابتداء من عدن

وصنعاء ثم أرسلت إلى تاجر المجوهرات في الجوف. لم يمض على يزيد سوى دقائق من وصوله لدار اليهودي سالم وقراءته لرسالة حتى أفصح عن عجلته لمواصلة رحلته يوم الغد صباحا، فقال للتاجر:

- جهز لنا من يأخذنا لمأرب صباحا.
- حسنا.

نظر يزيد نظرة في وجه حبشوش لا تخلو من الغرابة وعاد ليقول لتاجر:

- احتفظ بالمخطوطات، وسأرسل من يأخذها منك ويلقاني بها في صنعاء.
- ولِمَ هذا التعب؟! سأوصلها بنفسي إلى صنعاء.
- إن لم تدخل أنت صنعاء، أرسل شخصاً تضمنه وأنا سأدفع تكاليفه. ولا تسلمها لأحد أيا كان. سلمها ليدي أو ليد حاخام صنعاء فقط.
- تحت أمرك.
- وفي طريقك إلى صنعاء توقف في (ملُح) عند يحيى بن سعيد، فلي عنده مخطوطات أمانة، خذها معك إلى صنعاء.
- حسنا.

لن يطيلا البقاء في الجوف. فالغرض إيداع ما قد جمعاه من مخطوطات والنسخ عند تاجر المجوهرات وتكليفه بمهمة نقلها إلى صنعاء وإيداعها لدى حاخام صنعاء. حبشوش يسمع ذلك وهو إلى جانبهما، لم يأتمنه يزيد على شيء. ذلك أزعجه تماما والتزم الصمت. بعد ذلك، طلب يزيد من حبشوش عد النقود التي تحصلا عليها من الصدقات. وإذا بها ٤٢ ريال، تأكد منها وأعادها ليخفيها عند حبشوش في حزامه. ها هما في انتظار وجبة الغداء، طرق باب التاجر سالم بن سعيد وإذا به جندي إحضار جاء للتاجر سالم ليخبره أن غريمه لم يجده ويقال إنه يرجع في الغد من صنعاء. أدخله ليتناول الغداء معهم، وبدا لطيفاً جدا معه. تناولوا وجبتهم وشربوا القهوة وحين هم الجندي بالخروج، استوقفه التاجر وأعطاه ثلاثين قرشا وقال له:

- لا تكن ودوداً مع المدين، تعامل معه بأقسى أنواع الخشونة.

تناول الجندي المبلغ وقال:

- ستسمع بإهانته، وسأبرد قلبك منه.

خرج الجندي في سبيل عمله. ضحك حبشوش لأنه أدرك مغزى التاجر، فقال له:

- من له دين لك سيأتي اليوم للسداد.

(هذا الأسلوب يتبعه تجار اليهود، بقصد رعب المدينيين وإذلالهم لكي لا يتهاونوا بالسداد. فعندما يتأخر مدين بدفع ما عليه، يقدم التاجر اليهودي شكوى به ويرسل جندي إحضار ويدفع رشوة للجندي لكي يهين المدين أمام الناس. وبهذا الأسلوب، لن يتجرأ المدين بالطعن بما يطلبه اليهودي من ديون، وتكون أيضاً وسيلة رعب للآخرين بالسداد الفوري كي لا ينالهم نصيب من الإهانة). قال التاجر:

- إذا لم يرتعب المدينون لي، فلن يلتزم أحد بالسداد. والتاجر لا يمتلك غير رأس المال، وأي تأخير في السداد يعتبر التاجر مفلساً.

***

اليوم التالي، غادرا بصحبة البدوي (مرشد) باتجاه مأرب في قافلة من الجمّال. دليل الرحلة تعمد طريق تضليلية وأطول من المعتادة عبر بهم الصحراء. والسبب أنه يحمل أمانة مبلغ من المال تخص تاجراً في مأرب مع الحذر من الوقوع في يد قطاع الطرق. عبروا الصحراء في اتجاه لا أحد يجرؤ على سلوكه لتحرك الرمال وغرق نصف جزء من ساقي الجمال وبالكاد كان يرفعها وكذلك الجمال. طالت المسافة غير المتوقعة ونفد الماء وزاد العطش ولا شيء غير الرمال والشمس الحارقة. منذ

أيام، حبشوش لم يعد يستحسن هذه الرحلة وغرابة معلمه. لذا، فهو يفقد أعصابه بين الحين والآخر. وزاد على ذلك المشي في طريق الرمال المتحركة وقد أضناه ذلك. فبالكاد ينتزع قدميه من بين الرمال، فقال للدليل (مرشد) بغضب:

- لماذا تتعمد قتلنا؟ ألا تخاف الله حتى تسلك بنك هذا المسلك؟
- إنه أكثر أماناً.
- أتقصد أن العطش والموت أكثر أماناً؟!

صمت البدوي وتابع حبشوش:

- كيف تجرؤ على المغامرة في صحراء قاتلة؟ من أين لنا الماء؟ جف جسمي عطشا.
- بالله، أصمت ياذا اليهودي، أتركها على الله. (قالها بنزق...)
- كيف أصمت وأنت لا تحسن القرار؟!

غضب يزيد وهو على ظهر الجمل، وقال لحبشوش:

- أسكت يا حبشوش. لست وحدك من نال منه العطش. فثلاثتنا عطشى. وما ذنب البدوي في عطشنا؟ سيفرج الله علينا.

أخفض حبشوش صوته وأذعن لأمر معلمه وامتط الجمل الآخر وبقي البدوي يقود القافلة. أقبل الليل وهم في الصحراء ولا ماء بعد حتى

منصف الليل. ومن هناك، قدم صدى نباح الكلاب. لابد من الحياة هناك. تقدموا حتى وضح نبيح الكلاب واتضح لهم الموقع، اقتربوا شيئاً فشيئاً حتى سمعوا فتيل السلاح والسكون ساعد في وصول الأصوات المتوزعة للرجال الذين تمترسوا في شتى البقع. دب الرعب فيهم وارتموا على الرمال وانبطحوا. تقدم البدوي (مرشد) وصاح "يا رجال، الهمة يا رجال، والسلام". رد صوتا من هناك:

- من تكونوا؟ وما مقصدكم؟
- أنا بدوي، ومعي ضيفان.
- لست غازياً.
- لا والله، ضيوف أنهكهم العطش.

انسحبوا من متارسهم وصوبوا بنادقهم للأرض، وتقدم بعضهم لاصطحاب الضيوف. رحبوا بهم، وأجلسوهم حول موقد النار حيث مجلسهم. "إليّ بالماء"، هذا طلب حبشوش. فهو الذي نال منه التعب مبلغه. قال له أحد البدو:

- القهوة.
- بالله عليك ماء، كيف ستروينى القهوة؟!

أتوا له بالماء، شرب فوق طاقته واستلقى على ظهره يطالع القمر. شرب يزيد القليل واحتفظ بجزء من معدته فارغاً للأكل وكذلك الدليل (مرشد). تناولوا العشاء وتبادلوا الحديث في مواضيع عدة. طلب حبشوش مكاناً ليؤدي صلاته، أعطوه ماء الوضوء له وليزيد وإلى جانبهم خيمة اتخذاها مكان لصلاتهما.

صباحا اندهشوا لقربهم من منطقة (الفضي) قريب مأرب. وقيل لهما إن من خلفهم مواقع الملح الجبلي. وأنهم تجاوزوا الصحراء المميتة. حبشوش، كعادته، يتعرف على الناس والأنساب والجذور والمناطق مثل أي يمني. أما يزيد فمنذ الصباح وهو يسأل ويدون الإجابات في قراطيسه، ويدون حدود المنطقة على شكل خارطة وألقاب البدو والقبائل المحيطة.

تجول حبشوش في المنطقة، فوجد ما يشتهيه. اقترب وتصفح وجه الرجل وقال له:

- بالله نفس. (تودد وضعف أمام رغبة للتبغ).
- جباك.

تناول حبشوش القصبة وأحسن مسنده وأخذ نفساً طويلاً يليه نفس حتى نفد الدخان. لم يشبع رغبته بعد، فاستدار نحو البدوي وقال:

- أسألك بالله، جدد التبغ.

- على عيني.

أخرج وعاء التبغ وإذا به نخالة الشعير يستخدمها البدو بدلا من التبغ. أشبع بعضاً من رغبته بالتدخين وإن كان نكهتها تختلف كثيرا عن أوراق التنباك. ثم عاد ليزيد المنهمك في الكتابة. جلس إلى جانبه، طوى يزيد القرطاس وسأل حبشوش:

- الوضع جيد؟
- نعم.
- عرفت البدو وتحققت من كل شيء. (يقصد التحقق بمن أقاربهم وأنسابهم ومعارفهم على الطريقة اليمنية لتقييم نواياهم).
- نعم سيدي. إنهم طيبون ومسالمون ونحن في أمان وفي حمايتهم.
- إذاً، إرسل مكتوباً مع دليلنا مرشداً ليعود به إلى سالم بن سعيد وابلغه أننا وصلنا ونحن في مأمن هنا وأننا قريبون من مأرب. وأن يتمسك بالتوصية بها استأمناه ألا يسلمها لأحد غير ما اتفقنا عليه ونلتقي في صنعاء.

كتب حبشوش الرسالة، ومضى بها البدوي مرشد إلى مبتغاها. وعاد حبشوش للتجول بين البدو للمعرفة الإضافية. قيل له إن الغداء سيكون عند عاقل البدو. لا فرق عنده أين سيكون. الأهم هو الغداء. جلس أمام

خيمة عاقل البدو وقد بلغت الشمس كبد السماء، وعلى موقد النار الطعام يطيب، توجهت امرأتان للدخول إلى مكان خاص بالمؤونة الغذائية، وبينما هما يخرجان الدقيق حتى أقبل رجل كهل يصر على الدخول إلى مخزن المؤونة، أمسكتا به لصده وهو يصر على الدخول ويدفع بنفسه بقوة، لا هو استطاع الدخول ولا هن استطعن منعه. وبقي الحال كما هو عليه، كلٌّ يحاول. ارتفع صوت المرأتين قليلاً. وبينما كان يمرّ بدوي وشاهد ذلك، اقترب وسحب جنبيته وطعن الكهل في بطنه. فسقط أرضا وسال الدم. حبشوش يشاهد ذلك وعرف بالنتيجة، انسحب وركض إلى خيمة يتواجد فيها يزيد، تعالت أصوات النسوة وعمت الفوضى. دخل خيمة يزيد وقد انقطعت أنفاسه وهو يقول بكلمات متقطعة نتيجة الركض:

- بسرعة، بسرعة نهرب من هنا. الفتنة.

انتصب يزيد وبدا مرتبكا في جمع أموره. فتيل البنادق تقرع من كل مكان والخيم تتزاحم بين فوضى البدو، بدأت الفتنة وأطلقت أول طلقة من بندقية، اشتعلت الفتنة. انقسم البدو إلى طرفين، وتمترس كل طرف في جهة. تبعتها باقي البنادق. تحاصر يزيد وحبشوش، تمترس البدو من أمامهما ومن ورائهما.

- لم يسعفنا الوقت، انبطح يا معلمي. (هكذا قال حبشوش وهو محبط).

انبطحا أرضاً والأعيرة النارية تسيطر على الموقف، يصرخ يزيد:

- ما العمل؟
- الصبر، قد ورطنا.
- هذا هو الأمان عند البدو الذي قلت إنك متأكد منه؟
- الفتنة ما لها علاقة بالأمان، الفتنة تحول الملائكة إلى شياطين. لازم نقتنص الفرصة ونهرب.
- وكيف؟
- نحن غرباء ولن يتعمد أحد من الطرفين أصابتنا.
- وإن أصابونا؟
- نندفن في أرضهم.

فجأة، إذا بصوت امرأة يجلجل (يا ربعاه السلم) تبعتها أصوت نساء بكلمة (السلم)

- الآن يبدأ الفرج. عز الله أن هذه ثاني مرة أشوف هذا الحدث بحياتي.
- طوال عمرك في بلاد الفتن.

- لا يا معلمي، ليس هذا ما أقصد. هون عليك بالصبر وسترى.

استمر صوت المرأة (يا ربعاه السلم) وجل صوت باقي النساء بكلمة (السلم) مرات عديدة. كل رجل يسمع ذلك، يوقف إطلاق النار وقد شوت الشمس الأجساد. تدريجيا، تصمت الأعيرة النارية حيث توسطت المعركة امرأة وقد نزعت وشاح شعرها وبيدها خنجر، قصت خصلة من شعرها وأصوات باقي النسوة مازال يردد (السلم يالبدوية) لأنها تجرأت وتشريفاً لها. رفعت خصلة شعرها ولوحت بيديها وهي تصيح (يا ربعاه السلم) ورمت بخصلة شعرها على الأرض. وقف الرجال في المتارس وأمالوا بنادقهم أرضا وخطوا خطوات تجاهها وبأصواتهم البدوية راحوا يرددون (عليتي يا بنت الكرام، عليتي يا بنت الكرام). بدا يزيد مبهوتا وغير مصدق لهكذا مجتمع وكيف يصنع لنفسه قانونه ويستعيد إرثه الحضاري سلما وحربا تحت لواء القبيلة وفي غياب نظام وقوانين الدولة.

قال حبشوش مفتخرا:

- أوقفت الحرب تلك الحرة. هكذا اليمن يا معلمي. كل يوم ترى شيئاً مختلفاً. شعر المرأة مقدس والمرأة راعية حرب وسلم مثلها مثل الرجل وقل ما ترى امرأة تنشد السلم بخصلة شعرها وتخضع الطرفين للصلح. للمرأة هيبتها.

- والقتيل، من يتحمل دمه؟
- الأمر حوار بين العقال والدية مقصد الحل.

بينما تجمع الخصمان حول المرأة لتكريمها وخضوعهم لعرفها ووقف الحرب، تقرر أن يكون موعد وليمة الصلح غدا والبدو مشغولون ونسوا أمر الضيوف، فقال حبشوش:

- طار الغداء اليوم يا معلمي. لنرحل، وسنجد خلف منطقتهم مكاناً. وعسى يلطف الله بنا خيرا من أن نهلك تحت أشعة الشمس جوعا وعطشا.

***

خرجا من المنطقة وها هي منطقة (الفضي) خلفهم على مسيرة ثلاث ساعات. ظهرت لهما خرابة يتوسطها مبنى قديم مبني من الأحجار ويبدو أنه للأقدمين. وقف يزيد تحت الخرابة يتصفحها ويداه تمسكان بجهتي حزامه، فقال لحبشوش:

- مهمتك الآن، إصعد وانظر ماذا تجد.
- أمرك معلمي.

خلف صخرة، أسند يزيد ظهره ليستريح وحبشوش يسرع الخطى. فالشمس قريبة من الغروب. دخل للخرابة. في آخرها، تقابل مع بدوي جالس وبيده عصاه ومن وقع المفاجأة شهق الإثنان وكلٌ منهما استعد للقتال والدفاع عن نفسه. البدوي سحب جنبيته وحبشوش أحكم القبضة على عصاه.

- عليك اللعنة، أي جنس من البشر أنت؟ (هكذا بادره البدوي...)
- السلام عليكم. أنا غريب وأبحث عن باب الدار المقابل، أبحث عن ماء.

أعاد جنبيته إلى مكانها وتصافحا، فقال البدوي:

- لا يوجد أحد يسكن هنا، أنها خرابة وأنا أرعى الإبل بالوادي. ومن هذا المكان المرتفع، أتابعها.
- أين أجد مساكن الناس؟

جذبه إلى اتجاه الوادي وأشار إلى موقع مساكن للناس. نزل حبشوش من هذا المرتفع ومضى هو ويزيد في الوادي. وفي منتصف الوادي، مجموعة من الشباب. تقدم أحدهما نحو حبشوش وهو يشير إليه ويقول:

- قف عندك يا رجل، سلبك يفيدك. (يقصد سلم ما تملك تسلم حياتك...)

- لعن الله إبليسك. ليس لدي ما تنهبه، ولا معي ما يطعمني، ولا تلاقي معي غير الموت.

قفز الشاب، والتحم مع حبشوش، وبدأ كلٌ منهما يظهر نفسه على الآخر لينتصر. في خضم التلاحم الجسدي بينهما، يزيد يراقب النتيجة بحذر. وباقي الشباب تنتظر نتيجة النصر. يزيد مستعد لخوض المعركة الجسدية. فلديه قدرات الدفاع عن النفس وتدرب عليها لكنه أخذ تحذير حاخام عدن على محمل الجد بأن لا يظهر نفسه سوى أنه ضعيف ومسكين. والأهم أن هؤلاء البدو لا يمتلكون سلاحاً نارياً. لم ينتصر حبشوش ولم يهزم. فكلاهما متكافئان ومازالا يتصارعان. اقترب البدوي الذي التقى به حبشوش بداخل الخرابة، فقال له حبشوش:

- أنظر لهذا الشيطان الذي اعترض طريقي وأنا غريب ولا أملك شيئاً وهو يريد الفتنة بيني وبينه وأنا وأنت بحكم الجار.

أجاب البدوي دعوى حبشوش:

- لا عليك، أنجيك في بلادي من كل معترض. الشاب هو ابني وانا أرسلته ليأخذ المال الذي معكم فقط، فقد وهبكما ربي لي هبة، وأنا وولدي أولى من غيرنا بما تمتلكون.

فقال له حبشوش بغضب شديد لم يسبق له مثيل برغم من طباعه الهادئة:

- لعنة الله على إبليسك. قلت لك إنك بمقام جاري. فلا نخوة لك ولا مروءة. ولو عندي مال لما وجدتني هنا. ولو كان لنا المال لقدمته لكما بلا قتال بنفس طيبة. أما وأن مرادكم نهب الدقيق والسمن الذي لا يكفينا ليوم، فلن تنالوه حتى بالقتال. فلا فرق بين الموت جوعا أو قتالا. ومادام أننا سنقاتل على حياتنا، فلابد أن ينصرنا الله وسنقتلكما بسبب تعرضكما لطريقنا.
- لا نريد الدقيق والسمن. فقط المال.

افتك التلاحم بينهما وقال حبشوش مبرهنا وهو يفتح محفظته: "أنظر لا أملك شيئاً"، أخرج مائة قرش وكتاباً دينياً، وإذا بالشاب يسحب المحفظة ويهرب بها، لحقه حبشوش وطرحه أرضا وتعاركا ووجه له عدة لكمات موجعة أجبرت الأب على التدخل ليصلح بينهما. وجدوا مع حبشوش إبرة، أراد الشاب أخذها، رفض حبشوش وكانت نتيجة الصلح أن يكون الشاب دليلهما إلى أقرب مكان فيه سكن وينال الإبرة ثمن أتعابه.

في الطريق قال يزيد لحبشوش بالعبرية:

- وجدتك شرسا اليوم ومقاتلا، ودائما تنجي نفسك من الأزمات بإسلوب الحوار.

- أغضبني لأني قلت له إني في مقام جاره، وخانني وقد جلست معه في الخرابة، وتسالمنا. ولو علم البدو بصنيعته لقتلوه أو طبقوا حكم الحرابة عليه لأنه يقتل المروءة بين الناس ويخون الاستغاثة وذلك ليس من أخلاق اليمني أيا كان.

الشاب يسمع كلامهما باللغة العبرية وهو متأكد أنهما لن ينالا منه وهم لوحدهم لأن نادرا ما يخون الإنسان إنسانا في هذه الأرض غيره هو ومن هم على شاكلته. فقط إن أراد أحدهم القتل بغية السرقة فهو يفاجئ المغدور وينال منه فذلك أهون. أما الحوار معه والغدر أو تناول الطعام معا أو قبول الأمان، فذلك يدخل في نطاق العيب الأسود وتثور له القبائل ولا تسمح بذلك العيب.

في منتصف الليل، مازالوا يمشون حتى بان لهم مطرحاً للبدو. فطلب الشاب أجرته وهي الإبرة وهو يترجى حبشوش أن يعطيها له وأن يدعه يعود ولا يقترب أكثر لأن بينهم وبين أهل مطرح البدو ثأر. فقال له حبشوش معاتبا:

- لم تكن ذا نخوة معنا وكنت لئيماً وخائناً لأعراف اليمنيين وشرعهم. وأبوك خانني ونحن تسالمنا وقلت له أنا بمثابة جارك. ولو تمكن من قتلنا لقتلنا. ومع ذلك، أعطيك درساً في الشهامة

والنخوة وأقول لك أننا لسنا مثلك أنت وأبيك، وأننا نقدر المواقف ونلتزم بشرع القبائل وشرائع السماء. ولو كنت وغدا مثلك لسلمتك للبدو الذين أمامنا. لكن أعوذ بالله من الخيانة. (مد له الإبرة وتابع الكلام...) هذه الإبر كما اتفقنا، وارجع بحفظ الله وأياك والعمل الخسيس مرة ثانية.

أخذ الشاب الإبرة وكأن الأرض ابتلعته. تقدم خطوتان وهو ملتفت لحبشوش، خانته قدماه وسقط أرضا، وقف ومشى وهو يتلفت للخلف ثم إلى الأمام ليتحسس الطريق وكأنه مقتول من كلام حبشوش.

***

استقر بهما الحال أمام مسجد البدو، جلسا وانتظرا حتى جاء الفجر، دخل المصلون المسجد. وعند انتهاء الصلاة، اجتمعوا عليهم وكلٌ يريدهما ضيفه اليوم. لحظة لا توصف من الرضى، حتى أقبل رجل غريب الأطوار رمقهما بنظرات الاشمئزاز، ودخل المسجد، تحدث لمن تبقى فيه، خرج الواحد تلو الآخر وتحول الموقف إلى كتلة من الأسئلة للتحقق منهم. قال لهم ذلك الرجل أمام الجميع:

- أنتم لستم عرباً، أنتم من الزيغ.

رد حبشوش عليه:

- نحن عرب وناظرني بالأنساب.

لم يغير ذلك الموقف وامتعضت القلوب وغادروا الواحد تلو الآخر وبقى رجل واحد قبيلي لم يستحسن صنيعة جماعته واصطحبهما إلى بيته وأكرمهما بما يقدر عليه. ولم يمكثا عنده سوى ساعات، وأخذا بالمسير لوحدهما حتى جاء المغيب ووصلا إلى منطقة (الفضية) بذاتها. تزودا بالماء من مخيم بني شداد، وواصلا المسير لساعة حتى دخلا تحت نفوذ بني عبيدة. رحب بهم شيخهم وأكرمهم واستضافهم لأربعة أيام نالا فيها الاحترام والتقدير من الجميع.

في اليوم الأول، ذهبا لاستطلاع الخرائب ونسخ النقوش المتاحة في أرض تقع تحت نفوذ (بني عبيدة). واليوم التالي ضيافة وسمحوا لهما حضور جمعهم الحربي ولمشاهدة تأهبهم للحرب مع الشريف عبد الرحمن. في ساحة يجتمع فيها المقاتلون لتأكيد الاستمرار في الحرب، بدأوا بزامل تصدح بها حناجرهم بصوت وأحد (قبح الله وجهك يا لدليل... لبعد الحرايب عافية...بعد الحرايب ما نميل...بعد الحرايب باتجيك العلوم الشافية...) الزامل من جهة، هو كلام شعبي تصدح به الحناجر بلحن شعبي موحد يعبر عن الموقف. وهو بمثابة رسالة سياسية تصل إلى الخصم ويفهم

مضمونها طلباً لصلح أو استمراراً للحرب أو إعلام الخصم بتحالف ضده. ومن جهة أخرى، وسيلة تفاخر بالأمجاد والانتصارات أو استنهاض. وترديده عن القتال حسب الظرف المراد. لم يفهم يزيد من هذا شيئاً، فقد لاحظ حبشوش يحرك رأسه طربا وبدا مستمتعا ويردد الزامل، ما إن انتهوا وبدأت النقاشات العسكرية وكيف يحرسون مداخل منطقتهم وما هي الكمائن الممكنة للتحكم بالمعركة القادمة، حتى جذب يزيد حبشوش إلى جانبه وسأله:

- ما هذه الأصوات والتي لم أفهم منها حرفاً؟!
- هذا زامل.
- بمعنى؟!
- هذه قصائد تعبر عن الوضع الحربي ومنها رسالة مهمة لمن يفكر بخيانة تحالفهم من الداخل لصالح الخصم.
- كيف؟ حتى أني وجدتك تردد معهم.
- من يسمع الزامل يعلم بالمقصود أنهم يشكون بمن ينوي خيانتهم وأنه سينفضح أمره وسيعاقب. وهذا الزامل قديم وقاله اليمنيون عند دحرهم الحملة الرومانية، حيث اعتقدوا أن الحملة الرومانية ما كان لها أن تصل دون عميل ودليل من أبناء الأرض خبر الطرق

والمسالك والسهول. وجميعنا نحفظها وتقول: "قبح الله وجهك يا
لدليل، لبعد الحرايب عافية، بعد الحرايب ما نميل، بعد الحرايب با
تجيك العلوم الشافية." والحرايب تعني الحروب.

***

وكعادته يزيد يدون أهم ما يميز المناطق في آخر ساعات بقائه قبل المغادرة. فقد استغل وقته حين خرج حبشوش لبعض حاجياته. أمسك قلمه وقرطاسه وكتب بالفرنسية: "كان مسار رحلتنا شاق جدا، ظللنا الطريق، حيث لا يوجد أي أثر لإنسان أو حيوان يدلنا. وبعد تيهان أرهقنا، أدركنا عند المغيب موقع (الفطية) حيث يخيم بنو شداد بالقرب من برج معمر. هنا بعض النقوش التي لا تزال ظاهرة يتصل هذا الموقع بالوادي الذي يقود إلى السهل الصحراوي بعد مسير نهار حيث يستثمر العرب منجم خام ويبيعونه في صنعاء وحضرموت. المنطقة في حالة حرب، قبيلة (عبيدة) القوية والمالكة لمنجم الملح تمردت على (الشريف عبد الرحمن) حاكم مأرب الذي يفرض ضريبة عالية على حملات الملح الداخلة على عاصمته، وانتقاماً قاموا بغزوة مأرب ونهبها، حينها هرب الشريف عبد الرحمن إلى الجوف للبحث عن فرسان للهجوم على قبيلة عبيدة. قبيلة

عبيدة على أهبة الاستعداد، لديهم حراسة في المناطق المرتفعة للمراقبة لأي تحرك للخصم، وبسبب هذا الوضع أجبرت على البقاء في (الفطية) عدة أيام. هذه الفترة أدرس طبائع هذه القبيلة المشاغبة التي وصفها (أرنو) في ظرف مختلف. بالنسبة لي فقد تلقيت معاملة حسنة منهم، يتنافسون على الكرم رجالاً ونساء ليؤمنوا لي إقامة ممتعة وهذه تقاليد كرم الضيافة هنا والتي أذكرها لأنها أثرت في قلبي وأذكرها دائما كرد للجميل"...

أرسل شيخ بني عبيدة عشرة مقاتلين وأربعة فرسان لمرافقتهما إلى آخر نقطة نفوذ آمنة، أشاروا لهما بالطريق السليم وعاد المقاتلون أدراجهم.

***

"ذهب حبشوش ولم يعد ولا أظنه عائداً، ولست مطمئنة للحاخام المقدسي" هذا ما قالته ميمونة لأختها سعيدة التي ردت بإحساس يقول لها أن حبشوش صادق. ميمونة لا تريد لأختها الذبح بسبب خطيئتها وراحت تقنعها بأن تهرب، رفضت سعيدة لكونها لا تدري كيف تفعل ذلك، فكرت ميمونة ولم تجد أحداً في عقلها يمكن الوثوق به لتوصيلها إلى حاخام صنعاء لتستجير به أو تستجير بشيخ قبيلة في تلك المنطقة، لكنها

تحث اختها على المغامرة فهي ميتة ميتة سواء بالذبح أو في الهروب. لم تقو سعيدة على ذلك ولم تجد في داخلها ما يشجعها على المغامرة.

خرجت سعيدة من الدار نحو الوادي لتجلب الماء وقد ذبلت كما الزهرة العطشة، تمشي منكسرة وفوق رأسها جرة الماء الصالح للشرب الذي يُجلب من عين طبيعية. لم تعد تشعر بثقلها وهي تخاطب نفسها: "معقول الأول ضحك عليا وهو من ملتي والثاني حاخام وما رجع، يا الله ما عاد في اليهود خير ولا خوف منك يارب، أين اهرب من هذه المصيبة؟..." استوقفها شاب مار اسمه عبدالرحيم منصوري:

- ممكن تسقيني الماء يالقبيلية، الله يسقيكي من حوض النبي.

توقفت وأنزلت الجرة وهي تقول:

- أشرب يالقبيلي أنا يهودية.
- عز الله مقدارك يا اليهودية.

شرب الماء وعلقت عينيه في عينيها، أسرته رموشها الطويلة وحاجبها العريض وصوتها الجميل وقوامها، رفع لها الجرة لتضعها فوق رأسها وشكرها، تابعت مشيها وتابعها بعينيه وقد طرب لها، تبعها ليعرف مسلكها حتى دخلت الدار.

***

دخلا باب مأرب، رغم فضول حبشوش واجتماعيته، فقد جعله ذلك متميزاً بالجراءة. أبصر هناك تجمعاً للقبائل فسار نحوه للتعرف على الناس وأحوالهم. يزيد ينهاه، فقال له حبشوش "إني أدرى بأهل البلاد وصفاتهم، لا خوف من تجمع القبائل، الخوف من الطرق المعزولة". ها هي فرصة حبشوش للتعرف على شكل أمير مأرب عن قرب. نظرات سريعة وجولة بين القبائل ثم أثمر فضوله. وجد قبيلياً يعرفه من صنعاء، السلام حار بينهما، وأخذ ورد بالكلام ثم ذهبا معه إلى داره تناولا خبز الشعير والقهوة. اكلا نصفها وأخذا البقية زاداً لرحلتهما. انتهز يزيد الفرصة عند انشغال القبيلي على الباب بأمر ما مع زوجته، فقال لحبشوش بالعبرية "اذهب وانظر ماذا تجد من مخطوطات في هذه المنطقة ولا تتأخر لأني لا أرغب في البقاء هنا ولو ساعة واحدة".

ساعتان وعاد إليه بنسخ خمس نقوش. خرجا في الحال من دار القبيلي وتوجها إلى سوق مأرب، جالا في زواياه. اقتربا من حرفي يهودي في صناعة قلائد الفضة، تبادلوا السلام ورحب بهم وأرسل ابنه لجلب شراب نقيع البرقوق لضيفيه، تبادلوا أطراف الحديث وسأله حبشوش إن كان يمتلك مخطوطات، اعتذر لهما لأنه لا يملك وها هو مصر على أن ينزلا ضيفين في

بيته. شكره حبشوش وقال إنه سيواصل مسيرته. وفي هذه الأثناء، وقف الدوشان على حجر مرتفعة يعلن الظاهرة (وهي إعلان رسمي أصدره ممثل السلطة لحاكم السوق) صدح صوته المجلجل: "يا من سمع الظاهرة عليكم بالحضور لساحة السوق... يا من سمع الظاهرة عليكم بالحضور لساحة السوق...يقول لكم حاكم السوق بأنه قد صدرت الأوامر بأن من عليه زكاة الحبوب لهذا العام فليوردوها إلى مدافن الحكومة في محل حاكم السوق"...الحاضر يعلم الغائب". اقترب يزيد من بين الجمع ليشاهد هذا الإعلان وهو يتفحص شكل الدوشان بملابس شعبية جميلة تميزه عن غيرة من أبناء القبائل، قميص أسود له كُمَّان طويلان مفتوحان يربطهما إلى خلف الظهر تاركا ذراعيه عاريتين، ويلف نصف جسمه الأسفل بثوب أبيض عليه نقوش يدوية يسمى (مقطب)، ويحتزم بحزام العسيب حول بطنه وظهره مصنوع، عليه نقوش بخيوط ذهبية وشارات من الفضة، والجنبية تربط بحزام العسيب حول الخاصرة. يضع على رأسه قبع أسود مصبوغ بالنيلة المخلوطة مع الصمغ. يحمل بيده عصا على رأسها حربة يتكئ عليها.

انتهى الدوشان من إعلان الظاهر، وأفسح له الناس للمغادرة بكل احترام. عاد يزيد إلى حبشوش وانتظر حتى انتهى الحرفي اليهودي من الكلام وراح يلبي مطلب زبون، أمسك يزيد بكم حبشوش وسأله:

- من هذا الذي صدح بصوته وأصغت له الناس، شكله يختلف عن باقي القبائل؟

أجاب بعد أن ارتشف نقيع البرقوق:

- هذا يا معلمي الدوشـان. مهمته إعلان القرارات، والأهم لديه مهمة اجتماعية وإعلامية لكل قبيلة تبرز أخبارها وأمجادها ويعمل على تحسين علاقاتهـا مع القبائل المجـاورة لـها. وهذا سبب وجود مهمة الدوشـان. فكل قيل أو شيخ أو ذي وجاهـة يـسعى لإبراز وجوده في المجتمع يستحضر ماضياً مجيداً وعريقاً لآبائه وجدوده وجذوره. الحاجة لهذه الوظيفة أوجدت الدوشان كشخصية اجتماعية عامة تحفظ الأنساب وتكون حاضرة عند كل مـولود أو حدث اجتماعي سواء كان بـطولياً أو سلماً بعد حرب أو أي حدث محمود قبليا ويشكر فاعله. هو إنسان ليس من أبناء القبائل...

سأل يزيد مستغرباً وغير مصدق:

- هذا صاحب هذه الملابس الجميلة والتي بدا لي من الوهلة الأولى حاكماً، ليس من أبناء القبائل؟!

- لا. لكنه مهم جدا. أطلق عليه قديماً لقب "ذو شأن" ويقصد بذلك أن في جعبته أخبار وسوالف وإعلام ومدح القبيلة التي ينتمي إليها وموصل الرسائل بين القبائل سلما وحربا لا يتعرض لأي أذى ومن العيب الأسود التعدي عليه لأنه من أتباع القبيلة وليس من صلبها. ومادام ناقلاً للأخبار وإعلام الحرب حسب ما يرى ويسمع أو يؤمر، فلا يتحمل المسؤولية عما يقوله أو ينقله عن المتحاربين. وعندما تكون الحرب مع المستعمر أو مع طرف خارج المجتمع القبلي، فالدوشان ينزع عن نفسه ثوب الحياد ويتحول إلى مهيج للمشاعر الحربية ومحرض للقوم للتوجه للحرب والقتال، يثير مشاعر المترددين والمتقاعسين من أبناء القبائل ويحرك فيهم روح القتال والشراسة وهو يذكرهم بأمجاد جدودهم، يحمل الراية ويتقدم الصفوف.

- حسب التاريخ العربي، هذا هو شاعر الحرب وهو من أهم رجال القبيلة يا حبشوش؟!

- في اليمن، هو ينتمي إلى القبيلة وليس من صلبها وهو متنقل إذا دعت الحاجة. له وظائف اجتماعية عدة، وكما ذكرت يا معلمي، فهو شاعر القبيلة والمادح لها وناشر مآثرها وخصالها الحميدة والبطولية عبر قصائد شعبية غنائية يصدح بها في المناسبات كالزواج والختان والصلح القبلي والجمع قبل الحرب، يصدح بصوته المجلجل بادئاً بكـلمات لا يقولها سواه "حياك، وحيا أبـوك يا جِيد يا ابن الجِيد يا مُكرم الضيفان.. ويا، ويا .." ويتبع ذلك وصف ومدح بالتسلسل الأب والجد وفخذ العائلة والقبيلة. وما إن ينتهي حتى يتحول لمدح الضيف. فهو يعلم الأنساب جيدا. ما يميزه هو طلاقة وسلاطة اللســان. وهذا سبب كاف ليتحاشاه الناس من القبائل ويراضونه ليأمنوا هجاءه وحملة التشويه بين القبائل.
- مستغرب بأنه ينتمي إلى القبيلة وليس من صلبها.
- نعم. فلا تناسبه القبائل إطلاقاً.
- من أين أصل الدوشان؟!
- والله يا تاج رأسي ما عندي معلومة سوى تاريخ شفهي عن أصل الدوشان.

- ليس بيمني؟
- لا. بل يمني. يقال عندما غزا الأحباش اليمن، هناك من تمرد عن الإجماع القبلي بمحاربة الأحباش وتحول لدليل لخطوط العبور والمسالك الآمنة للأحباش بغية تصفية حسابات قبلية ومناصرة المسيحية. وعندما هزمت القبائل الأحباش لم يقتلوا العملاء، بل أوكلوا لهم مهمة مدح القبائل في السلم والحرب والمناسبات بكافة أنواعها. وهذا نوع من الإذلال لهم. ويطلق على كل من صوته كبير ويصيح دائما بالدوشان لأن رفع الصوت من سمات الدوشان. من هنا اكتشفت القبائل حاجتها لمهنة تنقل أخبارها وتعزز من مديحها. وتطورت مهنته وسمي "ذو شأن" لأنه مهم جدا في واجهة القبيلة اليمنية وهو مكمل للهيكل والوجود القبلي. وأزيدك من الشعر بيتاً سيدي ومعلمي، الدوشان يمتلك القبيلة ومدونة الملكية في بصيرة مكتوبة ومتعارفة بين الدواشين، والمالك يحق له بيع تبعيته للقبيلة أو شراء تبعية لقبيلة أخرى، وغالبا يتم بيع التبعية لدوشان آخر في حال ما كان القبيلي بخيلاً أو غير منصف

لدوشان التبعي، ويعتبر من الخزي والعار أن يتم البيع لأن المفهوم عند القبائل بأن القبيلي مُقصر حمل العيب.

***

خرجا من السوق وتابعا مسيرتهما حتى أطلا بالنظر على مسجد سليمان بن داود على طريقهما نحو السد. بنى السبئيون سد مأرب (سد سبأ، أو العرم، أو الرحاب) في القرن الثامن ق.م وقِيل في القرن العاشر قبل الميلاد. وكان السد سببا رئيسياً في ازدهار وقوة مملكة سبأ. كانت معجزته هندسية بامتياز، ولا مثيل له في تاريخ شبه الجزيرة العربية. منه، سقيت أراض المملكة وسميت بالجنتين. وأدى ازدهار الزراعة إلى نمو نشاط تجاري لا مثيل له، وتمثل في تسويق وتوزيع المنتجات الزراعية إلى مختلف الحضارات الأخرى، واحتكرت حضارات اليمن زراعة وتجارة السلع الهامة المتمثلة حصراً باللبان والبخور. وهذا أدى إلى التحكم بمسارات القوافل التجارية والتي عرفت عالمياً بطريق البخور. لذا، روج السبئيون شائعات صدقها اليونانيون لفترة طويلة من الزمن بأن هناك ثعابين مجنحة لا تسمح لأحد سوى السبئين بالاقتراب من مصادر إنتاج البخور واللبان.

أمام السد، بين الجبلين توقفا يتطلعان إلى منظر مهيب. أمام حضارة إنسانية لا مثيل لها، يأخذ يزيد نفسا عميقا من ذلك الهواء المتسارع القادم من ثنايا الجبلين القادم من جدران دارا عملاق أمام السد. فقال حبشوش منتشياً بفخر:

- ما أعظم الإنسان اليمني القديم، صروحهم إلى الآن مشيدة.

ذلك لم يتفق معه يزيد بالمطلق:

- صروح دون مستقبل، لم تستمر الحضارة لتصنع عقل الإنسان بما يتناسب مع ماضيه.
- يا معلمي، الإنسان اليمني القديم نافس إمبراطوريات عالمية.
- لكنه فشل.
- المهم أنه نافس ووصل إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها.
- محاولات استعمارية فاشلة إن صح هذا المنقول تاريخيا، فالشك مازال قائما لدى العلماء.
- يا معلمي، نحن نقف أمام إحدى أقدم حضارات الإنسان، (يشير بيديه) وهذا شاهد على شموخها.
- يا حبشوش، أرجو أن لا تنحاز للحضارة اليمنية على حساب يهوديتك وأن لا يكونوا إخواننا هنا بنفس منطقك.

- يا سيدي وتاج رأسي. الافتخار بحضارة اليمن كوني يهودياً لا يلغي الإيمان بالشريعة الدينية المبجلة.
- بل انحياز خاطئ في مستقبل ينتظرنا اليهود بجمع كلمتنا وتوحيد أرواحنا في حضرة أرض الميعاد.
- الذي أعرفه أني ولدت يمنياً واجدادي هنا منذ آلالف السنين ولم يأتوا من أي مكان غير اليمن. وصدروا الحضارة ولم يستوردوا حرفاً.
- أتدري أن العنصرية بيننا اليهود وكلٌ يرى عرقه الأنبل. والأصل أن هي سبب تشتتنا إلى الآن. وحان الوقت للتخلي عنها ونعتز بيهوديتنا قبل أوطاننا.
- استغفر الله يا معلمي، لست ممن يتنكر ليهوديته، ولا ترميني بهذه الدعوى التي لا ظاهرها ولا باطنها في قلبي. وعندما أعتز بيمنيتي لأنها بلادي فقط.
- ستكشف لكم الأيام صحة كلامي، وستلتحقون بركب التيار اليهودي الموحد. وإن تأخرتم، فلابد لكم من المضي قدما نحو خطنا المقدس. ولن يستمر ذلك الأمان في ظل جيرانكم من القبائل. وإذا حان وقت افتراسكم، لن تبقى فيكم عظمة واحد

كتلك التي رأيناها قبل قليل في طريقنا. ولا تنسوا أن أكبر عدو للمسلم هو اليهودي المسكين أمثالك. في أي لحظة، سينهشون لحومكم.

- اسأل الله اللطف بنا، واسأله بشمسه وقمره أن يهدينا إلى الطريق السليم.

صمتنا قليلا وما زال في نفس يزيد شيء، فسأل:

- حسب ما رأت عيناي، تبادر إلى ذهني سؤال مهم وهو الفرق بينكم كيهود وبين المسلمين؟! (سأل بنزق..)

بهدوء وبرودة أعصاب رد:

- الديانة يا معلمي. لنا يهوديتنا ولهم إسلامهم. لا نحن ندخل دينهم ولا هم يدخلون. لا نقرأ قرآنهم بقصد الثواب من الله ولا هم يفعلون. لنا توراتنا ولهم قرآنهم.
- ها أنتم تستخدمون أدعيتهم؟!
- اللغة العربية وسيلة للتفكير والتنظير والتفلسف وعلم الكلام وعلم العقيدة والشعر والروحانيات لحاخامات أمثال نثائل بن فيومي، وموسى أبن ميمون، وأبن كمون.
- لا أتفهم تساويكم في أسلوب الحياة.

- بهذه لم تصب. نتساوى بالعادات والتقاليد المشتركة فلا هم ولا نحن اكتسبنا عادات وتقاليد حديثة، فجميعها موروث من قبل الميلاد، وجاء الإسلام فتغير دين الكثير من اليهود والوثنيين والمسيحيين إلى الإسلام ولم تتغير العادات والتقاليد التي نشترك بها منذ المنبع الأول. الإسلام دخل اليمن كدين وجاء بكتاب وفقه وسيرة ولم يأت كعادات وتقاليد شعبية واجتماعية يلزم اتباعها. فما كان موجوداً من موروث حضاري موجود حتى اليوم. فلا تلومنا على موروثنا الثقافي والحضاري والتاريخي المشترك. ولكن لمنا لو تخلينا عن نص واحد من صدر الكتاب المقدس أو حرف من مزامير السماء.
- لكن ارتباطكم وثيق وكأنكم تفكرون بنفس العقل.
- تداخلنا الاجتماعي مهم لا يعني إطلاقا أننا دخلنا إسلامهم، بل الاعتقاد بذلك هو رجم بالغيب واتهام لا يستند للعقل والمنطق وإجحاف ظالم بحقنا وعدم الاعتراف بإيماننا بيهوديتنا رغم تغير الظروف والأزمنة والعصور، قامت دول وسقطت دول منذ ١٢٥٠ سنة وهو عمر رسالة الإسلام. لو كنا كما اعتقدت ما كنت

أنت هنا ولا أنا معك بزنانير (يلمس خصلة الشعر الحلزونية المتدلية على جانب وجهه)

خطا حبشوش خطوات وقد انكتم صمتا يتبعه يزيد. فحصا ما يمكن فحصه ونسخه وقفلا بالطريق نحو صرواح.

***

كثيراً ما تحدث يزيد عن باريس، حكى ووصف الكثير لحبشوش. وأمام عرش بلقيس وقفا. لكن وقوف حبشوش كان مختلفاً فقد زاد طوله فخرا، مد يده باتجاه الصروح وهو يقول "من هنا أنطلق جدودي في رحلة طويلة إلى القدس لملاقاة الملك سليمان وأخذوا معهم الهدايا والألحان والقصائد". قضم يزيد جبينه، لم يستحسن هذا. فهو يعتقد عكس هذا الكلام. تجادل مع حبشوش أكثر من مرة بأن يهود اليمن قدموا من القدس وليسوا السكان الأصليين لليمن. يبقى الخلاف التاريخي قائماً حتى أن يزيد قال له قبل أيام: "أنا واثق من معلوماتي حتى تثبتوا العكس". اشتد الجدل بينهما للمرة الخامسة، ولم يقتنع أحدهما بطرح الآخر، فقال حبشوش: "عندما دخل الإسلام هناك، من القبائل من آمن وهناك من بقى على يهوديته." رد عليه "حسب تاريخ يهود اليمن، فإن الاستيطان اليهودي في اليمن جاء

بعد تدمير الهيكل الأول في أورشليم القدس عام ٥٨٦ قبل الميلاد.". هز حبشوش رأسه وقال بهدوء "اختلفنا كثيراً وأستدل البعض على قبور الحِمْيَريين في بيت شعاريم. لكني قرأت في الكثير من الكتب أن جدودنا كانوا ينقلون جثث الحاخامات لدفنها هناك. ومن جدودنا الذين ذهبوا إلى الملك سليمان وماتوا ودفنوا في أورشاليم، وكان لنا علاقة قوية مع يهود بابل، واستخدمنا التنقيط البابلي وكلمات آرامية وبابلية. مخطوطات التلمود البابلي في اليمن نسخة قديمة جدا. وهذا يدل على أننا أقدم من تدمير الهيكل في أورشاليم.". انتبه يزيد ليسأل: "هل يمكنني الحصول على مخطوطات التلمود البابلي؟". أجاب حبشوش بأنه لا يعلم ولكنه سمع ذلك من أبيه الحاخام يحيى. صمت يزيد قليلا ليفكر ثم سأل: "هل مرت عليك مخطوطة يرد فيها اسم اليمن أو سبأ؟" أجاب سريعا: "نعم، في كتب المشنأ لشمعون التيماني وهو يمني ذكر اسم (تيمان). هناك نسخ لدى حاخام صنعاء يمكنك التأكد عندما نعود إلى صنعاء. أما سبأ، فلها معاني (العلم) ويُقصد (علوم الحكمة القديمة) ومعنى آخر (الشخص العالم بأحوال النجوم والفلك) أشتهر جدودنا بأنهم أهل حكمة وعلم..

- حدثني عن المسيحية في اليمن يا حبشوش.

- كتب المؤرخ فيلستور يغوس المسيحي ٤٣٩م في كتابه تاريخ النصرانية بأن الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول أرسل بعض المبشرين المسيحيين إلى جنوب الجزيرة العربية بغرض نشر المسيحية هنا. وذكر بأن القائد ثيو فيلوس إندوس اشتكى إلى الإمبراطور الروماني بأن يهود اليمن وقفوا في وجههم لمنع التبشير. انتشرت المسيحية في بقاع عدة في اليمن، لكن الملك يوسف أسار يثأر (ذو نواس) سبق وحكيت لك عنه هو الذي يؤمن بالله الواحد ودعا إلى عبادته وكناه بالرحمن ونبذ الأوثان.
- في نجران حدثني القاضي محمد بن لغة عن وحشية الملك ذي نواس وما صنعه في نجران!
- هو من ملوك حِمْيَر القدماء استمر حتى ٥٢٥م. يقول مؤرخو المسيحية أنه كان ملكا يهودياً وقيل من أقيالها وبأنه المسؤول عن تدمير الأخدود حيث أعدم فيه نصارى نجران في اليمن والذين رفضوا اعتناق دينه. وكتب المؤرخ الحاخام اليمني يوسف بن داود القافح بأن ذا نواس لم يكن من اليهود لأننا لم نجد في كل المصادر التاريخية أدلة تشير إلى اتباع وصايا التوراة مثل السبت والأعياد أو لبس التفيلّين والأطعمة الخاصة بنا. وأنت تعرف يا معلمي بأنه لا

يجوز لأي يهودي أن يفرض ديننا على شخص أو شعب آخر عدا بني إسرائيل وأن قتل الأبرياء حرام وهو ذنب عظيم لا يغتفر. (إذا فرض يهودي دينه على غير اليهود، فقد سلك طريقاً مغايراً لوصايا التوراة). مصادر المسيحية أن الملك ذا نواس كان يهوديا وهو سبب فناء المسيحية في اليمن ولم يبق منهم سوى أشخاص فقط حتى اليوم. والمؤرخ الحاخام يوسف بن داود يقول إنه لم يكن يهودياً لأنه لم يتبع تعاليم اليهودية وقتل الأبرياء. حسب ما فهمت من خلاصة المصادر فأن ملوك اليهود لم يكونوا جميعا أتقياء وملتزمين بالتعاليم اليهودية. فمنهم اليهودي العاصي، ولمَ لا نتفهم بأن الملك يوسف ذا نواس كان يهودياً عاصياً وغير ملتزم بالتعاليم اليهودية كاملة خاصة في تعامله مع أهل نجران؟! وإلا كيف انقرضت المسيحية في اليمن؟! لابد وأن هناك سبباً وفعلاً تسبب في انقراضها. لكنه يبقى بطلاً حارب النصارى الأحباش ووقف ضد تنصير اليمن.

هز يزيد رأسه وقال مخمناً:

- قد يكونون دخلوا الإسلام.
- فرضية دخولهم الإسلام تعزز فرضية أننا يهود اليمن من أورشاليم. لو كان ما تقوله صحيح، لكان منهم في كل قرية

مجموعة كما هو حال يهود اليمن ولتساوينا بالعدد اليهودية والمسيحية.

قال يزيد بخبث:

- يبدو لي أنك تؤمن بالكبالا. (فلسفة القبالة أو القبلانية)

أهتز حبشوش ورد بعتب:

- لا يا معلمي! أنا أحب تاريخ الأقدمين من جدودنا وكيف عاشوا، أحب تعلم اللغات والترحال ولا لي دعوة بالفلسفات التي سببت الفتن بين يهود اليمن. (هي شروحات روحانية فلسفية تفسر الحياة والربانيات والكون، فلسفة تفسر العلاقة بين الله اللامتغير والأبدي والسرمدي، وبين الكون المتهالك والمحدود).
- أعتذر، أقصد أنك ضليع في هذه المسائل. (قالها مستدركا ثم تابع...) هل فتنة الكبالا يمكن أن تنشب في أي لحظة بين يهود اليمن؟ وكيف تحل هذه المسائل إن نشبت؟
- لا أظنها تنشب مجددا لأن الحاخامات أجابوا على المسائل ومنعوا مثل هكذا فتن والحكام المسلمون صارمون عند الفتن بين اليهود مثلا. حينها، انقسم اليهود إلى طائفتين، حدث

شقاق خطير، عصفت بهم الفتنة وفشل حاخامات اليمن من حل المسائل الدينية. حيث لجأوا إلى المحكمة الإسلامية، وقع القضاة في مأزق، وكان حكمهم من يؤمن بالله وموسى فهو يهودي. هنا، أرسل الحاخام يعقوب بن نثائيل بن فيومي في عام ١١٧٢م استفسارات إلى الحاخام موسى بن ميمون القرطبي (حاخام اليهود في مصر)، فرد عليهم ومنع يهود اليمن من الإيمان واتباع الرجل الذي ادعى أنه المسيح المنتظر وإنه كاذب لأنه يدعي النبوة. وعندما حكم بنو ظاهر، زعم يهودي بأنه المسيح وأمن به العديد من اليهود والمسلمين معاً. بعد أن قُتل هذا المسيح الكاذب على يد الحكومة، حرمت على اليهود أن يسكنوا في منطقة حضرموت. وكانت هذه المرة الأولى التي منعت الحكومة اليهود من السكن في مناطقهم وأجبروهم على الانتقال إلى مناطق يمنية أخرى.

- هل لديك تبرير لمحرقة الشمس في منطقة موزع والتي تعرض فيها إخواننا اليهود لأبشع أنواع العذاب وهو الحرق تحت أشعة الشمس والموت جوعا؟! هل لديك تبرير لجرائم لا ننساها؟!

(في عام ١٦٦٧، ادعى رجل تركي اسمه شبتاي صبي بأنه المسيح اليهودي المنتظر وآمن به الكثير من يهود اليمن ومن جميع أنحاء العالم أيضاً. الحدث شكل خطراً على الدولة والمجتمع اليمني بشقيه اليهودي والمسلم. مما جعل ردة فعل الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم شديدة وقاسية حيث ألغى قانون حماية اليهود والذي يحتمون به سلماً وخيرهم بين اتباع الشريعة الإسلامية أو الموت، حيث اسلم من خاف الموت. وقبل وفاته، أوعز إلى خليفته الإمام المهدي أحمد أن يطبق حكم طرد اليهود من القرى والمدن اليمنية ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم للدولة. فعلاً فعلها الإمام (أحمد بن الحسن) الملقب بالمهدي واستخدم القوة في طرد اليهود إلى منطقة (موزع). وهي منطقة قريبة من باب المندب غرب البلاد وعرة جدا، فطقسها لا يطاق وأرضها لا تُزرع وليس فيها من الخير ما يكفي لإعالة الإنسان نفسه. عاش اليهود في موزع حياة قاسية لا تحتمل. وبعد عام ونصف، سُمح لهم بالعودة بعد تدخل علماء وشيوخ الدين الإسلامي وحاخامات اليهود أبرزهم الحاخام "سالم بن يوسف الشبزي"، حيث شكلوا كتلة موحدة تدافع عن عودة اليهود لمناطقهم.)

رد حبشوش مفنداً:

- لا مبرر لديّ يا معلمي، فالجريمة تبقى جريمة وعار على مقترفها. ولا نغفل اللغط والفوضى التي اجتاحت اليمن بسبب تلك الفتنة. فالرعب دب في أوصال الدولة ولها تجربة سابقة مريرة في زمن بني ظاهر عندما زعم أحد إخوتنا اليهود في اليمن بأنه المسيح المنتظر وآمن به الكثير من يهود ومسلمي اليمن وتحركت الدولة لقتل هذا المدعي. وبعد مقتله، منعت الدولة على إخواننا اليهود من السكن في حضرموت كما قلت لك. ولكن عند عودة الأئمة الزيدية إلى الحكم ونجاحهم في السيطرة، سمحوا لليهود بالعودة لمناطقهم. أما ما يخص الدجال التركي الذي زعم أنه المسيح المنتظر، فقد أوشك على زعزعة المجتمع اليهودي فعلا وهذا خلق زوبعة في اليمن وفوضى مما جعل الدولة في إحراج، فجاءت قرارات الإمام رغم كارثيتها وقساوتها.
- مهما كانت المبررات فقد مات الكثير والكثير من اليهود نساء وأطفالاً وأوشكوا على الانقراض تحت حرارة الشمس في منطقة "مُوزِعْ " القاحلة من الجوع والأمراض.
- لا مبرر لتلك الكارثة رغم مودة اليهود مع الإمام إسماعيل بن القاسم. فقد قال سيدي الحاخام سالم الشبزي في كتابه وهو شاهد

عيان، بأن يهود اليمن ساعدوا الإمام قاسم ضد الأتراك ووقفوا وقفة واحدة معه وأطلقوا عليه لقب "الإمام الجميل". ومن ثَم، انقلب الإمام على يهود اليمن الذين عانوا في فترة حكمه. هذا دليل على أن لا خلاف عقائدي بين يهود اليمن والإمام إطلاقاً. والدليل المودة بينهم والتعاون. لكن حادثة الدجال التركي، غيرت سلوك الإمام تجاه اليهود وكانت ردة فعله عنيفة. ولولا صرامة الحاكم، لتفسخت اليهودية في اليمن ونشبت الفتن. فكل كاذب يدعي أنه المسيح في الحقيقة هو يسيء لليهودية في المقام الأول. وما كان ينبغي للحاكم أن يكون عنيفا إلى حد التسبب في هلاك إخوتنا. وهناك فرق بين الحزم وبين العنف. وإن كان الحزم لصالح تماسك يهوديتنا، فهذا محمود وواجب الحاكم. ولكن العنف والتسبب في إزهاق أرواح إخواننا، فهذا عار.

قال يزيد بنوع من القبول الجزئي لطرح حبشوش:

- جيد أن الحكام حافظوا على الهوية اليهودية من التفسخ.
- أكيد يا سيدي، لأن تفسخ اليهودية كان يقابلها انجذاب لكثير من المسلمين وأتباع المسيح المنتظر المزعوم. وبعد فترة قصيرة من منع اليهود من السكن في مناطقهم، عاد الأئمة الزيدية

وسيطروا على أكبر المناطق في الهضبة الوسطى حيث توقف الاضطهاد خاصة وأن من أدعى كذبا أنه المسيح المنتظر قد قتل، وفي ظِل حكم الأئمة الزيدية جنحوا إخواننا للسلم والتزمنا بالتعاليم الدينية ودون إثارة الفتن فقد كان لنا نصيب من الحماية والاحترام، ونعاني العذاب عند نشوب الحروب بين الزيديين وخصومهم الطامحين للحكم. الحكام المسلمون ينزعجون من الفتن بين يهود اليمن وكانوا يسعدون لفلاسفة اليهود واتصفوا بالسماحة والتوافق بين اليهودية والإسلام. مثلا، علاقة يهود اليمن بالثقافة العربية عميقة. فقد اتخذ يهودنا الثقافة واللغة العربية أداة للتفكير والكتابة. وأهم ما شغل علماءنا هو علاقة الدين بالفلسفة. كتب الحاخام نثائل بن فيومي اليمني كتابه الفلسفي «بستان العقول» بالعربية وبالحروف العبرية. وكان هدفه أن يكون تعايش بين الناس بشكل عام وخاصة بين الإسلام واليهودية في اليمن وقال علماء الإسلام أن ذلك من روح دينهم وأن الإسلام يأمر بالتعايش وحماية الأقليات.

لم يقاطع يزيد حبشوش حتى شعر أنه أنتهى من حديثه، فقال له:

- أنتم أغرب اليهود. وهنا شاهدت أغرب المسلمين. العبارات الدينية متشابهة. المسلمون يتبركون بقبر حاخام يهودي. واليهود كلامهم وكتاباتهم عربية ويحفظون من القرآن. لو جاء يوم الميعاد، أول من سيخذل أورشاليم هم أنتم. عليك يا حبشوش وحاخامات اليمن أن تستعيدوا ما تبقى من يهوديتكم وتنحازوا لأورشاليم الموعودة. نحن نعمل من أجلها ومن أجلكم. يجب أن تغيروا نظرتكم للحياة وتسعوا إلى الأرض الموعودة وإلا ستبقون مضطهدين ومستعبدين.

***

أطبق الليل على الأرض، والطرقات خالية من البشر، وطريق صرواح قافرة ومرعبة ليلا. افترشا مكاناً للسمر قليلا والنوم. جمعا أعواد الأشجار اليابسة وأشعلا النار (المسافر يتعمد إلقاء أعواد الحطب على الطرقات ليستفيد منها العابرون). تناولا خبز الشعير الذي أعطاهما إياه القبيلي في بيته وبدا أن الوقت طويل جدا فمازالا في أول الليل. استلقى يزيد على ظهره يراقب السماء ويتمتم بصوت جميل. اقترب منه حبشوش قليلا ليسمع، استدار يزيد وقال له، إنها أغنية فرنسية.

- ولِمَ تحرمني يا معلمي من سماع أغنية فرنسية؟ طوال رحلتنا لم تسمعني رغم صوتك الجميل.

ابتسم يزيد وقال:

- حسننا، سأسمعك أغنية شهيرة في فرنسا ومعناها باللغة العربية (تحت ضوء القمر)

صدح بصوته الجميل وحبشوش يتأمل شفتيه وهما تموجان بالصوتيات الفرنسية:

« Au clair de la lune,
Mon ami Pierrot,
Prête-moi ta plume
Pour écrire un mot.
Ma chandelle est morte,
Je n'ai plus de feu.
Ouvre-moi ta porte
Pour l'amour de Dieu. »
Au clair de la lune,
Pierrot répondit :
« Je n'ai pas de plume,
Je suis dans mon lit.

Va chez la voisine,

Je crois qu'elle y est,

Car dans sa cuisine

On bat le briquet. »

Au clair de la lune,

L'aimable Lubin;

Frappe chez la brune,

Elle répond soudain :

–Qui frappe de la sorte ?

Il dit à son tour :

–Ouvrez votre porte,

Pour le Dieu d'Amour.

Au clair de la lune,

On n'y voit qu'un peu.

On chercha la plume,

On chercha du feu.

En cherchant d'la sorte,

Je n'sais c'qu'on trouva ;

Mais je sais qu'la porte

Sur eux se ferma

أنهى الأغنية، فقال له حبشوش: "صوتك جميل وكأنك عصفور يشدو".

أجاب بشوق: "أعادتني الأغنية إلى شوارع باريس وإلى بيتي. آه ما أصعب الفراق."

علق حبشوش ناظريه على مشجب القمر وقال يمني نفسه "لو أنك علمتني المُسند كما وعدتني، لطلبت منك تعليمي اللغة الفرنسية".

***

الشاب الذي رأى سعيدة وهام بها وشعر بطرب في قلبه نحوها، منذ يومين وهو يجول في تلك المنطقة لعله يلمحها مجددا. وفي اليوم الثالث، خرجت لترعى الأغنام، ساقتها في الوادي، لمحها الشاب أسرع نحوها، عرفته، فبادرها مباشرة:

- صباح الخير يا اليهودية.
- صباح النور يا القبيلي، ما مقصدك؟
- أنا اسمي عبدالرحيم منصوري، ويش اسمك يا اليهودية؟!
- سعيدة معيض.
- بنت مري معيض بائع التمر؟!
- أيوة.

- بصراحة يا سعيدة دخلتي قلبي، فليت ومن هو يهودي يتقدم لك وتتزوجيه.

ردت عليه:

- بشرعكم تتزوجوا اليهودية وما هو بحرام أو عيب، لكن اليهودي ما يتزوج منكم، المانع منكم مش مننا.
- صدقتي يا ليهودية وأنتي قد اسرتيني وأصبتي الرد وأنا بغيتك بالحلال بس لو توافقي ويوافقوا أهلك ويكون لنا نصيب على سنة النبي. فمحمد نبي وموسى نبي عليهما الصلاة والسلام.
- مالك مني نصيب يالقبيلي وخليها بيني وبين ربي.
- ما عندي خبر أن لمري معيض بنت متزوجة.
- صدقت، لكن المانع عند ربي.
- وشرعنا يا سعيدة ما يمانع والشرع هو من عند ربي.

أدمعت وارتعدت وراحت تجمع أغنامها وكأنها توجهها نحو المنزل لتعود، اقترب منها ليستوقفها:

- ما غلطت يا سعيدة معك وطلبت الحلال، إذا ما ترغبين بي فمن حقك. لكن تبكي وكأني ضربتك والله ما يرضى بهذا.

- وحق موسى ما غلطت وأي بنت تتمناك، لكن ألي فيني يكفيني. قلبي فيه هموم نجران كلها. (يشتد بكاؤها وشهقاتها...)
- أعوذ بالله من الهموم، لماذا تبكن وكأنك في عزاء؟!
- يالقبيلي، أتركني وارحل، يكفيني كذب، اتركني لمصيري.

كفكف يده بحيرة، تنهد وقال:

- أي مصير يا بنت مري معيض؟! تعوذي من الشيطان، ما الذي بك، إن كان مال فأنا سداد وإن كانت حاجة بمقدوري فرقبتي لك.

مستمرة في بكاؤها وراحت تحاول مجددا توجيه الغنم لتعود لمنزلها فقلبها المفطور لا يحتمل أكثر. تابعت سيرها وتركت عبدالرحيم بحيرة.

***

في منتصف الطريق إلى صرواح، أرض حجرية قاحلة وأشواك صغيرة حملتها الرياح، الغبار يدثر المكان والرياح الساخنة تتجول بحرية. تنهد حبشوش متمنيا:

- زاغت نفسي لشرب المداعة.

ضحك يزيد وقال له متهكما:

- تنفس الغبار بدلا من التدخين، فكلاهما له نفس التأثير والأضرار.
- وما أدراك يا معلمي بالفخامة والطعم الرائق؟!

تجاذبا الحديث بالتهكم الساخر والمزاح حتى أقبل بدويان يسرعان الخطى نحوهما، إنهما الصيد الثمين. لمحهما حبشوش، أشار ليزيد بالحيطة، تفرقا قليلا. اقترب البدويان من الخلف، استدار حبشوش للتأكد من أنهما غير مسلحين وأن لا أحد في الطريق غيرهما. ودون أي مقدمات، هجم عليهما البدويان، يزيد يصارع أحدهما والآخر مع حبشوش. لم يستطع حبشوش التغلب عليه. أما يزيد، فقد تمكن من طرح المهاجم أرضا ولوى رقبته بمعصمه الشديد، شعر البدوي بالاختناق وراح يحاول أن ينفك ويحرر نفسه. بدا حبشوش مهزوما، فصاح بين طيات الغبار "البدوي رفيقك سيقتله رفيقي، اتركونا بسلام" نادى البدوي صديقه فلم يجب. انفك حبشوش وعدوه ووقفا أمام يزيد. وقال البدوي "اترك رفيقي، ويشهد الله أننا ماضيان في طريقنا". أرخى يزيد معصمه، ونهض البدوي وهرب إلى جوار رفيقه، وغادرا. غير حبشوش مسلكه تحسبا لأي غدر محتمل وإلى (صرواح).

صرواح نشأت وازدهرت في عهد الحضارة السبئية، وأقيمت على تلة صخرية محاطة بسور كبير وضخم. وأول ما يلفت نظر القادمين من مأرب

باتجاه المدينة القديمة هو منظر السور شبه البيضاوي لمعبد "المقه".. الذي يبلغ ارتفاعه أكثر من ٨ أمتار، وهناك عدد من المعالم المعمارية موزعة في أرجاء المدينة، لكن معبد المقه يعتبر أشهر معالم هذه المدينة السبئية، وما زال في حالة أفضل مقارنة بالمعابد الأخرى المنتشرة في عواصم الممالك اليمنية القديمة. المعبد بني في منتصف القرن السابع قبل الميلاد، وبانيه هو الحاكم السبئي (يدع إل ذرح)، ويوجد في الجهة الغربية مدخلان للمعبد لهما أعمدة وفناء مرصوف يؤديان لبهو المعبد. في المجال الداخلي للمعبد المرصوف بالحجارة مرافق للمآذن المقدسة وطقوس العبادة. وهي في حالة جيدة، وتضم مجالس وطاولات حجرية ومذابح وقواعد للنذور.

أول دار قابلهما في صرواح، كانت محاطة بسور من الأحجار وليس للسور باب. دخلاه ونادى حبشوش أهل الدار. أقبل راعي غنم يسلم عليهما وقال لهما أن الدار مهجورة وهو وابن عمه وأختيهما جاءوا لرعي الغنم واتخذوا من الدار سكناً مؤقتاً لأيام. فقال له حبشوش:

- يالقبيلي، نحن غرباء وعلى سفر، هل لنا أن نبقى هنا؟
- الدار داركما.

- ولنا من الدقيق والسمن ما يكفي. تزودنا به من مأرب لطريقنا، وغدا السبت، هل تتكرم وتطلب من أختك أن تصنع لنا الخبز لسبتنا؟ (لم يمانع الراعي، وجاء ابن عمه ورحب بهما أيضاً)

في اليوم التالي، بكر الرعاة لرعي أغنامهم وبقي يزيد وحبشوش. أقاما صلاة السبت وخرج حبشوش إلى قصر صرواح القريب منهما، تفاجأ أن فيه اثنين من القبائل يغزلان بساط. جلس إلى جانبهما ومهد بالحديث كعادته حتى لانت القلوب، وعيناه تتصفح حجار القصر، وجد حجرة سبق ليزيد وأخبره عنها مسبقا. عاد إلى الدار وأخبر يزيد بما رأت عيناه. وأقترح حبشوش أن يبقيا في صرواح ليومين أو ثلاثة أيام حتى ينتهي من النسخ. رفض يزيد الاقتراح وقال:

- لا، الذي ستنسخه أنت في يومين، ننسخه مع بعض في يوم واحد ونغادر.

قال له حبشوش معترضا:

- لا يمكن أن تنسخ معي. لو رأتك القبائل، ستكون مصيبة ولن نسلم من شرورهم.
- لا، ننسخ مع بعض ونغادر ولا نتأخر أبدا.

- لا يمكن هذا، أنت تعرضنا للخطر هنا وأنا أدرى منك. ستتسبب بمقتلنا.

بدأ يزيد يفقد قليلا من أعصابه:

- لا يمكنك أن تتلاعب بي أكثر.

ذلك جعل رد حبشوش أكثر حدة:

- ألا تعلم أن النسخ بمجمله صار عليّ وأنت تريد أن تسبب لنا المشاكل؟ إن كان ذلك بسبب الأجر الذي أتقاضاه منك، فلا تحسب لي أجرة هذا المكان لأني أرى الضرر علينا.
- لا تبالغ وكفاك تحكماً بمجريات الرحلة.
- إذا كان الأمر كذلك وأنت مصر، غدا إن شاء الله أوصلك إلى المكان وسأتركك هناك واذهب إلى سبيل حالي ولن أبقى برفقتك لأني أخاف على نفسي وعليك.
- ليكن ذلك ولتعلم أني صبرت على هوسك ولن أتحمل أكثر.

خصام شديد واحتقان متراكم. حبشوش يرى أنه لم يخطئ ويزيد أيضا. ولكنهما ورغم أنهما أخوان في الديانة مثلهما مثل أي ديانة أخرى إلا أن الاختلاف واضح بالتفكير والجغرافيا المجتمعية ولكلٌ تركيبته الخاصة

بجغرافيته. فهناك فارق بين جهتين من الكرة الأرضية تكاد تكون زمنيين بينهما.

بكرا اليوم التالي في جو مشحون بينهما طوال الأمس. وحسب الاتفاق، يذهبان إلى ذلك القصر ومن ثم يفترقان. طرق حبشوش باب القصر ومازال أهل القبائل الذين يتخذونه مسكننا نائمين. فتحوا لهم الباب، طلب منهم القهوة والخبز، وجلسا إلى جانب تلك الحجرة المقصودة والتي قال يزيد لحبشوش مسبقا أنها ذات أهمية وأن من ورائها مخطوطات تهم الإنسانية. يزيد ينظر إلى الصخرة، وحبشوش يقترب من البدو يحدثهم عن ملوك المنطقة وجذورهم. قاطع بدوي كلامه وله مراد بذلك مسبقا:

- لا تحدثنا ياذا اليهودي عن الجذور والملوك، حدثنا عن زهراء بنت الأزهر ملكة هذا القصر، إن كنت صاحب كتاب وحجاب.
- أنا لست من أصحاب الكتاب ولا أعرف شيئاً عن ذلك، ولكن من الواضح أن الكنوز مكتوبة على هذا الحجر.

قال أحد البدو:

- أكيد أن فيها ما يدل على الكنز. واليهود يعرفون ما في الكتب. حدثنا ولا تخف ولا تخفي علينا شيئاً.

- مش عارف، ولكن خبيري وصديقي يقدر أن يفك من لغزها شيئاً.

استدار حبشوش نحو يزيد مكملا تمثيليته وقال له:

- تفرج على هذه الحجرة. إن كنت تستطيع، فقرأها أو انسخها وحاول فك لغزها. عسى يرزقنا مالك الملك من قصر زهرا بنت الأزهر.
- باحاول.

أخرج قلمه وقرطاسه من لحاف خاصرته، وبدأ في نسخها. تركه حبشوش وخرج ليبحث عن نقوش لنسخها بسرعة لأن هذا آخر ما يقوم به في صحبة يزيد حسب الاتفاق. بينما يزيد منهمك بالنسخ تقدم من ورائه رجل (عاقل البدو) وسأله "ماذا تفعل؟". لم يجب عليه واستمر في النسخ بسرعة. تناول العاقل الفأس وهم بضرب يزيد برأسه من الخلف. رفع يده ليسدد الضربة القاتلة لرأسه بنية القتل. وفجأة، أمسك أحد القبائل يد العاقل وتدخل رجل آخر ودفع يزيداً وسحب منه القرطاس. صدم يزيد وهو يرى رجلا يناضل للإفلات من يد رفيقه وبيده الفأس لقتله. صاح يزيد مناديا (حبشوش)، أدركه الخوف ونظر للموت أمامه وقد اجتمع الكثير من الرجال حوله وأحكموا وثاق يديه وقيدوه وناله منهم لكمات.

استمر بالصراخ (أنا لست عدوكم، لي رفيق اسمه حبشوش، أنا غريب).
لكن ذلك لم يغير من الواقع أنه صار مربوطا مهانا. فقال الرجل الذي أمسك بيد العاقل:

- أنا لا أمانع في قتله أبدا. ولكن خارج القصر الذي اتخذته مسكناً فهو تحت عتبت بيتنا ولا أريد للعرب أن تعيبنا بطريقة قتلنا له. أو نسلمه لحاكم مأرب.

رد العاقل:

- نأخذه مسيرة يوم وأكثر إلى الحاكم؟ ما هذا العذاب؟ نخرجه من هنا ونقتله. الرجل جاء لفك لغز كنوزنا ونهبها.
- له رفيق أيها العاقل. ننتظر حتى يرجع ولنا في ذلك قرار. وإذا قتلناه لوحده، فرفيقه سيهرب ونحن لم نعلم ما مبتغاهم في أرضنا وكنزنا.
- وهذا شور الرجال.

سحبوا يزيد إلى خارج القصر، ورموه أرضا. يحاول أن يبرر وجوده بكلمات (أنا غريب، أنتم قبائل، أنا زائر جئتكم من القدس). أخيرا، أدرك أن الوضع مختلف عجزت قدراته على إخراج نفسه من هذا المأزق فقال في نفسه باللغة الفرنسية والشك يساوره "يا لها من نهاية إن كان حبشوش قد

غادر كما اتفقنا بالأمس. كم كنتُ أحمق وكان يجب عليّ التعامل معه حتى أخرج من هذه البلاد وأتخلص منه". في هذه الأثناء، حبشوش مشغول بنسخ ما تبقى من أحجار في خرابة بعيدة عن مكان تواجد يزيد بنصف ساعة سيرا. وبينما هو منهمك في النسخ وهو منحن، حتى سمع صوتاً يناديه (ياليهودي... ياليهودي) بسرعة خاطفة، لف القرطاس والقلم لداخل لحاف يتحزم به ووقف ليستدير نحو البدوي المنادي له. فسأله:

- ما الذي تعمل هنا؟

بارتباك، رد:

- ارتاح من التعب، وهميت أنام.
- تعال معي بسرعة، القبائل قد ربطوا خبيرك ويريدون قتله. تعبت وأنا أبحث عنك.

رفع حبشوش ردائه وتظاهر أنه يلتف خلف الحجر لقضاء الحاجة، جلس القرفصاء، وأخفى القراطيس، وقف وتحرك حيث سيقابل البدوي مجددا ويذهب معه.

- عز الله أنكم يالقبايل ما تصنعون العيب وتقتلون غريب في أرضكم. (يلين قلب الرجل الذي أبلغه بما يحصل)
- لكن رفيقك جاءنا بالشر.

- أي شر هداكم الله؟! الرجل غريب وما جاءكم غازي.

وعند وصولهما، اخترق حبشوش الجمع المحيط بيزيد وقد مسه الذل، وقال بصوت عال يخاطب الجميع:

- يالقبائل ويا جماعة الخير. ما الذي جمعكم علينا وتخفونا ونحن مساكين وغرباء وأنتم أعز وأشهر القبائل ترحبون بالضيف وتكرموا الغريب؟ واليوم اجتمعتم علينا وخوفتمونا ولا نعرف السبب.

أجاب أحدهم:

- دخل العاقل ووجد خبيرك ينسخ الحجر، قال له توقف ولكنه لم يسمع وأسرع بنسخ الحجر ولم يعر أدنى اهتمام أو احترام وكاد العاقل أن يقتله بضربة بالفأس لولا تدخل القبائل وأخذوا النسخ من يد خبيرك.
- أعوذ بالله يالقبايل من القتل. ولعن الله الشيطان الذي يقود الإنسان لجهنم.

قال العاقل:

- خبيرك جاء لنسخ وفك لغز كنوزنا. وهذا معتدي على أرضنا وأملاكنا. وقتله واجب لأنه معتد ويقرأ الأسرار المدفونة.

صاح فيهم حبشوش مخاطبا إياهم بما يفهمون بالعرف السائد:

- يا أشراف القبائل. حاشاكم من المصائب الموحشة ومن التعدي على الغريب أو المسكين وهو في ساحتكم. وأنتم تعلمون أن خبيري وإلى الآن لم يفهم شيئاً مما تقولونه لأنه غريب ولا يفهم من لسان العرب إلا قليل. لم يرض لكم الله الإثم. فقد لطف الله وأسلمكم مصيبة هذا المسكين بين أيديكم. فاتقوا الله ولا تظلموه ولو بالكلام.

قال أحدهم:

- أنت تدافع عن أنفسكم باسم المروة والتغرير ونحن قد عرفنا أنكما ساحران. ونحن لن نقتلكم، بل نربطك إلى جانبه ونأخذكما إلى حاكم مأرب وسنسلمه ما كتب صديقك وله الحكم فيكم.

قال رجل أسمر ويبدو عليه قليلا من الوقار والهدوء:

- أتركوهما. إنهم مساكين، عيب علينا.

تعالت الأصوات رفضا: (إنهم خنازير... لا تصدقوهما... أقتلوهما)

قال العاقل:

- يا رجال. لهم ثلاثة أيام في ديارنا، ولو كانوا غريبين لرحلا من يومهما. لا بد وأن لهم سراً وعلينا أن نعرفه.

طال صراع الألسن لوقت أنهك فيه حبشوش وكأنهم في محاكمة أو تحقيق وأشتد ضراوة. وعرف أن اليوم النهاية إن لم تحدث معجزة، نظر إلى وجه يزيد الجاف. وهي نظرات الموت وصرخ بأعلى صوته وحرك يديه في الهواء ليرفعها إلى السماء:

- لا يرحم الله من يعذبنا. لا يرحم الله من يعذبنا. (أسقط ناظريه من وجه السماء إلى عيني العاقل وتابع قوله...) أن لنا ثلاثة أيام في دياركم. ونحن وصلنا آخر نهار الجمعة، ويليه السبت، ولنا في سبتنا عبادة، واليوم هو سفرنا، وأتينا نطلب من القبائل أن تجود علينا بكسرة خبز ونسافر من فورنا. ولكن لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. نحن ننتظر صدقتكم علينا حتى نسافر. وإذا نحن في دعوة باطلة. إما أن تقتلونا في الحال ونخلص من هذا العذاب، وإما أن تتركونا نسافر ولا نريد منكم الصدقة بالزاد. وإن كنتم تعرفون بشرع القبائل، فأعطونا من الزاد لنشبع جوعنا. وبعد ذلك اصنعوا بنا ما تريدون.

فقال الرجل الذي يبدو عليه الوقار والهدوء:

- صدق هذا اليهودي. لا يجب أن يبقيا جائعين.

أيد البعض حبشوش واقتنعوا بطرحه وهم يقولون (كلام اليهودي حجة علينا...) فقال العاقل:

- فعلا، عيب علينا جوعهما. (وراح يخاطب قومه...) من منكما يلتزم بهم وبأكلهما. وبعد ذلك، نرسلهم إلى حاكم مأرب؟

تدخل الرجل الهادئ وقال:

- أنا ألتزم بهما.

امسك بيد حبشوش ودنا من يزيد وفكك وثاقه. وأخذهما إلى بيته، أعطاهم الخبز، انتظرا قليلا من الوقت حتى تفرق الناس وأشار إليهما من النافذة بطريق المسافرين للفرار. هربا من ذلك الطريق. أشار حبشوش ليزيد لمواصلة طريقه وهو يلتف من خلف الطريق لأخذ المنسوخات التي أخفاها خلف الأحجار. ركض يزيد غير مصدق أنه تحرر من قبضتهم وما زال الخطر قائم وذلك من الطبيعي ما داما في نفس المنطقة. وصل حبشوش إلى حيث القراطيس المخبأة، أخذها وركض عائدا من نفس الطريق وهو يتلف كي لا يراه أحد. أخذ نفس طريق يزيد وهو يركض للحاق به والابتعاد قدر الإمكان عن هذه المنطقة. أما يزيد المستمر بالركض حتى انقطعت أنفاسه، فالحسرة تدمره من الداخل. فذلك الحجر كم تمنى أن ينسخه منذ أن كان في فرنسا، وما إن نسخ نصفه حتى أخذوها

منه، وها هو يخسر هذا النقش ولا أمل في عودته مجدداً لهذا المكان حيث سيقتل إن قرر العودة. والمعجزة لا تتكرر مرتين. لم يعد قادرا على الركض أكثر. جلس خلف صخرة في نهاية الطريق يرقب من ذلك المكان أي قادم إليه، يكح ويستنشق الغبار حتى شعر بألم في صدره. شاهد حبشوش يجري نحوه، وهو يقول في نفسه "يجب أن أستفيد منه حتى أخرج من دائرة الخطر، ومن ثم أتخلص منه". جلس حبشوش إلى جانبه وقد أدركه التعب نتيجة الركض، دقيقتان استعادا فيها أنفاسهما وواصلا المشي بصمت. قال حبشوش في سره "لولاي لكنت ميت الآن، أنا الذي تنكرت له، أنا الذي لم تسمع له ولتحذيراته، المهم أنه نجا من الموت وإلا لطاردني العار واستخف بي اليهود أني تخليت عن خبيري".

استدار يزيد نحو حبشوش وقال:

- حبشوش.
- أمرك معلمي.
- لولا ذلك الرجل الطيب الذي ساعدنا على الهروب لكنا في مأزق.
- نعم. نعم.

وصلا إلى قرية فيها اليهود. وهي أول قرية من قرى (حريب). شعرا بالأمان وزال الخطر لم يجدا فيها ما يساعدهما على البقاء، فواصلا إلى القرية

التالية ونزلا ضيوفا عند اليهودي المشرقي وأمضيا عنده الليل وغادرا مع أول خيط من خيوط النهار.

***

لم يعد يزيد يستطع صبرا وكل ما يسعى إليه الآن هو العودة إلى صنعاء. سلوكه أضحى أكثر حدة من ذي قبل. فالرحلة أرهقت أعصابه وتفتتت جوانبه. فقال لحبشوش وقرية حريب خلفهما:

- لنسرع في الطريق، ولا نرد على أي سؤال للناس، وإن نادانا أحد لا نجيبهم أبدا.
- ولِمَ القلق من التأخر ونحن قريب من صنعاء؟!
- إجابتنا على أسئلة الناس والبقاء عندهم ستأخر وقت رجوعنا لصنعاء ولا طاقة لي بالبقاء أكثر.
- هذه طباع الناس ونحن نمرّ من أرضهم أو قبالة بيوتهم وعادتهم أن يسلموا ويسألوا الغريب عن مقصده ومن أين أتى. ونحن غرباء وضعفاء في بلادهم.
- لا أكترث لذلك. نفذ ما أقول وانتهى، لا نرد عليهم حتى السلام. انتهى الكلام.

صمت حبشوش وقال في نفسه "ارتبي يا مقادير الله، يا رب أوصلنا لديارنا سالمين".

وفي نقيل (أشجع) استوقفتهم قافلة وإذا أحد رجالها سحب حبشوش جانبا وقال له:

- المعروف الذي بيني وبينك. (يريد حصة من المال المكتسب)
- لم أستلم أجري، ولا أستطيع أن أطلب منه ذلك وأنت تعلم أننا في الغربة منذ زمن طويل ولا نمتلك شيئاً. يا حاج حسين، أنت حاج وزائر ولا يمكنك أن تطلب مثل هذا الشيء وواجب عليك أن تتصدق علينا بما يلهمك الله ليكون أجرك عند الله عظيماً.
- لن أخفي عنك شيئاً. خبيرك قد أوصل أخباره إلى صنعاء (ابن المسلماني) الذي جاء من بندر عدن وقال إنه نصراني وليس يهودياً. وأنه جاسوس، وهدف قدومه لليمن أن يكشف البلاد لدولته ويدون جبالها وأراضيها وغيولها ومدنها وأسواقها. هذا الكلام منتشر في صنعاء والآن يبحثون عنكما. فمن الأفضل أن تفاتحه ونرى جوابه.

(الحاج حسين كما يسميه حبشوش، أما يزيد فهو يعرفه باسم مسلل. وسبق لهما أن التقيا في عدن وفي مأرب وهدده أكثر من مرة بقصد الابتزاز. هذا

الرجل هو وكيل تاجر هندي أسلم وله علاقات في عدن ويدعى بالمسلماني) ارتعب حبشوش رعب الموت عندما سمع بذلك وارتعدت فرائصه فقال ويداه ترتعدان:

- قد يكون كلامك صحيحاً. أما أنا فلم يتبين لي شيء مما قلت لأنه يدعي أن سبب سفره هو أن له أخاً اختفى منذ سنتين. وقد قيل له إنه بمشارق اليمن وكل مكان أو قرية نصل إليها نبحث عن أخيه. لكن في طريقنا، سأجس نبضه. وإن كان ما قلت صحيحاً، أقسم أني من سيقتله ولو أبرد قلبي بطعنة. أما المال، فلا نملك شيئاً.
- لا تتكهن، واترك شيطنة أهل صنعاء. أثبتوا لنا بإعطائنا ما تملكون لنفتشها.

سارت القافلة واقترب حبشوش من يزيد وأخبره ما قال له الرجل الحاج حسن (مسلل) وقال له إنه فقط قلق من المنسوخات التي في حوزته. ويريدها ليخفيها، رفض يزيد ذلك وقال:

- أنتم جبناء تخافون من الأصوات والظل. ومن هم هؤلاء حتى يتحكمون بنا وهم ليسوا نقباء القبائل. لنتركهم ونمضي ولا نعيرهم اهتماماً.

رد عليه حبشوش بنوع من الحدة:

- الشجاعة في نقيل (أشع) ليست بشجاعة. سلم لي المنسوخات.
- لن أسلم لك تعبي وعرقي.

غضب حبشوش وقال له:

- مازالت المنسوخات ملكي لأنك لم تسلم لي أجرتي. هؤلاء الذين قلت عنهم ليسوا بنقباء القبائل، فلتعلم أن الطفل القبيلي سينال منا إن علم ما بحوزتنا، ولن ينقذنا أحد ونحن غرباء في هذا المكان.

أخذ المنسوخات وأخفاها جيدا حول حزامه وبداخل لحافه، وعاد إلى جانب الحاج حسين وقال له:

- لا يمكن أن أتحقق من نوايا خبيري ونحن في الطريق. سأتحدث له بطريقة ذكية وأسحب منه الكلام بما قلت من إدانته.

صمت الحاج حسين وهو يهز رأسه ويسخر غير مصدق لحبشوش وهو يقول بسره "أين المفر مني؟". أسرع حبشوش في خطواته ليلحق بيزيد الذي يحاول أن يسبق القافلة. وما أن اقترب منه حتى قال له:

- يا معلمي، ما الذي بينك وبين هذا الشيطان الذي يعترض لنا؟
- سبق وقلت لك نمشي ولا نرد على كلامهم.

أسرعا بصعود النقيل والقافلة تبطئ عند الصعود. تلك كانت فرصة فلا يمكن للحاج حسين أن يترك قافلته ويتبعهما فالقافلة محملة

بالبضائع الثمينة. (ما لا يعلمه حبشوش أن الحاج حسين (مسلل) له حكاية مع النقوش والآثار والمخطوطات فهو ينقلها من مأرب ويبيعها في عدن للأجانب، وسبق له أن التقى بيزيد وعرف أن لا أجنبي يأتي إلا لسبب وأنه أحق بأرباح الرحلة والاستفادة. وصل الاثنان إلى اعلى النقيل، والقافلة في المنتصف. دق قلب يزيد برعب مطلق عندما رأى خمسة مسلحين على قرب منهما، فقال لحبشوش "جاءوا ليلقوا القبض علينا". طمأنه حبشوش: "لا تقلق واصل مسيرك وسأتحدث إليهم". اقترب منهم حبشوش وسلم عليهم وتبادلوا أطراف الحديث، حتى اختفى أثر يزيد، فقال حبشوش للقبائل: "سألحق بخبيري كي لا يتوه في الطريق". التفت إلى الخلف ورأى أعلى القافلة ترتفع، لحق به واختفيا عن أنظار الحاج حسين.

***

كان الظلام مساعدا على التخفي، سلكا طريقا لا يعرفانه، قطعا حقولاً مزروعة لمدة تصل إلى أربع ساعات تخللها حذر من ذئاب الليل. تاها بين الحقول ولم يعد حبشوش يعرف أين هو الآن، ولا حل له سوى مواصلة

المسير حتى بان لهم أثر هناك لضوء مرتفع قليلا عن الأرض. يبدو أنه سراج أحد البيوت. توجها نحوه واقتربا أكثر حتى اكتشفا أنه دار.

طرق حبشوش الباب، جاءه الرد:

- من يطرق الباب علينا في الليل ونحن يهود؟

نظر حبشوش في وجه يزيد وابتسم ورد على الصوت باندفاع ونجاة:

- افتحوا الباب نحن إخوانكم وفدوا إلى مطرحكم.

قليلا من الوقت وفتح الباب، ادخلوهما تحت ضوء السراج وإذا بالدار كثير من اليهود لمناسبة زواج. قدموا لهما الطعام، وإذا بنفرين من الموجودين يحدقان في وجه حبشوش كأنهما يعرفانه ويعرفهما. فسأله أحدهما:

- ما اسمك يا مري؟ صورتك ليست غريبة عليّ.

أجاب وهو ينظر في وجه يزيد:

- أنا سالم آل فتاحي، من منطقة الجوف، وسكنت في صنعاء.
- مرحبا بك. (قالها وهو يفكر وقد تشابهت عليه الأمور)

صباحا، خرجا من الدار. وعند خروجهما، انفجر يزيد غضبا حبسه في صدره من الأمس:

- أنت محتال ياحبشوش، وكاذب.

- أعوذ بالله يا معلمي إن كان ذلك من صفاتي. (أصابته الدهشة وتابع...) وعلى من احتلت وعلى من كذبت؟ هذه دعوى باطلة.
- كيف لك أن تكذب على إخواننا اليهود وتدعي أنك من الجوف ولك اسم آخر. ما هو اسمك الحقيقي؟ (بدا مشككا...)
- يا معلمي، الصبر نعمة وفرج. أنا لم أقل له اسمي الحقيقي وكنت خائفاً منهم كي لا يشاع الخبر أننا عدنا لصنعاء. أليس تعلم أن الذي بينك وبينه شيء غامض لا أعرفه. هو وتاجر عدن قد أشاعا في صنعاء أنك نصراني وجاسوس تدون البلاد والعباد لتساعد بلدك في احتلال اليمن؟ أليست هذه تهمة تؤدي لذبحنا في ساحة صنعاء. وكم العار من دعوى باطلة بسببها أُعُدم وأصبح لعنة عند اليهود والقبائل؟ ومن مصلحتي ومصلحتك أن لا يعلم أحد أننا قد رجعنا إلى صنعاء حتى ننظر بالدعوى الباطلة علينا وكيف نتجنب المصائب.
- كل هذا لا يبرر أن تكذب على أخينا.
- يا سيدي، بعد أن تغادر اليمن سأذهب إليه واعتذر منه. المهم أن تخرج من اليمن سالما.
- المهم، خذنا إلى (تنعم) وبعدها ندخل صنعاء.

- هذا خطر عليّ. بيني وبينهم نزاع ومخاصمة منذ العام الماضي.
- لا تخف، بعد (تنعم) نفترق.

لم يجد شيئاً ذا أهمية في (تنعم). وعند شروق الشمس في (دار سلم) وجدا طريقاً إلى قلب صنعاء. حان وقت الافتراق بين حبشوش وجوزيف هاليفي صاحب الاسم المستعار (يزيد لبيب عاطف). دفع يزيد لحبشوش مبلغاً يسيراً. قبلها على مضض وكان يتوقع أكثر من ذلك. فتموين الرحلة كانت من الصدقات ولم يكلف يزيد إلا القليل من المال. فهو الرابح من جميع النواحي. أدخل حبشوش ما حصل عليه من أجر هذه الرحلة في محفظته التي تلف الخاصرة، فقال له يزيد متنكرا:

- كنت أتمنى أن نزور مناطق أكثر ونحصل على إنجاز أكبر.
- لقد بذلت قصار جهدي معك.
- ليس كل جهدك. لقد أضعنا فرصاً والسبب اقتراحاتك التي كانت تؤدي غالبا إلى المتاعب.
- أي متاعب ونحن غرباء في ديار الآخرين؟!
- على العموم، اليوم أتحرر من هذه الكوابيس.
- إذا كان ذلك تحرراً مني وأنا ثقيل عليك، فأنت لم تف بوعودك. شرط الرحلة أن النحاسيات من نصيبي والمخطوطات من نصيبك

واستحوذت عليهما. شرط الرحلة أن تعلمني الكتابة اليمنية القديمة ولم تعلمني حرفا واحداً.

- أنت تضمر الشر لي في قلبك. كما توقعتك، مهووس.
- أعوذ بالله يا معلمي، إن لي من التقوى وخوف من الله ما يكفي، وستبقى معلمي.

مد يزيد يده وصافح يد حبشوش بنصف تكشيرة وافترقا.

"استغفر الله في حق الله وفي شمسه وفي أقماره. بسبب ذنوب العباد تكدرت بعض أقمار البلاد من بعُدها من شعاع الشمس. يهديهم الله نحو الصواب وتعمر الأرض عمرا مبينا، ولا تهمل هملا ولو قليلاً، فتُترك وتكون قافرا وخاليا، والبوم وابن آوى يرثونها، يمد الله بحجابه على شمسنا، وينور قلوب أقمارنا. أمين." (دعاء حبشوش)

***

حسب عادات أهل نجران فإن التقدم للزواج يمر من تحت يد الخطابة وهي امرأة لبيبة وطليقة اللسان وجريئة ولها مهمة التقريب بين أسرة العريس والعروس قبل التقدم الرسمي ولها دور مصاحبة العروس عند خروجها من بيت أهلها إلى بيت العريس والبقاء معها في غرفة النوم

لتكون شاهدة نظر على شرفها وتأخذ الدليل لأهل العروس. الخطابة تعرف كل شيء وأول من يعلم بشؤون النساء في منطقتها. فهذا عملها. ذهب عبد الرحيم منصوري إلى الخطابة وكانت صدمته عند سماعه منها ما تسرب لمسامعها عن سعيدة وما جرى لها وقالت له:

- يا عبدالرحيم، أنت ابن الحسب والنسب وما تليق فيك بنت يهودي ببطنها ابن حرام. ما لذي بيقولوه أهلك وقبيلتك بأنك تزوجت باغية وببطنها لقيط؟!
- لا حول ولا قوة الا بالله، حرام هذا الجمال يضيع.
- مصيرها الذبح، مثلها مثل قريناتها من باغيات اليهود حيث بشرعهم يذبحوهن. أنساها وعندي لك بنت وجهها مثل القمر وبنت حسب ونسب تليق بك ومسلمة. وإن لابد وأنك تشتي من بنات اليهود، نطلب لك اخت سعيدة فهي جميلة وفطنة.
- المسألة أن سعيدة دخلت قلبي وزدت رحمتها.
- لا توجع رأسك فلّي تغلط وهي عزباء وتفرط بنفسها ما عندها كرامة وبتخون زوجها ولو أنقذها من الموت.
- لا حول ولا قوة إلا بالله. إذا شوفي لي بنت جميلة وأنا بعدك.
- عندي واليوم أنجز لك الموضوع.

***

سمسرة الأمير محمد بن الحسن، في وسط سوق صنعاء باتجاه الشمال. يقف أمامها يزيد وحيداً، يدخل فناءها، الجمّال تدخل الفناء بالبضائع، تفرغ في مستودع السمسرة، يراقب ذلك يزيد بحذر، دخل إلى الطابق الأول، التجار يتزاحمون. هذا المكان أكثر أمنا في اليمن لوجود الأثرياء وأصحاب النفوذ التجاري. تقدم رجل يعمل هناك وعرض خدماته:

- تحت أمرك.
- أرغب في الاستراحة.
- هل تريد الطابق الرابع أو الطابق الخامس؟

صمت قليلا ثم قال:

- الخامس.
- إتبعني من فضلك.

استوقفه يزيد:

- سؤال من فضلك.
- تفضل.

أشار يزيد إلى شماله وسأل:

- هذا مستودع الأمانات؟
- نعم، إنه يخص أمانات التجار.
- لدي ما استودعه.
- على الرحب.

تقدم معه إلى باب المستودع لطرح أمانته وقد لفها بقطعة قماش وربطها جيدا. حررت له مقصوصة من الورق تثبت ملكيته، ثم دله الرجل على مكان مبيته في الدور الخامس. استلقى يزيد على ظهره وراح يفكر بخطوته التالية بالذهاب إلى منزل حاخام صنعاء. لديه معرفة مسبقة بهذه السمسرة ويعلم أن مستودع الأمانات يحوي أملاك التجار من ذهب وفضة وبضائع وأنه المكان المناسب لإخفاء ما يملك من منسوخات ومقتنياته. الآن المنسوخات بأمان. بقي له مخطوطات ومنسوخات ونحاسيات استودعها عند اليهودي سالم بن سعيد تاجر المجوهرات ومن المؤكد أنه قد أدخلها إلى صنعاء وسلم الأمانة لحاخام صنعاء.

غط يزيد في نوم لساعة ونهض. وقف ليشاهد صنعاء من نافذة مفتوحة. صنعاء، ذلك التاريخ البديع والجمّال الساحر والقرون المتجددة، لم يخف أعجابه وهو يتمتم بالفرنسية

Elle est magique, la créativité, la beauté, le rêve insaisissable de, oh La IA, Tues belle Sanaa comme une Femme qui accepte lèvres Paris”

“إنها السحر، الإبداع، الجمّال، حلم المنال. آه، ما أجملك يا صنعاء كأنك أنثى تقبل ثغر باريس”. (ذلك ما تمتم به).

***

طرق يزيد باب دار حاخام صنعاء. فتح له وأحسن ضيافته، تبادلا أطراف الحديث، عبر يزيد عن قلقه من البقاء أكثر في صنعاء وأن عليه الرحيل بأسرع وقت إلى الحديدة. ومن هناك، يُبحر إلى عدن ليقفل رحلته. تفهم الحاخام مدى خطورة بقائه أكثر في اليمن، سلم له الأمانة التي جاء بها سالم بن سعيد. وقدم له نحاسيات عليها نقوش ومخطوطات أخرى أبهرت عيون يزيد. تلك التي لم يرها من قبل، وضعها تاجر المجوهرات عند الحاخام ليأخذها يزيد ويدفع ثمنها ٣٠٠ ريال. لم يتردد في شرائها. وبذلك، تكون رحلته موفقة. له مال عند صراف يهودي، كتب بالمبلغ إليه ليسلمها لتاجر المجوهرات.

قال له الحاخام بعد أن قرر يزيد مغادرة صنعاء غدا:

- سأرتب لك مع قافلة توصلك للحديدة.

- هذا كرم منك.
- ولنا وصية تنقلها لإخواننا الحاخامات في فرنسا وفي القدس وفي كل مكان.
- نعم، سأفعل.
- إحفظها وانقلها شفهيا، وسيسلمك حاخام الحديدة مكتوباً.
- حسنا.
- قل لهم إن لنا عشماً كبيراً بهم باسم التوراة. دعم إخوانهم باليمن بالعلم والمال، ومشاركة حاخامات اليمن الرأي والحكمة.
- حسنا. يجب عليكم أيضا جمع كلمتكم وألا تبقوا ضعفاء، وأن تتجاوبوا مع طلب الحاخامات في مشارق الأرض ومغاربها لتحقيق الأمر الإلهي.
- لكل حادث حديث. ما يهمنا الآن هو الدعم العلمي والمشاركة في الرأي. أما ماليا، فقد مررت على قرى اليهود ومناطقهم وقد رأيت بأم عينيك أحوالهم المالية.
- نعم، سأنقل كل ما رأيت وسمعت. ولكن ما يجب عليكم أن تعرفوه، هو أن اليهود يجمعون العلم القديم وينجزون العلم الحديث حيث في هذا فائدة جبارة لمستقبل اليهود، وأن اليهودي

دون تعليم هو عالة وأن العلم هو الذي سيكون دولة. العقل سلطان الوجود. وبما أن لليمن تاريخاً وحضارة فمن المؤكد أن هناك كنوز العلم القديم. لذا، نأمل منكم الاهتمام بهذا الجانب والاحتفاظ بأي كتاب قديم وهناك من سيأتي من بعدي. أتمنى أن الرحالة القادمين يقابلونكم ولديكم الجديد.

- نحن قد عرفنا المطلوب ولابد من الخير.

***

منذ أن عاد حبشوش من رحلته وها هو في بيته يترقب هدوء الأوضاع والشبهات حوله ليتسنى له العودة إلى نجران وأخذ سعيدة كما عاهدها. لم يخرج من داره في حارة (المشماعة) في قاع اليهود متوجس ومترقب منذ رجوعه. وكما توقع، وبرفقة الناسي (ممثل اليهود لدى السلطات اليمنية) ورسول سلطة التحقيق جاءوا لاعتقاله. زج به في السجن. في حفرة، يلتف حبشوش حول نفسه وهو مقيد الرجلين ومثبت القيد إلى وتد بعمق صخرة. إنه وضع لا يطاق أبدا حيث تعد سجون اليمن من أبشع سجون التاريخ حيث يتنفس السجين هواء وتراب في حفرة لا تتجاوز المترين طولا والمتر والنصف عرضا وارتفاعا. يرمى الأكل لسجين أو السجينين في

نفس الحفرة. الأكل عبارة عن عصيد ولبن وأحيانا خبز. قضاء الحاجة في نفس الحفرة. الموت منقذ وحيد لكل سجين. تصل الأمور بالسجناء بابتكار تهم يلفقونها لأنفسهم تؤدي إلى إعدامهم للخروج من هذا العذاب. فلم يعد من الموت خوف. وغالبا ممن يفشل في الموت يفقد عقله. حبشوش نال من العذاب النفسي مالا يطاق. فلم تعد ذكرياته تخرجه ولو لدقيقة من الواقع ولا تمتماته الدينية ولا روحانية إيمانه. فكل ما يتمناه هو تنفيذ حكم الإعدام للخلاص من هذا السجن. تارة، يتمنى الموت للنجاة من هذه المعاناة. وتارة، يتشنج وصورة سعيدة تمر من أمام عينيه، يصرح "يا نبي الله، سيذبحونها، يا الله وصلني إنقذها" ويستدرك أنه طلبها ولن يذبحونها، وأن فتوى هاليفي بتحريم ذبحها وإن فعلوا يطردون من بني إسرائيل. "لا. لا يمكن ذبحها، لن يفعلوا سيطردون من بني إسرائيل كما هددناهم إن هم فعلوا، هل يجرؤ على فعلها وأنا خاطبها وأحبها". رحت فيها يا حبشوش، كيف السبيل للخروج من هذه الورطة غير الموت. أعترف بكل الإشاعات ويعدمونني بأسرع وقت. والله، ما عاد همني سمعة أهلي من بعدي. المهم أنجو من هذا الحال (يستدير نحو اليمين ويرى السجين الذي فقد عقله وتابع كلامه لنفسه..) يارب! نجني من هذا الحال

بالموت أكتتم نفسي وتكسرت عظامي. ما ظلمت أحدا يارب وما فجرت في حق أحد. يارب! إجعلهم يسرعوا بالتحقيق ليسرعوا بإعدامي.

***

في ميناء الحديدة، استلم يزيد مجموعة من توصيات حاخامات اليمن من حاخام هذه المدينة قبل ركوبه السفينة التي ستتوجه إلى عدن. لم يصدق إلى الآن أنه أنهى مهمته. يشعر بالسعادة والافتخار كونه أول رحالة وصل إلى مناطق لم يصل إليها أحد من الرحالة قبل. وها هو ينتظر فارق الرحلة البحرية ليصل لباريس حيث تدرس المنسوخات والمخطوطات والنحاسيات المنقوشة. فارق زمني بين البحر ووصوله ليبدأ مساراً جديداً في حياته وهي تدوين كل شيء عن رحلته. فقد أنجز مالم يستطعه أحد. على ظهر السفينة وقد خلع شخصية يزيد لبيب ذلك المتسول الأشعث الأغبر وعاد، إلى شخصية هاليفي المستشرق حليق اللحية، يرتدي ملابس رسمية تدل على مكانته. ذكريات بدى أنها ستعيش معه للأبد بكل إيجابياتها وسلبياتها. ويبقى متميزاً لأنه استطاع التأقلم على المشقة والمغامرة الصعبة والتعايش معها.

جوزيف هاليفي أو يزيد لبيب عاطف. فرنسي أو مقدسي. ذلك لا يهم، فقد أبدى براعة في تقمص الشخصية وعاش بداخلها كأنه ممثل في فيلم. ولكنه فعلا اكتشف في نفسه موهبة التمثيل وتقمص الشخصيات. وكونه ضليع بالتاريخ أيضا بالإضافة إلى مواهب عدة يمتلكها، فهو يعلم جيداً أنه سيبقى شخصية جدلية لقرون قادمة وأنه رسخ اسمه في تاريخ اليمن وعالم الاستشراق. وها هو يخرج من بين ثنايا التاريخ اليمني ليدخل هو بنفسه التاريخ.

***

يناير ١٨٧٠ أعلن مشايخ صنعاء وما حولها استعدادهم لإستقبال الأتراك بعد أن تأكد لهم أن أعداءهم من المشايخ الآخرين قد أعلنوا ولاءهم الكامل للأتراك. وقرروا تسليم صنعاء المدينة فقط لحكمها وإعلان الولاء ظاهريا وفي الباطن ما يخفيه الذئب. أرسلوا ثمانية عشر من الشيوخ والأعيان ووجهاء القبائل إلى أحمد مختار باشا لتسليم صنعاء. ودخل الأتراك صنعاء بقيادة أحمد مختار باشا الذي نُصح بالحذر والتعامل الإنساني وعدم استفزاز القبائل وبل عليه الاهتمام بنوع من التطوير. راح يفكر بمكان بناء مستشفى عسكري ومدرسة المدفعية ومدرسة تعليمية وعكف

على تقسيم البلاد إداريا وإلى ألوية وربط المدن الرئيسية ببريد الرسائل. بقي خط سيطرة الأتراك والنقاط محدودة وهي مداخل المدن ومراكزها فقط واحتفظ شيوخ القبائل بحكم مناطقهم وكان التمرد واضحاً من أول يوم بهجمات خاطفة من خلف خط عدوهم التركي. وبما أن الأتراك صاروا المسؤولين والحكام على مركز صنعاء، فقد سيطروا إداريا على مفاصل الأمن والسجون. أجروا مراجعات وهيكلة إدارية وسجلات تحقيقية وتدوينية.

***

مري معيض في زاويته لا يقوى على الحركة يتقطع قلبه، أم سعيدة تمسك بها النساء وهي تولول وتبكي ابنتها. أخوال سعيدة القادمون من صعدة لتنفيذ حكم الذبح بحق ابنة أختهم يجرونها وقد وثقوا يديها بالحبل، يسحبونها ليخرجوها من الدار، أصوات تتعالى وفوضى كبيرة جداً. صحيح، قالت لهم سعيدة وأمها إن حاخاماً جاء من صنعاء وطلب الزواج منها وأخذها معه، لكن الأخوال رأوا في ذلك كلاما غير واقعي ومجرد كذب لأن ثلاثة أشهر مرت ولم يعد الحاخام وبطن سعيدة كبرت وقربت تضع المولود الذي لا يجب أن يعيش وهو نتاج علاقة غير شرعية. رفضوا الانتظار،

وقرروا التنفيذ، الأخوال الثلاثة وخمسة من أقارب العائلة. هذا الأسلوب ليس حكرا على الديانة اليهودية، هذا النوع من العقاب الشديد الذي ينتهي بموت المذنبة حصراً أما المذنب فغالباً ما يلوذ بالفرار.

وصلوا بسعيدة إلى خارج الدار، تستدير، لترى دارها، لن تعود إليه، تقاوم، يركلها أحد أخوالها بقدمه، يجرونها بعنف تاركين وراءهم الغبار يدثر المكان. تحاول النجاة بتذكيرهم بأن حبشوش سيأتي، يرفضون ويعنفونها، تذكرهم بالحاخام المقدسي بأنه حرم ذبحها (وهنا تقصد يزيد)، لا يأبهون. على حافة القبر المحفور سلفاً، تراه سعيدة واسعاً جدا، تستدير برقبتها إلى الخلف عله يظهر، يربطون قدميها بحبل طويل ومعصماها موثقان، "يا الله، ما يخونني موري حبشوش، هو بالطريق، يا أخوالي، بموسى ومزامير الحق حبشوش ما يكذب، أرسلوا من يبحث عنه وسألوه هل قبل يتزوجني". هكذا تقول وتشعر بالحبل يشتد حول قدميها ويرد عليها أحد أخوالها "توبي إلى الله، واطلبي الصفح، ورتلي المزامير". تفعل ذلك، لا وقت تبقى، ترتل ما استطاعت وتسرع بها لتتلو أكبر قدر ممكن. يسحب الخال الحبل المربوط للقدم، تسقط على ساعدها، ترتطم بالأرض بقوة وكما يتعاملون مع الناقة أثناء الذبح، قوة الارتطام أفقدها قدراً من توازنها، تحرك قدميها وتثير الغبار، تلمس بما استطاعت بأصابعها لعلها

تقف، قدم تدوس على جانب بطنها لمنعها من الحركة، غبار حركة الأقدام يرتفع مع كل حركة، وجهها مغطى بالتراب، يكتم نفسها ما تسلل منه لأنفها وفمها، تحاول البصق، فمها جاف، تختنق تدريجيا بفعل الغبار والتوثيق الشديد لكل شبر في جسدها، دقات قلبين تتعاظم قلبها وجنينها، أمسك بالمصر (غطاء الشعر) تنزلق يده، سحبها بقوة وأزاله، التهمت يدها خصلة شعرها، جذبه بقوة للخلف ليسحب معه رأسها وتتضح للذابح وسكينه المدى البعيد تتوسطه حنجرتها، وضع حادة السكين الباردة على جلد رقبتها من تحت الحنجرة، شعرت ببرودتها، (الله... موسى... الله... موسى) قالتها، تخدر جسدها ما قبل الصدمة، وبدت مستسلمة لموتها ومقلتاها ارتفعتا. بقوة، اندفعت اليد الممسكة بالسكين، تغلغلت شيئاً فشيئاً مخترقة الجلد مع سحبها وشحذها للأمام وللوراء وبزغ دمها الساخن بقوة على وجه الذابح وعلى ملابس من يمسك بها من المنتصف العلوي لجسدها، ورجلاها ترفسان رغم الإمساك الشديد بهما، واصلت السكين عبورها تبتر الشرايين والأوردة، انكسرت الفقرات وانقطع الحبل الشوكي وماجت الصدمة الفورية حال نفوذ السكين من خلف رقبة سعيدة. غريزة الذابح تزداد عنفا وهو ينتهي من فصل الرأس وتشنج وتغير شكل تقاسيم وجهه ويعض بعنف على أسنانه، ارتفع بالرأس وترك

المسكين بالجسد وهو يرفس بالرجلين واليدين بفعل ضخ الدم الذي لا يصل لمبتغاه في الدماغ بل يخر ساجدا للأرض. تنفسوا الثأر لشرفهم، الذابح ممسك بخصلة الشعر ورافع الرأس الذي مازال حيا يبعث بإشارات الحياة للقلب للمرة الثانية قبل أن يتوقف، يحدق في عيني سعيدة، ثواني وهو يتصفح شفتيها وأسنانها البارزة البيضاء الملطخة بالتراب، شعر بشيء يمسك قلبه ويكاد يوقف تنفسه وفقدان تدريجي لتوازنه وكأن جسده يزداد ثقلا ولا تقوى المفاصل على حمله، تبادر له الرعب الشديد للتو، قذف الرأس بسرعة وبقوة للقبر، ورمي السكين، وارتمى على الأرض ويداه ملطختان بالدماء. توقف جسد سعيدة عن الحركة والرفس بعد دقائق، قلبها اثنان بأرجلهما لمرات حتى سقطت من حافة القبر، وشيئاً فشيئاً من التراب حتى اختفت آخر شعرة من سعيدة.

***

في باريس، استدعي هاليفي للمقابلة الاستراتيجية بحضرة المستشار الاستراتيجي الأول لفرنسا في مكتبه. جلس مع المستشار حول طاولة ووزع عليها كتلة أوراق منظمة، قدم له رؤيته على الورق، أمسك بها المستشار وتصفح المقدمة وضعها جانبا وابتسم وقال باللغة الفرنسية:

- جوزيف هاليفي، شكرا للرب على سلامتك. سعيد لوجودك هنا. وأنا أكثر سعادة لمجهودك العظيم. لقد قدمت اضافة في هذه الرحلة إلى جانب رحلتك السابقة، (كانت قبل أزيد من عامين، عاد هاليفي من الحبشة، كان في مهمة برعاية الأليانس الإسرائيلية من أجل دراسة جماعة الفلاشا، والذي يعتقدون بأنهم جماعة من اليهود وأصولهم تعود إلى أيام الملك سليمان بن داوود.)
- شكرا سيدي.
- منذ البداية، كنت مراهنا عليك. وها أنت تنجح وترسم أول مسالك اليمن. هذا شيء عظيم تقدمه لفرنسا ولإخوانك يهود اليمن المضطهدين.
- نعم، هذا واجبي.
- والأهم أنك أول أوروبي تطأ أقدامه تلك المناطق.
- نعم. لهذا، تغمرني السعادة. فرحلة الاستكشاف التي قمت بها وجازفت بحياتي من أجل إنجاحها وتسللت إلى مناطق موحشة، لم يصل إليها أحد من قبلي. هذه الرحلة اعطت نتائج مهمة جداً سواءً في الآثار، أو في شتى المعارف حول شبه الجزيرة العربية. فقد وفقت وحصلت على نصوص حول حضارات الشعوب بشكل

عام وليس فقط ما يتعلق بحضارة سبأ. يسعدني أن أرى عملية الاستكشاف التي قمت بها أخذاً كل المخاطر التي تهدد حياتي في بلدان بربرية همجية والتي لم يصل لها أي أوروبي من قبل.

- حدثني عن أبرز ما لفت انتباهك، وما مدى قابلية الناس هناك للانتداب.

- بأمانة مهنية، وجدت أن رؤية البريطانيين صحيحة فيما يخص الشمال اليمني ووعورة الطبيعة وصلابة عقول الناس وأقدامهم على اختلاق الصراعات بقصد التفاخر والتربح. أقدر قرارهم الصحيح بالبقاء في عدن بمساحة لا تزيد عن ١١٩ ميلاً مربعاً، وعدم التوسع أكثر والاكتفاء بالنخب الموالية لها، وبتجار عملاء لهم يزودونهم بالآثار والتواصل مع رموز القبائل وشراء الولاءات. إن تركيبتهم هناك غريبة، يتعامل مع الأجنبي ويقبض المال ثم يتآمر عليه ليجني مزيدا من المال. لا يختلف عن القبائل العربية قديما بالتفاخر بالموت حيث أن النساء يبكين على الميت أنه مات بقدر ولم يُقتل. لقد أوجدوا قانونهم القبلي البديل عن الدولة لحماية مناطقهم، تتقاتل القبائل وتتصالح بذبح بقرة. لذلك، لديهم تقليد في الحشد والحرب والصلح. إن التعامل معهم عن قرب لا

يختلف عن زواحفهم في المكر والخداع. يورثون الصداع المزمن لكل من يدخل بلدهم، بريطانيا محظوظة لكونها سبقت وسيطرت على عدن. نعترف بذلك، فهي تعتبر جزيرة يمكن عزلها بسهولة. بالنسبة لفرنسا، عليها التصرف بذكاء الفرنسي المعهود والمشهود له. دونتُ أسماء رموز وقادة القبائل، يمكن التحكم بهم عن بعد بواسطة المادة. وتبقى لفرنسا أمكانية مناسبة، الشاطئ الغربي لمضيق باب المندب، منطقة (تاجورة) تطل شرقا على البحر الأحمر وخليج عدن. وعلى الجانب المقابل لها البحر الأحمر في شبه الجزيرة العربية والتي تبعد سواحلها عن اليمن نحو ١٣ ميلاً فقط. وتُقابل مضيق باب المندب من الجهة الأفريقية. تلك المنطقة مناسبة لأنها تقع في القرن الأفريقي. وهي أقرب حدود بحرية بين أفريقيا وأسيا على البحر الأحمر. وتمتاز بالهدوء التام.

- ما شكل المتغيرات المذهبية في نجران؟!
- سيدي، الأدلة ليست كافية حتى الساعة. لكني لا انفي وجود الحركة الوهابية هناك، وسأعتبرها قائمة مالم يُثبت العكس. في الإسلام، قتل المسلم حرام، ولكنهم يستخدمونه مبرراً لقتل المسلم

تحت دعوى التكفير لمن لا ينضم إليهم، ولمن لا يلتزم بالطقوس الدينية اليومية.

- تشخيصك لحال اليهود؟

- لقد ورثوا الكثير من صفات القبائل لكنهم مسالمون ولا يميلون للعنف أبدا وقد دجنهم الزمن وصاروا حذرين ويبحثون عن سبل الحياة والتعلم والتجارة إن سنحت لهم الفرصة. إنهم فقراء تحت حماية المسلمين حماية كاملة في مناطقهم ومذلولين في المناطق الأخرى. وكلما كان جارهم المسلم قوياً كلما كانوا أكثر جسارة. أرى فيهم العجز ولا يمكن التعويل عليهم في أي مشروع لاستنهاضهم في مناطقهم. إنهم خلل الميزان إن وضعناهم في الحسبان، هم مجرد مزارعين ومهنيين وقليلا منهم تجار، متشددون دينيا إلى أبعد حد.

- كيف فهمت رغبتهم في تحقيق الأوامر الإلهية في التوراة؟

- إنهم كسالى، وتلاوة الكتب هي أبعد مدى يصلون إليه. لكنهم قابلون للحاق بالركب.

- كيف وجدت التعامل الإسلامي معهم؟

- كانت لي تجربة مع رجل من حضرموت أذلني وقال لي إن في حضرموت يقتل الإنسان بمجرد أنه يهودي، ولست متأكداً من صحة كلامه، إلا أن الاحتقار يبدو واضحا. والتشدد يتحرك أحيانا بفعل فاعل ويغلب على مبادئ القبيلة.
- أحسنت في رسم الخرائط. كانت حرفية عالية. ولكني أرغب بتوضيح أكثر حول كل منطقة وسلوكيات أهلها.
- لقد بدأت ذلك بالفعل واحتاج وقتا. ولكني اعترف أن نظرتي تغيرت عندما زرت اليمن، لأني وجدت أن لكل منطقة طابعها الخاص. وإن خضعت منطقة، فلن تخضع الأخرى وتندلع الحروب بينهما. إن لهم حساسية لا مثيل لها من الأجنبي ابن المنطقة الأخرى فما بالك بالأجنبي الأوروبي؟! عرفت أن قبائل همدان الجوف اجتمعت وقررت هدم آثار حجرية لأنها سبب تطفل الأجانب على بلادهم، ففضلوا أن يدمروها على أن يدخل الأجنبي مناطقهم.
- رؤيتك بالتعامل معهم؟

- من الأفضل تقليد البريطانيين. فلهم خبرة أكبر ونجحوا في تلك المنطقة ولهم سلاطين عملاء حول عدن. توسع السلطنات وإضافة سلطنات جديدة حتى الوصول للمبتغى.

***

عند فحص الدولة العليا العثمانية على السجون والمساجين، تم إطلاق سراح من فقد عقله، وهم كثر، ومن لم تثبت إدانته. وعندما وصل الدور لزيارة المسؤول التركي إلى سجن حبشوش برفقة كاتبه ومدير السجن الحالي وهو الصنعاني، سأل حبشوش عن تهمته بعد أن انحنى المسؤول نحو الحفرة وقد وضع راحة يده على أنفه وفمه من بشاعة الرائحة المنبثقة من السجن أسوة بغيره. أجابه حبشوش بطلب:

- أخرجني يا سيدي من هذه الحفرة أتنفس. فأنا حاخام يهودي.

يعلم حبشوش أن ذلك المسؤول تركي وأنهم دخلوا صنعاء. فقبل دخوله السجن، كانت الأخبار متواترة عن رغبة الأتراك في السيطرة على صنعاء. أمر التركي أحد الجنود بإخراجه من الحفرة، اندس الجندي للحفرة وفك القيد من وتد الصخرة وجر حبشوش إلى خارج الحفرة بواسطة السلسلة التي تقيده من قدميه. بدأت عينا حبشوش تستقبلان الضوء تدريجيا

ويشعران بالدوران، حاول نطق كلمات بمشقة ما بين موت مطبق وأمل في الحياة إن كتبت له "سيدي أنا حاخام ومظلوم".

تراجع التركي خطوه إلى للخلف ليبتعد عن الرائحة الكريهة وسأل:

- ما هي تهمتك؟

أجاب حبشوش بنفس متقطع وقد ابتكر لنفسه تهمة:

- السبب الجزية. رفضت أن أدفعها لجاري القبيلي وبنفس الوقت أنا أدفعها للحاكم.

هز التركي رأسه وأمر الجندي:

- فك قيوده.

استدار التركي نحو مساعد له بيده دفتر يدون فيه الأوامر:

- أمرنا بالتحقق مما قاله الحاخام. وإن صدق بذلك، يطلق سراحه وعلى ضمانة إثنين من عقال اليهود.

مدير السجن الصنعاني يعلم جيدا تهمة حبشوش ولمَ سجن. ولولا الأزمة السياسية وانشغال الحكام بها، لتم تحويل حبشوش للمحكمة. حبشوش لم يدرك أن الصنعاني متواجد وإلا ما كذب. وما أن استدار والوعي يعود له تدريجيا حتى وقعت عيناه في الصنعاني الذي التزم الصمت. شهق وهز رأسه كمن يتوسل. ثواني حتى تقدم الصنعاني من المسؤول التركي وقال:

- أنا مطلع على قضية حبشوش.

ارتعدت فرائصه وشعر أن الأرض لم تعد تحتمل بقاءه واسودت الدنيا بوجهه. صوب المسؤول التركي ناظريه في عيني الصنعاني وسأله:

- هل ما قاله الحاخام صحيح؟

نظر الصنعاني في وجه حبشوش وعاد ليصوب ناظريه في وجه التركي وأجاب:

- نعم. الحاخام صادق وهو من خيار اليهود. وأنا أضمنه.

تنفس حبشوش الصعداء وهو يرى الحياة مجددا على بعد زمن قريب جدا، فقال التركي للكاتب:

- أمرنا بأطلاق سراح الحاخام، وبدفع الجزية للسلطة العليا حصرا ولا تدفع للجار المسلم.

(عز الله أصلك يالقبيلي النشمي، أشهد أنك من أنبل العرب يالصنعاني، وقفتك معي بحجم جبال نقم وعطان ونهم، وما ينسا لك حاييم حبشوش وقفتك) هكذا تمتم في سره.

خرج حبشوش من السجن يركض لتجهيز ما يمكن للسفر نحو نجران مجددا. قلبه يشتعل ناراً على سعيدة ويُمني نفسه بالوصول إليها بأسرع وقت ممكن ويفي بالوعد الذي قطعه، فصورتها لم تفارق خياله ولا صوتها

العذب الساكن في مسامعه. وكما هو الحال العام في اليمن بتنقل الأخبار، من المؤكد أنه سيعلم بمصير سعيدة قبل بلوغه نصف الطريق، لأن الأخبار تتناقل من قرية لأخرى حتى تصل إلى أقصى نقطة في اليمن مهما كان بعد المسافة. وحينها، فليكن الله في عونه لأنه أحب سعيدة وارتبط بها وجدانيا وروحيا.

***

باريس ٢١ تموز١٨٧١، قدم هاليفي تقريراً حول بعثته الأثرية إلى اليمن، شرح فيه المناطق التي مر بها وحال اليهود في أغلب القرى وامتدح مضيفيه في أماكن معينة وقلل من مستواهم في مناطق أخرى ولذلك أسبابه. فهو الذي عاش التجربة. شرح تفاصيل رأى أنها ذات أهمية ولم يترك فراغا لوضعه النفسي في اليمن، بل أسهب في ذلك. تحدث عن نفسه باعتزاز وفخر شديدين، شرح التوجهات الدينية والمذهبية في اليمن كافة والجوار والولاءات في بعض المناطق.

أبدى اهتماما بحضارات الشعوب السامية وبالنقوش الحِمْيَرية والسبئية. تحدث عن مسار الرحلة بطريقة خرائطية. وفي الأخير، أوضح أنه فتح

المجال لمن يأتي من بعده من الرحالة. ومن المؤكد أن تجربته سيهتم بها كل من ينوي استكشاف اليمن..

في حضرة وزير التعليم، وبعض من مستشاريه، وكأنها جلسة استجواب لهاليفي ولكنها في الحقيقة جلسة استيضاح وتقديم التقرير الذي يخص وزارة التعليم، قال له الوزير ولمستشاريه مفتتحاً جلسة الاستماع باللغة الفرنسية:

- أود أن أقدم الشكر مسيو هاليفي على مجهوده ومغامرته في بلاد غير معروفة لنا بالشكل المطلق خاصة المناطق القبلية والجبلية. وأسمح بالكلام لمسيو هاليفي، تفضل.

تنحنح هاليفي وقال:

- شكرا. لأكون صريحا معكم من حيث الأمانة العلمية. رحلتي لم تكن كما توقعت من جوانب عدة، أهمها طباع الناس وصعوبة التعامل معهم ولولا أني دخلت باسم يزيد لبيب عاطف متسول قادم من القدس، لقتلت. وقد تعرضت لأبشع أنواع الاضطهاد والرعب ونجوت من الموت مرات بمعجزات ما كانت لتتحقق لغيري. وجدت أن كنوز حضارة المنطقة مدفونة تحت تراب اليمن وبذلت قصار جهدي للوصول إلى كل نقطة فيها آثار وجئت

بمئات المنسوخات والمخطوطات. أتمنى سيدي الوزير أن تكون رحلتي قد أسهمت في إيضاح السؤال حول الساميين. الوثائق الحِمْيَرية المكتشفة يفترض أن توضح لنا الخصائص السامية. لا يمكننا النفي بأن اليمن بلد سامٍ أصيل. الشعب السبئي كان منعزلاً عن العالم بسبب تحزمه بحزام صحراوي عريض. وهذا سبب عدم تعرف الأوروبيين عليه إلا منذ حملة القائد الروماني (اليوس جالوس) والتي أخفقت. الشعوب الحيوية جعلت المؤرخين القدماء يتعرفون عليها ويقدمون لنا الكثير من المعلومات. فالنقوش المكتشفة في السواحل الفينيقية والمناطق التي استعمروها، قد أغنت دائرة معارفنا. يمكن القول سيدي الوزير إن معارفنا عن بقية الشعوب السامية وخاصة عن السبئيين والحِمْيَريين الذين نادراً ما ذكر المؤرخون الإغريقيون والرومان بعض الأحداث عنهم، في حين كان يفترض على المؤرخين العرب أن يكون لديهم معلومات كافية عن الأحداث التي وقعت لمناطق ينتمون إليها أو مجاورة لهم. للأسف، لم يستطيعوا الاحتفاظ والتدوين سوى ببعض أسماء ملوك حِمْيَر وبكمية كبيرة من الأساطير والخرافات. فالعرب لديهم ثقافة الحرق، فهم يحرقون

مخطوطات وأرشيف من سبقهم كنوع من طمس السابق من الذاكرة ومحاولة تخليد الحالي. وما إن يأتي القادم حتى يفعل نفس الشيء. للأسف، يتفننون بهذا النوع من الانتقام.

- في التقرير الذي بين أيديكم سيدي الوزير، وضحت ما هو مهم، وهناك الكثير سأدونه في كتابين. وأنا مستعد للإجابة على أسئلتكم.

لاحظ مستشار:

- لم تتطرق لأسماء من ساعدك في اليمن ليستفيد منها المستكشفون الآخرون بالاتصال معهم قبل سفرهم.

أجاب هاليفي بشيء من التلعثم:

- من قابلته باليمن لا يمكن الوثوق به. فهم مجتمع مادي وسرعان ما يتنكرون. ولكني سأشرح كل شيء بالتفصيل في الكتابين. وقد بدأت في ذلك.

سأله مستشار آخر:

- هل وجدت وسيلة لحمل ونقل تماثيل إلى عدن؟

- الوسيلة هي المال. ولكن الطرق والجمّال لا تسمح أبدا بوصول التماثيل سليمة. يمكن استخدام هذه الطريقة فقط لنقل الأحجار.

فاليمن جبال وسهول وطرق غير سوية أبدا. كما أن قطاع الطرق عائق كبير. وغالبا ما تخضع القوافل لتفتيش في ممرات القبائل حيث نفوذهم.

قال الوزير:

- أشكر مسيو هاليفي، فقد أبلى بلاء حسنا وأتمنى أن يخصص وقت للرد على أسئلة الطموحين لاستكشاف اليمن ونقل خبرته بسلاسة لتفادي الأخطاء.

رد هاليفي بجدية:

- أنا مستعد لذلك.

***

مجمع الأدب والنقوش في باريس. منذ دقائق وهاليفي ينتظر تقريراً نهائياً عن النقوش (٦٨٥ نقشاً جلبها معه) والمخطوطات والنحاسيات والتي ستسجل باسم المكتشف. جاءه المسؤول وقد رسم على وجهه تكشيرة، وقف أمام هاليفي صامتا وبيده ملف. قال له:

- مسيو جوزيف هاليفي.
- نعم.

- يؤسفني إبلاغك بأن أغلب الواح النحاسيات المنقوشة مزورة بحرفية عالية جدا.
- ماذا؟ (شهق هاليفي شهقة الموت من هول الصدمة، وراحت مخيلته تقلب ماضياً وسؤالاً حاضراً، كيف؟)
- وليس هذا فقط.

جحظت عينا هاليفي وانهار على الكرسي ووضع يده على جبهته. والكلام مازال للمسؤول:

- كذلك مخطوطات مزورة وليس جميعها، جلود بعض المخطوطات قديمة والكتابة حديثة. يبدو أن حرفياً لا يقل قدرة عن الشياطين هو من نسخ ونقش ذلك. أما المنسوخات، فأغلبها جيدة. لا تحزن، فمن حيث الفائدة، المزيفة نسخة عن الأصل وهنا تكمن الاستفادة.

خرج هاليفي من مبنى مجمع الأدب والنقوش، يضرب بيده غضبا كل حائط يمرّ من أمامه، جزء من رحلته سراب. ولكن مازال السؤال حاضرا وبقوة عنده وعند الخبراء وهو: كيف حصل ذلك؟! شتائم اللغات التي تعلمها أطلقها جوزيف هاليفي على حبشوش، ولم تسلم تقاريره من وصف دليله بالمهووس والعربي سيء الصيت، وبأن همه الأول كان

التخلص من دليله الذي قابله رغماً عنه. رغم الإخفاق النسبي في رحلته، إلا أنه يدرك معنى رحلته من حيث الأهمية بمكان تشجع غيره من المستكشفين والباحثين والمهتمين في شؤون اليمن من الاستفادة من تجربته وتكرارها بسلبيات أقل. ويدرك أيضا أن اسمه سيبقى في تاريخ هذه الحقبة الهامة في اليمن التي فصلت بين زمنين، حيث دخل اليمن وصنعاء تحت حكم الأئمة وغادرها والعثمانيون يشرعون لفرض سيطرتهم على صنعاء.

انتهى

كلمة شكر

أتقدم بالشكر الجزيل لكل من: المكتبة التاريخية اليمنية، مجموعة نقوش مسندية والقائمين عليها، الأرشيف اليمني وكل مؤرخ وباحث ممن كان لمجهودهم أثرا واضحاً في التحصل على المعلومات التاريخية الدقيقة، التي جعلت من هذا العمل الروائي مرجعاً مهماً ومصدراً دقيقاً للمعلومات التاريخية اليمنية.

المؤلف



إصدار

المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية

برلين – ألمانيا

الطبعة الأولى

٢٠١٩